كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

بصائر المعرفة القرآنية
﴿١٨﴾

تسوير السور القرآنية
﴿١٤﴾

مفصل تفسير

سورة البقرة

﴿الم ١﴾

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم
وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الثالث

تفسير وبصائر الآيات (٣٠-٣٩)

القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري
والتكريم الإلهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة البقرة

الجزء الثالث

MUFASSAL

TEFSİR SURE EL-BAKARA

EL-MİHVER EL-SANİ

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul

2024 - 1446

بصائر المعرفة القرآنية
﴿١٨﴾

تسوير السور القرآنية
﴿١٤﴾

مفصل تفسير

سورة البقرة

﴿الزهراء الأولى﴾

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم
وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الثالث

تفسير وبصائر الآيات (٣٠-٣٩)

القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري
والتكريم الإلهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة البقرة

الجزء الثالث

عبد السلام مقبل المجيدي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 240 ص

ISBN: 978-625-6451-64-3

الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

أ. د/ عبد الفتاح محمد أحمد خضر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر،
وعميد كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا

أ.د/ عبد الحق عبد الدائم القاضي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي صنعاء وأم القرى بمكة المكرمة،
والعميد الأسبق للكلية العليا للقرآن الكريم بصنعاء

المراجعون

الشيخ/ العزي سليمان — د/ نبيل طرمم

أ.د/ سعيد بن دحباج — د/ حمود ردمان

د/ عامر الخميسي — أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع
إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح محمد أحمد خضر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فقد حظيت بشرف الاطلاع على ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي من خلال تحكيمي لكتابه الموسوم بـ **"المحور الثاني من مفصَّل تفسير سورة البقرة (تفسير- بصائر الآيات (٣٠-٣٩)"**.

وقد غمرتني البهجة والرَّاحة النَّفسيَّة لما طالعته من أسلوب مقنع، يتَّسم بالعصرية مع الاحتفاظ بالأصالة.

يخاطب إنسان هذا الزَّمان بكلِّ أنواع البراهين العقليَّة المقبولة المقنعة، التي تخاطب فطرة الإنسان، وتشبع نهمة عقله، وتجذبه لمواصلة المطالعة من غير ملل.

والمكتوب الرائع -للدكتور الموقر- شديد الشَّبَه بعبقريات صاحب الكشاف الإمام الزَّمخشريِّ، خاصَّة (فَنْقُلاته) التي تفترض عصفًا ذهنيًّا يحكي السُّؤال الافتراضي، ومن ثَمَّ الجواب المقنع المُبَرْهَن المُدَلَّل ...(فإن قلتَ ...قلتُ).

وجودة التَّعليم في هذا الزَّمان جَعَلَتْ هذه الطَّريقة من أبرع الطُّرق للتَّعلُّم والتَّعليم..

العصف الذِّهنيُّ ..والسُّؤال والجواب ...والتَّدليل المعرفيُّ الممتع ...

مشروعٌ علميٌّ نابِهٌ ناجعٌ يستحق التقدير قبل الطباعة وبعدها..

على كلِّ حال أكرر سعادتي واحتفائي بهذا الفكر الرَّائق الرَّائع لسماحة أ.د/ عبد السلام المجيدي -حفظه الله تعالى-.

ودومًا من توفيق إلى توفيق، بل إلى مزيد من الألق والقبول من الله تعالى، ثم من الناس نفعًا ونهلًا من ينابيع عِلْمه، وطريقته المُشَوِّقة لعلم التفسير القرآني الرائق.

والله ولي التوفيق

كتبه العبد الفقير لربه الغني:

أ.د/ عبد الفتاح محمد أحمد خضر

عميد كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا / جامعة الأزهر

واتساب ٠٠٢٠١٠٦٩٢٣٦٤٧٣

Khedr299@hotmail.com

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد قرأت هذا البحث من أوله الى آخره ووجدت فيه متعةً علميَّةً تدلُّ على مهاره الباحث، وقدرته العلمية، وأسلوب المحاورة والإقناع؛ حيث عالج الموضوع معالجة علمية بأدلة مقنعة، وبراهين ساطعة واضحة.

فالبحث ممتاز في بابه، مكتمل في مضمونه، أصيل في أصوله وتفريعاته، ومراجعه ومناقشاته، حيث تكلَّم عن القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري والتكريم الالهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض، وتعرَّض للحديث عن خصائص الملائكة عليهم السلام، وتكريم آدم عليه السلام، وعن عدوِّ البشرية إبليس اللعين، حيث وسوس لأبينا آدم وزوجه عليهما السلام وأخرجهما من الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض، وعمارتها، واستخلاف آدم عليه السلام.

وبالجملة؛ فالبحث شيِّقٌ يدلُّ على مهاره الباحث، وقدرته على المناقشة والإقناع.

وَفَّقَ الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

أ.د/ عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة صنعاء، وجامعة أم القرى/ مكة المكرمة

وعميد الكلية العليا للقرآن الكريم بصنعاء الأسبق

الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض (البقرة: ١-٢)

المقدمة الثانية: التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن) (البقرة: ٢-٢٠)

- **المحور الأول:** الإعلان الإلهي للبشرية عن النظام الحقيقي الوحيد للحياة الإنسانية، وهو نظام العبادة الذي يؤدي إلى الفلاح، وأرقى درجات السعادة، وبراهين ذلك [البقرة: 21-29].
- **المحور الثاني:** القصة الحقيقية لبدء التاريخ البشري، والتكريم الإلهي للإنسانية بالاستخلاف في الأرض [البقرة: 30-39].
- **المحور الثالث:** (المحور الإسرائيلي) دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد، والإيمان بالنبي الخاتم، والأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف [البقرة: 40-123].
- **المحور الرابع:** إرث الأمة الإسلامية للملة الإبراهيمية [البقرة: 124-158].
- **المحور الخامس:** أعظم الحقائق الكونية التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصورة المطلوبة: حقيقة التوحيد المقترنة بالرحمة، وموانع اعتناقها [البقرة: 159-171].
- **المحور السادس:** التمكين التشريعي للحضارة الإسلامية الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القسط الأول): وذكر الله عز وجل فيه النظم التشريعية الفقهية الحياتية، وآثارها في صناعة حياة الرشد، والعدل، والإحسان [البقرة: 172-207].
- **المحور السابع:** الدخول في السلم كافة (الإسلام والسلام)، فهو شرط تحقق الرشد، والعدل، والإحسان في الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم [البقرة: 208-214].
- **المحور الثامن:** التمكين التشريعي للحضارة الإسلامية الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القسط الثاني): وذكر الله عز وجل فيه النظم التشريعية الفقهية الحياتية، وآثارها في صناعة حياة الرشد، والعدل، والإحسان [البقرة: 215-242].
- **المحور التاسع:** سُنَن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين (سُنة التدافع): لتقوم الحضارة الإسلامية الجديدة في المدينة، وتخرج من استضعاف القوى المجرمة، كما أقام داود عليه السلام حضارته [البقرة: 243-254].
- **المحور العاشر:** الحضارة الإسلامية الجديدة تشرق على العالم بالتعريف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته: لتتحقق الثقة به في الخروج من الاستضعاف، ولتكون الرسالة عالمية [البقرة: 255-260].
- **المحور الحادي عشر:** إشراق الحضارة الإسلامية بالإدارة المتميزة للأموال إنفاقا عادلا لها في المجتمع، وتنظيما لاستثمارها وتنميتها [البقرة: 261-283].

الخاتمة:

السورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش [البقرة: 284-286].

عبد السلام مقبل المجيدي

موضوع سورة البقرة الكلّي الذي دارت حوله محاور السُّورة

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المحور الثاني

القصَّةُ الحقيقيَّةُ لبَدْءِ التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريمُ الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض

[البقرة: 30-39]

المحور الثاني

القصَّةُ الحقيقيَّةُ لبَدْءِ التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريمُ الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض [البقرة:٣٠-٣٩]

آيات هذا المحور:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

المناسبة والاتصال:

أول سؤال نضعه ونحن نتدبر هذه الآيات: ما المناسبة والاتصال بين هذا المحور وما سبقه؟ ولماذا جاء هذا المحور في هذا الموضع من السُّورَة، ومن القرآن المجيد كُلِّهِ؟

الجواب: رُبَّمَا تعجَّبتَ لماذا أَخَّرَ الله ﷻ الكلام عن بيان كيفية خلق البشريَّة، وتكريمها إلى الآية (٣٠).. لا تعجب! فهذا هو المكان المناسب في الكتاب الخاتم المهيمن، فتعال بنا ننظر

في الإحكام البديع، والاتصال الظاهر بين هذه الآيات وما قبلها ليظهر لنا جمال النَّظْم القرآنيِّ، فدونكه ملخَّصًا في الوجوه الآتية:

الوجه الأول: احتوت مقدِّمة سورة البقرة على ذكر الدستور الذي لا ريب في إصلاحه العالَمَ، وكان المحور الأول فيها محتويًا على البيان الإلهي العالمي حول النظام الذي يصلحهم، وهو نظام عبادة الله وحده، وبيَّنَ اللهُ ﷻ أدلَّة استحقاقه لذلك، وتَضَمَّنَتِ الأدلة الإشارة إلى أن الله ﷻ خَلَقَ الكون أرضًا وسماءً وسَخَّرَهُما لتُفيد البشريَّة منهما، وبذا بيَّنَ ﷻ بأنه أنزل الشَّريعة وخلق الطبيعة قبل أن يخلق الإنسانيَّة لمصالحهم، وآن الأوان لِذِكْرِ كيف كانت بداية البشريَّة.

وهنا ترى القرآن المجيد يقدِّم لك وحده ثروةً هائلةً «من الحقائق والتَّصَوُّرَاتِ القويمة، وثروةً من الإيحاءات والتَّوجيهات الكريمة، وثروةً من الأسس التي يقوم عليها تَصَوُّر اجتماعيٌّ وأوضاع اجتماعيَّة، يحكمها الخُلُقُ الحسن والخير والفضيلة».

ابتدأت السُّورَة ابتداء منطقيًّا بذكر الأساس الذي يُعرف به أهداف الوجود الكوني؛ فقد عَرَّفَتِ الآية بالكتاب الذي لا ريب في أنه تُستمد منه المعرفة الحقيقيَّة، وهو الدُّستور الذي ينبغي أن يسير العالم وَفْق تعاليمه إن أراد تحقيق السَّعادة، وبناءً على ذلك قسَّم الله ﷻ العالم إلى الأصناف الثلاثة الأساسية التي تشكِّل أَهَمَّ القوى البشريَّة المؤثِّرة في الجانب الخَيِّرِ والجانب السَّيئِ.

ثم انتقل بالبشريَّة إلى تعريفهم بأهَمِّ ما يدعو إليه الكتاب لإسعاد العالم.. إنه نظام العبادة التي ترتقي بهم إلى مرتبة التقوى، التي تعني وضع الحماية والوقاية اللَّازمة بين البشريَّة وبين الشُّرور الذَّاتيَّة والخارجيَّة.

ومن خلال الأدلَّة والبراهين التي تثبت استحقاق الله ﷻ للإيمان به، والعبادة له ذَكَر الله ﷻ كيفية بدء الخلق وتكوين السَّمَوَات والأرض..

فبعد ذِكْرِ ما يملأ القلب والعقل والروح، وما يُسْعِدُ الجسد من تهيئة البيئة للوجود الإنسانيِّ القادم انتقل إلى ذكر الجسد والمادَّة للإجابة عن سؤالٍ حول كيفية البداية البشريَّة لِتظهر قصَّةُ البداية من غير احتياجٍ إلى البحث والتَّخمين، ولِتَتِمَّ الإجابة التَّفصيليَّة على الأسئلة الكونيَّة الكبرى: من أين جئت؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

وبذا يستبين أصل الوجود الإنسانيِّ، كما تتميَّز مظاهر التَّكريم التي صَحِبَتْ بداية الخلق البشري؛ لتكون أَدْعَى لِمَحَبَّتِهم لخالقهم، وأَدَلَّ على معرفتهم بعدوِّهم، وليظهر لهم سببُ وجودهم في الدنيا.

وهنا تلاحظ أنه يمكنك جَعْلُ هذا المحور مبتدئًا بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]؛ إذ بَيَّنَ أُمورًا تتعلَّق بإيجاد البشر، كما يشير إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فهي كالممهِّدة للمحور الثاني، ويبين ذلك قوَّة ارتباط المحورين، أحدهما بالآخر.

هنا ربما تسأل: فهل يؤدي حرف الواو في قول ربنا ﷻ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] دورًا في بيان صورة الاتصال بين هذا المحور والذي قبله؟

ودونك الجواب – وفَّقك الله – في:

الوجه الثاني: الاتِّصَالُ اللُّغويُّ الخِطَابيُّ الذي يؤدِّيه حرف العطف (الواو) بصورةٍ مدهشة في قول ربنا ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠]!

فكأنَّ الله ﷻ قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؟! وكيف تكفرون بالله و﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؟ وكيف تكفرون بالله ﷻ وقد قال للملائكة عليهم السلام: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فخلقكم من العدم ثم أعطاكم هذه المكانة؟!

كيف تكفرون بالذي أعطاكم كلَّ هذه النِّعم؟!

وبَيَّنَ الله تعالى ذلك في آياتٍ أخرى كقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٩].

فحقَّق العطف بالواو أغراضًا متعدِّدةً منها:

بيان دليل جديد على وجوب عبادة الله ﷻ؛ إذ جعل آدم عليه السلام خليفة، وبيان التَّرتيب التَّاريخيِّ في وجود الخلائق، إذ بدأ بالسَّمَوَات والأرض، ثم ذكر خلق الإنسان، كما قال الطَّبريُّ رحمه الله: «قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: لمَّا سلف قبله تذكير الله ﷻ المخاطبين به ما سلف قِبَلهم، وقِبَل آبائهم من أياديه وآلائه، وكانَ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مع ما بعده من النِّعم التي عدَّدها عليهم، ونبَّههم على مواقعها – رَدَّ: ﴿إِذْ﴾ على موضع: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؛ لأن معنى ذلك: اذكروا هذه من نِعَمي، وهذه التي قُلت فيها للملائكة عليهم السلام.. فلما كانت الأولى مقتضية ﴿إِذْ﴾، عطف بـ ﴿إِذْ﴾ على موضعها في الأولى»(١).

الوجه الثالث: ختم الله ﷻ المحور السابق بصفة العلم فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهنا بيَّن تَمَيُّزَ النَّوع البشريِّ بصفة العلم التي منحها الله جل جلاله إيَّاهم.

وهو بمعنى التَّكريم لآدم عليه السلام وذريته؛ إذ ميَّزهم عن الملائكة عليهم السلام بصفة هي صفة له ﷻ، ونلحظ هنا حضورًا لذِكر العِلم، وإشادةً مبكرةً بشأنه في أولى لحظات خَلْقِ آدم عليه السلام وخروجه

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٤٤).

من العدم إلى الوجود، وفي هذا من عظيم الدلالة على مكانة العِلم ورفيع منزلته في ديننا، ويعظم من شأن هذه المكانة والمنزلة أن المُعَلِّم هو الله ﷻ، وأن العِلم كان بجميع الأسماء ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وقد نظم الدكتور عامر الخميسي- وفقه الله- الميزات التي أكرم الله ﷻ بها آدم عليه السلام، حيث قال:

وَكَـرَّمَ اللهُ الـعَـظِـيـمُ آدَمَ ... بِـالـخَـلْـقِ جَـلَّ اللهُ ثُـمَّ عَـلَّـمَـا

ثُـمَّـتَ كَـانَ الأَمْـرُ بِـالسُّـجُـودِ ... وَنِـعْـمَـةُ الـتَّـسْـخِـيـرِ فِـي الـوُجُـودِ

حَـتَّـى يَـكُـونَ سَـيِّـدًا خَـلِـيـفَـه ... يَـقُـومُ بِـالـمُـهِـمَّـةِ الشَّـرِيـفَـهْ

هنا ستبادر إلى أن تسأل: فما الأقسام التي تكوَّنت منها آيات هذا المحور؟

ودونك الجواب- وفَّقك الله-:

يتكون المحور الثاني من ثلاثة أقسامٍ توضِّح للبشرية البداية الحقيقيَّة لوجودهم في العالم، وهذه الأقسام هي:

القِسم الأول: بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأول (آدم عليه السلام) [البقرة: ٣٠-٣٤].

القِسم الثاني: تدريب آدم عليه السلام على إدارة الحياة المُنَظَّمَة خلال المدَّة التَّجريبيَّة في الجَنَّة لِيستعدَّ للتَّعَامُل مع الواقع في الأرض [البقرة: ٣٥-٣٦].

القِسم الثالث: الهبوط إلى الأرض، وعوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا [البقرة: ٣٦-٣٩].

المحور الثاني

قصَّة بَدْءِ التاريخ البشريِّ، والتَّكريمِ الإلهي للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض [البقرة: ٣٠-٣٩]

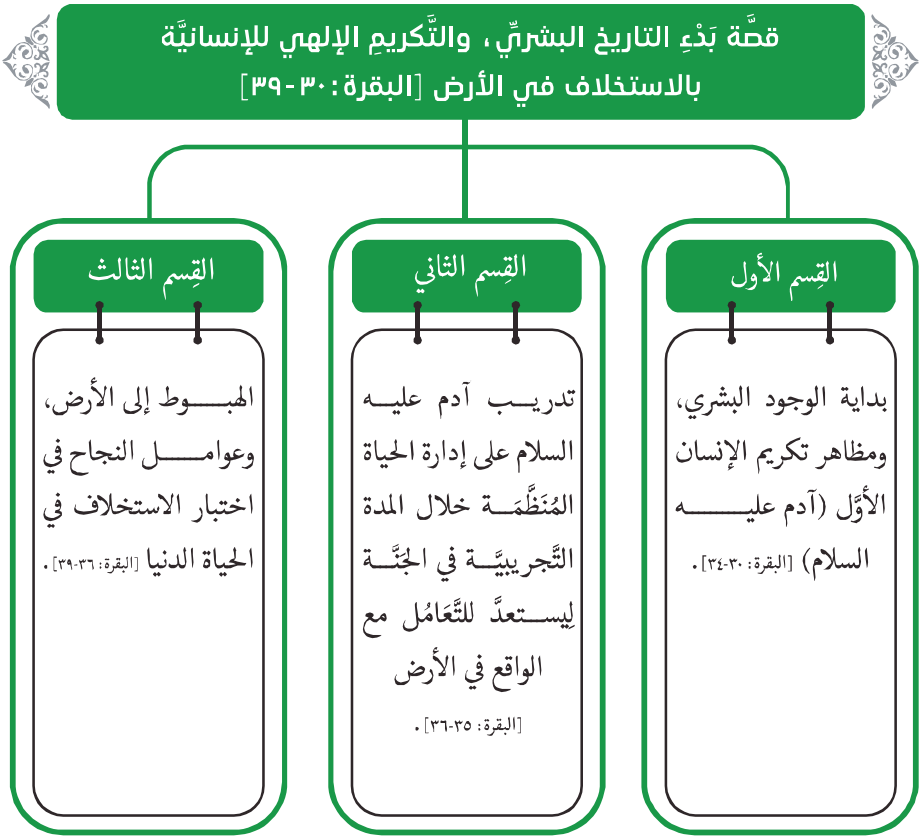

القسم الأول

بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأوَّل (آدم عليه السلام) [البقرة: ٣٠-٣٤]

الآيات التي أنارتنا بالمعرفة اللَّازمة حول ذلك هي قوله تعالى ذكره:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤].

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان

١ المظهر التكريمي الأول
بيان الخريطة الحقيقية للحياة الإنسانية بعيدًا عن التخمين والتيه والضياع والضلال، فالمراحل الإنسانيّة الكبرى خمسٌ: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٨].

٢ المظهر التكريمي الثاني
تهيئة البيئة المناسبة للحياة الإنسانية، فهيأ الله عز وجل الأرض للإنسان، وجَعَله السيد الأول الذي استخلفه ليدير العيش فيها: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٩].

٣ المظهر التكريمي الثالث
التكريم بالإعلان عن خلق آدم عليه السلام:
{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠].

٤ المظهر التكريمي الرابع
التكريم بتحديد مركز البشريّة في الكون؛ إذ جعل الله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض، فقال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠].

٥ المظهر التكريمي الخامس
تكريم آدم عليه السلام بالعلم والمعرفة (الاستعداد الإنسانيّ للمعرفة)
{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... } [البقرة: ٣١-٣٣].

٦ المظهر التكريمي السادس
تكريم آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة عليهم السلام له
{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} [البقرة: ٣٤].

٧ المظهر التكريمي السابع
رسم خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء وبين الأعداء
{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤].

٨ المظهر التكريمي الثامن
إسكان آدم وزوجه عليهما السلام الجنة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...} [البقرة: ٣٥]، ولكن هذا سنتكلم عليه باعتباره قسمًا مستقلًا.

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان:

تُبَصِّرُنا الآيات في هذا السِّياق بمظاهر مُذْهلةٍ تُبيِّن التكريم الإلهيَّ للإنسان، وتمثَّلَتْ في سبعة أنواع من التكريم:

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الأَوَّلُ: بيان الخريطة الحقيقيَّة للحياة الإنسانيَّة التي تعصمها من التخمين والتيه في أودية الضياع والضلال:

فالمراحل الإنسانيَّة الكبرى خمسٌ، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الثاني: تهيئة البيئة المناسبة للحياة الإنسانيَّة:

فقد هيّأ الله ﷻ الأرض للإنسان، وجَعَله السيِّد الأوَّل الذي استخلفه ليدير العيش فيها، ويبصِّرُنا بذلك قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

وهنا لا بد أن نتساءل: هذان المظهران التكريميان العظيمان: على ماذا يدلان؟

الجواب: هنا توقن بالنظرة الإسلامية للإنسانية.. إنها نظرة مدهشة، لقد خلق الله ﷻ لنا ما في الأرض جميعًا، وبذلك ترى الإنسان «أعز وأكرم وأغلى من كلِّ شيءٍ ماديٍّ، ومن كلِّ قيمة ماديَّة في هذه الأرض جميعًا.. ولا يجوز إذن أن يُستعبد أو يُستذل لقاء توفير قيمةٍ ماديةٍ أو شيءٍ ماديٍّ.. لا يجوز أن يُعتدى على أيِّ مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة.. ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب ماديٍّ، أو إنتاج أي شيء ماديٍّ، أو تكثير أي عنصر ماديٍّ.. فهذه الماديات كلها مخلوقة -أو مصنوعة - من أجله، من أجل تحقيق إنسانيته، من

أجل تقرير وجوده الإنساني، فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانيَّة، أو نقص مقوم من مقوِّمات كرامته».

ويبين البقاعي رحمه الله هذا الاتصال المدهش بين قصَّة آدم عليه السلام والآية التي قبلها، فيقول: «لم يخلق هذا النوع البشري للفناء بل للبقاء بما أبان عن أنه إنما خلق جميع ما في هذه الأكوان لأجلهم، فالبعض رزقٌ لهم والبعض أسبابٌ لهم، والبعض أَسْجَدهم لأبيهم وهم في صُلبه، ووَكَلَهُم بهم في حِفْظِ أعمالهم، وقَسْمِ أرزاقهم، ونَفْخِ أرواحهم، وغير ذلك من تربيتهم وإصلاحهم»[(١)]، وبذا يكون للإنسان مكانته المقصودة في تدبير الله جل جلاله، فهو -كما يقول محمد إقبال-: «غاية وجود هذا الكون، ولأجله خلق الله سبحانه وتعالى هذا العالم، وأبرزه إلى الوجود»[(٢)].

والإنسان جزءٌ من الخُطَّة الكونيَّة العظيمة، فلم يأت عبثًا، ولا جاء نظرًا لصدفةٍ عابرة، ولا هو وسخٌ كيميائيٌّ كما يقول مجانين الملحدين، ولم يأت ليكون خادمًا لوسائل الإنتاج وعبدًا للمادية، بل المادة جزءٌ من المخلوقات التي ذلَّلَها الله عز وجل له، فلا يُضَحَّى بالإنسان لأجل المادة التي يجري خلفها الأنانيون، بل يُضَحَّى بالمادة لأجل قيمة الإنسان ومكانته.

يـا تَـائـهًـا في مَـهْـمَـهٍ عَـنْ سِـرِّه ... انظُرْ تجدْ فيك الوجودَ بـأسْـرِه
أنـت الـكـمـالُ طـريـقـةً وحـقـيـقـةً ... يـا جـامعًـا سِـرَّ الإلـهِ بـأسـرِه[(٣)]

هذا الدليل القرآني يزيدك إيمانًا به التفكر العقلي، فـ(أنطوني فُلو) الملحد الشهير الذي تحول إلى الإيمان العام في الثمانينات من عمره يشعر بهذا الدليل القرآني بمجرد التفكر العقلي حيث يقرر أن الفلسفة أنجزت مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما توصّلت إلى تفسير نشأة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٢٦).

(٢) روائع محمد إقبال، أبو الحسن الندوي (ص: ١٢٢).

(٣) الأبيات لأبي العباس المرسي. ينظر: إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، (ص: ٢٤٨).

الوجود بوجود الإله الخالق، الذي خلق الكون ليكون معدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذي هو الإنسان(١).

آه.. ليت أحدًا أوصل إلى (فُلو) -قبل أن يموت- قولَ ربِّنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٩- ٣٠].

لقد مات (فُلو) وهو حائر في موضوع الوحي، لكنه يؤمن بشدة بالإله العظيم الذي ليس كمثله شيء، فهو كامل الصفات.. ترى ماذا كان سيقول لو قرئت عليه هاتان الآيتان؟

وتأمل في الآيتين أكثر لتجد أن اتصالهما يشير -وإن لم يصرح- إلى أنه لا يوجد خلق بشري قبل آدم عليه السلام أما أن يوجد خلق آخر فذلك أمرٌ محتمل.

والآن نبدأ بأول آية عظيمة في هذا المحور، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فما المظهر التكريمي العظيم الذي تمدُّنا به هذه الآية؟

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الثَّالِثُ: التَّكْرِيمُ بالإِعْلانِ عَنْ خَلْقِ آدم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]:

فـ﴿إِذْ﴾ اسم مبهم يدل على بيان التاريخ الماضي، أي: اذكروا بداية وجودكم؛ إذ أعلن الله ﷻ للملائكة عليهم السلام تكريمًا لكم: إني جاعل في الأرض خليفة، فاسمعوا القصة الحقيقيَّة لوجودكم على الأرض، بدلًا من الأوهام، والخرافات، والأساطير التي يتم بها إضلال العقل البشري، ولا يظهر سببٌ مقنعٌ يتناسب مع جلال الألوهية، وواقع البشريَّة لإخبار الله ﷻ ملائكته عن هذا المخلوق الجديد إلا تكريمه؛ بإعلام الملائكة عليهم السلام عنه.

---

(١) راجع كتابه: هناك إله، وهذا النقل بواسطة: خرافة الإلحاد للدكتور عمرو شريف.

فكلمة ﴿إِذْ﴾ تتكرر في القرآن الكريم، وخصوصًا في هذه السُّورَة؛ لتبين لنا الواقع التاريخي الحقيقي للحياة الإنسانيَّة، والتقدير: واذكروا أيها البشر، أو: وتعلموا التاريخ الحقيقي يا بني آدم؛ إذ قال ربك للملائكة.. وهكذا.. فهنا جاءت قصة آدم عليه السلام، وسترى هنا أن قدر القصة وأحداثها في القرآن الكريم تختلف اختلافًا يسيرًا أو كثيرًا من سورة لأخرى، و«المناسبة الموضوعية هي التي تحدِّد القَدْر الذي يُعرض من القصة في كل موضع، كما تحدِّد طريقة العرض وخصائص الأداء.. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ.. وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوَّة الحقِّ، وجمال الأداء».

الآن خذ في قراءة القصَّة لتجد أن الله عز وجل ذكر فيها كيف كانت البداية البشريَّة.. ولكن ليس وَفق سردٍ تاريخيٍّ، أو قصصيٍّ محض.. بل تأخذ الآية بيدك وقلبك لتنقلك إلى الغاية الحقيقيَّة من هذا الوجود، وإلى سِرِّ هذا الوجود، وإلى مظاهر رحمة الرّحمن الرّحيم بهذا الوجود..

بصيرة: كلمة ﴿إِذْ﴾ تتكرَّر في القرآن الكريم، وخصوصًا في هذه السُّورَة؛ لتبين لنا الواقع التاريخي الحقيقي للحياة الإنسانيَّة.

ولذا تتفاجأ أن الآيات هنا لا تفصِّل لك كيفية الخلق الإلهيّ للوجود البشريِّ، فما الذي تفصِّله؟

بدلًا من تفصيل كيف خلق الله ﷻ البشر نجد تفصيلًا دقيقًا يبيِّن مظاهر التكريم الإلهيِّ للإنسان الأوَّل، ومن خلاله تلمح كيف تمَّ الخلقُ البشريُّ إجمالًا.. ألا ترى في ذلك بروز مظاهر الرَّحمة والألوهيَّة معًا؟

فـ﴿إِذْ﴾ اسم مبهم يدل على حدثٍ في زمنٍ مضى، ويلزم الإضافة إلى الجمل أبدًا، أي: كيف تكفرون الله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعًا، واذكروا إذ قال للملائكة ﷺ تكريمًا لكم: إني جاعل في الأرض خليفة، فاسمعوا القصة الحقيقيَّة لوجودكم على الأرض بدلًا من الأوهام والخرافات والأساطير التي يتم بها إضلال العقل البشري.. فذكر أولًا المشاهدات المادية ثم أتبع ذلك بالإعلام عن الغيب التاريخي الذي لا يمكن وصول البشر إلى معرفته بيقين وسهولة.. وحينها يستحيي من عنده عقلٌ رشيدٌ من أن يكفر بربِّه الذي جعله في الأرض خليفةً.

معاني ﴿إِذْ﴾ والكنز المعرفي الذي يكتنزه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾:

اكتنزت هذه الجملة القرآنية المباركة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الإخبار عن مشهد الزمان الماضي الذي حدثت فيه قصَّة ولادة الإنسانيَّة دون تحديدٍ لموعده بدقَّةٍ.. وذلك من خلال كلمة (إذ)..

ولعلك تسألني عن بيان ذلك، فأقول لك – وفَّقك الله:

بيان ذلك أن (إذا) و(إذ) كلمتان متقاربتان، فأما (إذا) فلبيان المستقبل ولو كان بعدها فعلٌ ماضٍ.. ألم تسمع قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤].

وأما (إذ) فتأتي لمعنيين أساسيين:

الأول: لبيان الماضي، فقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ كأنه يقول: أيها البشر، دونكم قصة مجيئكم إلى هذا الكون، وقد ترتبط (إذ) بفعلٍ حاضرٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، ولكن المعنى ماضٍ إلا أنه أتى بالحاضر لِيُبيِّنَ دِقَّة نَقْلِ الحكاية كأنها تحدث أمامك الآن.

إذن: الإنسان وُلِدَ كما هو الآن في تفاصيله الأساسيَّة إنسانًا منتصبًا.. لم يتطور من جنسٍ سابقٍ، وأصبح بعد ذلك منتصبًا، وما يُرَوِّجُه أصحاب العقيدة الداروينية الجاهلة ليس إلا خرافة.. يزعمون أنه لم يكن منتصبًا ثم انتصب بعد ذلك، وذلك مثلما نشر (هوبلين)[١] مع فريقه البحثي دراسة في مجلة (نيتشر)[٢] تؤكِّد أن الإنسان المنتصب ظهر لأول مرة منذ ١,٩ مليون سنة في قارة أفريقيا، وذلك أقدم أثرٍ وُجِدَ له حتى الآن.

مشكلتهم أنهم يريدون التَّكَلُّمَ عن غيبٍ لم يشهدوه، وَفْقَ نظريةٍ جعلوها عقيدةً، وربُّنا ﷻ يُبيِّن لنا كيف أوجد الخلق، كما يُبيِّنُ جَهْلَهُم فيقول ﷻ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: ٥١].

وقد دل على هذه الحقيقة ظاهر كلام الله ﷻ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩]، وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم

---

(١) جان جاك هوبلين (من مواليد ٣٠ نوفمبر ١٩٥٣) هو عالم حفريات فرنسي. (ويكيبيديا).

(٢) بالإنجليزية: (Nature) وتعني الطبيعة: هي مجلة دورية علمية أسبوعية بريطانية تصدر بالإنكليزية، تعتبر من أبرز الدوريات العلمية في العالم، أصبحت المجلة تصدر حديثًا باللغة العربية. (ويكيبيديا).

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله ﷻ أيضًا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣] .

فهذه الآيات تُقَرِّرُ في وُضُوحٍ لا لَبْسَ فيه أنَّ خَلْقَ آدم عليه السلام بصورته وتَكْوِينِه البشريِّ جسدًا وروحًا وعقلًا قد تمَّ بمجرَّد تَعَلُّقِ إرادةِ الله ﷻ بها، وَأَمْرِه الذي لا رَادَّ له ولا مُعَقِّب، وظاهر الآيات تُقَرِّرُ أنَّنا أمام خَلْقٍ آدَمِيٍّ مُكْتَمِلٍ سَوِيٍّ في تَكْوِينِه الجَسَدِيِّ والرُّوحِيِّ والعقلِيِّ، بل والعلميِّ، حتى أنه فُضِّلَ بما آتاه الله ﷻ من العلم على الملائكة المُكَرَّمِين عليهم السلام، وكُرِّمَ بسجودهم له.

فالتفاصيل البشريَّة الأساسيَّة بَقِيتْ كما هي إلا أنَّ خَلْق الإنسان تناقص مع الزَّمان، ومع وجود المعرفة المتراكمة التي كَوَّنَتْ عنده القدرة على التَّنَقُّل والتَّواصُل مع التَّكَاثُر بصورةٍ أسرع، مع كثرة البشر على وجه الأرض.

ويفصِّل النبيُّ ﷺ ذلك فيقول: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قال: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقالوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ»[(١)].

وفي هذا إسقاطٌ لنظرِيَّةِ (داروين)[(٢)] وغيرها من هرطقات الإلحاد المبنيَّة على محض الظُّنون والتَّخَرُّصَات، والتي تحاول أن تعود بالإنسان إلى أطوارٍ مَرَّ بها في خَلْقِهِ وتَحَوُّرَاتٍ تَطَوَّرَ بعضها عن بعض -كما يزعمون-.

---

(١) البخاري (٦٢٢٧).

(٢) تشارلز روبرت داروين (Charles Robert Darwin) [١٨٠٩-١٨٨٢]، إنجليزي، مشهور بأنه صاحب نظرية التطور (Evolution Theory).

فالإنسان «لم يكن أبدًا سليلَ قِردٍ أو حيوانٍ، مهما عَلَتِ الأصواتُ المُشَوِّشَةُ والمُؤَيِّدَةُ لنظريَّة النُّشُوءِ والتَّطَوُّرِ التي أطلقها تشارلز داروين استنادًا إلى نظرياتٍ سَبَقَهُ إليها كثيرون، بدءًا من الإغريقي إنكسمندريس (٦١٠ ق م) الذي قال: خُلِقَ الإنسانُ أَوَّل الأمر شنيعَ الصُّورة، ناقص التركيب، ثم أخذ يَتَقَلَّبُ، إلى أن حصل على صورته الحاضرة»[(١)].

الثاني: ومن معاني ﴿إِذْ﴾: بيان الحقيقة: كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فَصَوَّرَتِ الحقيقةَ القائمة المستقِرَّة حول موضوع الأَجِنَّةِ في الماضي والحاضر والمستقبل.

وكذلك هنا في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فإنَّها قد أَفَادَتِ الحقيقة المحسومة مِن خَلْقِ الله ﷻ آدمَ ليكون خليفة في الأرض.

ومن شأن هذا الخَلْقِ المُسْتَخْلَفِ أن يكون سَوِيَّ الخِلْقَةِ كاملها باطنًا وظاهرًا، مُهَيَّأً للقيام بوظيفة الاستخلاف.

وهنا ستسأل: قد فهمنا أنَّ كلمة ﴿إِذْ﴾ تُصَوِّرُ لنا بداية تاريخ الإنسانيَّة، فلماذا أخبر الله ﷻ ملائكته بنبأ استخلافه للإنسان؟

ودونك الجواب- وفقك الله-:

> **بصيرة: قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يُبَصِّرُنا بأن التَّكريم الإلهيَّ للمخلوق القادم هو سِرُّ الإخبار الإلهيِّ للملائكة عليهم السلام عنه.**

(١) بناء الكون ومصير الإنسان (ص: ٦٢٥).

فقوله: (قال): من القول، وهو إبداء صُور الكَلِم نظمًا بمنزلة ائتلاف الصُّور المحسوسة جمعًا، فالقول مشهود القلب بواسطة الأذن، كما أن المحسوس مشهود القلب بواسطة العين وغيره[١].

وعندما تقرأ هذه الجملة يقع في ذهنك سؤالٌ مُلِحٌّ واضح: لماذا يخبر الله ﷻ ملائكته عن مخلوقٍ من مخلوقاته؟

الجواب: ذهب الزمخشري رحمه الله إلى أن الهدف من إخبار الملائكة عليهم السلام بالوظيفة البشريَّة: أن يسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كَوْنِهِم، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم[٢].

ولكن هذا الرأي يضعف؛ لأن الملائكة عليهم السلام كما وصفهم ربهم ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وأشار بعضهم إلى أن الهدف أن يُعَلِّم الله عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها[٣]، وهذا معنى غريب لا يمكن أن نفهمه من السياق، وأظنه من تحريف الكلم عن مواضعه؛ إذ يمكن الاستدلال للشورى بأدلة أخرى واضحة، وليس هذا منها، وكيف يكون منها والله ﷻ يقول للملائكة عليهم السلام بعد: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]؟!

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٣٢)، التحرير والتنوير (١/ ٣٩٦).

(٢) تفسير الزمخشري (١/ ١٢٤).

(٣) تفسير الكشاف (١/ ١٢٤).

فالقول بأن الإخبار لتعليم الاستشارة يتنافى تمامًا مع الإيمان الإسلامي الصافي الذي يثبت في الذهن البشري أن الله ﷻ لا يسأل عما يفعل، أَوَلَمْ يقل ربُّنا ﷻ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٢-٢٣]؟

ولا يظهر سببٌ مقنعٌ يتناسب مع جلال الألوهية وواقع البشريَّة لإخبار الله ﷻ ملائكته عن هذا المخلوق الجديد الذي سيكون خليفة في الأرض إلا سبب واحد، هو تكريم الله تعالى آدم عليه السلام وذرِّيَّته بإعلام العباد المُكْرَمِين من الملأ الأعلى وهم الملائكة عليهم السلام عن خَلْقِ البشريَّة، قَبْلَ إِيجَادِهِمْ، وهذا ما رآه ابن كثير رحمه الله في معنى هذا الإعلام[1].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦).

خصائص الملائكة عليهم السلام

الخاصية الأولى

"الرسالة" فهم رسل الله السماويون إلى الخلق ليدبِّروا أمر الله عز وجل فيهم ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

الخاصية الثانية

"الجندية" فالملائكة جند الله عز وجل الذين يتنزلون بأمره ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

الخاصية الثالثة

القدرة على التَّشَكُّل

قال: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (مسلم: ٢٩٩٦)، والنُّورُ قَابِلٌ لِلتَّشَكُّلِ فِي كَيْفِيَّاتٍ متنوعة.

كلمة: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تستوقفك، فما معنى هذه الكلمة، وما خصائص الملائكة عليهم السلام؟

بالنظر إلى هذه الكلمة ومواضع ذكر الملائكة عليهم السلام في كتاب الله نقف على خواصهم:

الخاصية الأولى: الرسالة:

أهمُّ ما يعكس طبيعة الملائكة عليهم السلام، فملاك رسول، وملائكة رسل، فَهُم رسل الله السَّماويون إلى الخلق ليدبِّروا أمر الله عز وجل فيهم، أو ليبلِّغوا بعضهم أن يكونوا الرسل البشريين إلى الناس، وقد صرَّح القرآن بهذا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

فالملائكة: جمع مَلأكٍ، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع، ومنه قول الشاعر:

فلَسْـــتَ لإنْسِـــيٍّ، ولكنْ لِمَلأَكٍ ... تَحَدَّرَ مِنْ جَوِّ السَّـــمَاءِ يَصُـــوبُ[1]

و(ملك) بغير الهمزة أكثرُ وأشهر من (ملأك) بالهمز، كقولهم: رأيت: بالهمز ثم قالوا: نرى وترى ويرى، فجرى كلامهم في (يفعل) ونظائرها بترك الهمز، حتى صارَ الهمز معها شاذًّا، مع كون الهمز فيها أصلًا، فكذلك ذلك في "ملك وملائكة"، جرى كلامهم بترك الهمز من واحدهم، وبالهمز في جميعهم..وأصل الملأك: الرسالة، كما قال: عدي بن زيد العِبَادِيُّ:

أَبْـلِـغِ الـنُّـعْـمَـانَ عَـنِّـي مَـلأَكًـا ... إِنَّـهُ قَـدْ طَـالَ حَبْسِـي وَانْتِظَـارِي[2]

وقد ينشد: مألَكًا، على اللغة الأخرى. فمن قال: ملأكًا فهو مَفْعل، من لأك إليه يَلأك إذا أرسل إليه رسالة مَلأكة؛ ومن قال: مَألَكًا فهو مَعفل من ألكت إليه آلك: إذا أرسلت إليه مألَكة

(١) البيت لعَلْقَمَةَ بنِ عَبَدَةَ يمدحُ الحارثَ بن جَبَلَة بن أبي شمر، وقيل: لرجل من عبد القيس يمدح النعمان؛ وقيل: هو لأبي وَجْزَة يمدح عبد الله بن الزبير. ينظر: لسان العرب (١/ ٥٣٤).

(٢) البيت لعدي بن زيد العبادي، مطلع قصيدته الرائية المكسورة، يستعطف بها النعمان في ديوانه (ص٩٣).

(بِفَتْحِ اللَّامِ وَضَمِّهَا) وأُلوكًا، والْأَلُوك وَالْأُلُوكَةُ: هِيَ الرِّسَالَةُ، كما قال لبيد بن ربيعة:

وَغُــلامٍ أَرْسَــلَــتْــه أُمُّــه ... بــأَلُــوكٍ فَــبَــذَلْــنَــا مَــا سَــأَلْ[1]

الخاصية الثانية: الملائكة عليهم السلام جند الله الذين يتنزلون بأمره:

كلمة "مَلَائِكَة" أصلها ملائك، زيدت التاء لتأكيد الجمع، ودلَّتْ آياتٌ عِدَّةٌ في كتاب الله ﷻ على وظيفة الجندية التي يلتزمها الملائكة والطاعة المطلقة لأمر الله ﷻ ومراده، كما قال ﷻ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]، وقال ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، وقال ﷻ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد تواترت الأخبار بمشاركة جُندِ السَّماءِ -الملائكة عليهم السلام- جُندَ الأرضِ من عباد الله في غير موقعةٍ من الوقائع التي فرَّق الله ﷻ بها بين الحقِّ والباطل.

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

عَـدِمْـنَـا خَـيْـلَـنَـا، إنْ لَـم تَـرَوْهَـا ... تُـثِـيـرُ الـنَّـقْـعَ، مَـوْعِـدُهـا كَـدَاءُ

يُـبَـارِيـنَ الأعِـنَّـةَ مُـصْـعِـدَاتٍ ... عَـلَـى أكْـتَـافِـهَـا الأسَـلُ الـظِّـمَـاءُ

وَجِـبْـرِيـلٌ أمِـيـنُ اللهِ فِـيـنَـا ... وَرُوحُ الـقُـدْسِ لَـيْـسَ لَـهُ كِـفَـاءُ[2]

ويقول جرير:

---

(١) البيت في ديوان لبيد بن ربيعة (ص: ٩١)، انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) ديوان حسان بن ثابت (ص: ١).

لا قَوْا بُعُوثَ أمِيرِ المُؤمِنينَ لَهُمْ ... كَالرّيحِ إذْ بُعِثَتْ نَحْسًا على عَادِ

فِيهِمْ مَلائِكَةُ الرّحْمَنِ مَا لَهُمُ ... سِوى التّوَكّلِ والتّسبيحِ مِنْ زَادِ

أنْصَارُ حَقٍّ على بُلْقٍ مُسَوَّمَةٍ ... أمدادُ رَبِّكَ كانوا خيرَ أَمْدَادِ[1]

الخاصية الثالثة: الملائكة عليهم السلام لهم القدرة على التَّشَكُّل:

فقد خُلِقوا من نُورٍ كما جاء عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ عليه السلام مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[2].

فهم مَخْلُوقَاتٌ نُورَانِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ، مَجْبُولَةٌ عَلَى الْخَيْرِ، قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ؛ لِأَنَّ النُّورَ قَابِلٌ لِلتَّشَكُّلِ فِي كَيْفِيَّاتٍ، وَلِأَنَّ أَجْزَاءَهُ لَا تَتَزَاحَمُ، وَنُورُهَا لَا شُعَاعَ لَهُ؛ فَلِذَلِكَ لَا تُضِيءُ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَإِنَّمَا تَتَشَكَّلُ إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَظْهَرَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَى وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عز وجل لَهَا قُوَّةَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرِيدُ اللهُ تَكْوِينَهَا فَتَتَوَلَّى التَّدْبِيرَ لَهَا، وَلِهَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ الْمَلَكِيَّةِ حَيْثِيَّاتٌ وَمَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ، تَتَعَذَّرُ الْإِحَاطَةُ بِهَا، وَهِيَ مُضَادَّةٌ لِتَوَجُّهَاتِ الشَّيَاطِينِ، فَالْخَوَاطِرُ الْخَيْرِيَّةُ مِنْ تَوَجُّهَاتِ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام وَعَلَاقَتِهَا بِالنُّفُوسِ البشريَّة، وَبِعَكْسِهَا خَوَاطِرُ الشَّرِّ[3].

لَرُبَّمَا سَأَلَ سائلٌ: فما منزلة الإيمان بالملائكة عليهم السلام؟

والجواب: الإيمان بالملائكة عليهم السلام من الإيمان بالغيب: فالإيمان بهم امتحانٌ حقيقي للإيمان بالغيب الذي وصف الله عز وجل به المتقين في أول هذه السُّورَة المباركة:

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٢/ ٧٤٣).

(٢) مسلم (٢٩٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٧).

فقد وصف الله ﷻ المتقين بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، وهنا ذكر الله ﷻ لنا قِصَّةً غَيْبِيَّةً تَتَعَلَّقُ بالملائكة عليهم السلام، وأخبرنا عن الملائكة عليهم السلام وتَدْبِيرِها لِلْخَلْقِ، وكُلُّ ذلك ليمتحن نفوسنا بالإيمان بها.. هنا تعلم مقدار جريمة الذين يكفرون بالملائكة عليهم السلام أو ببعضهم؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، ورأى بعض المُفَسِّرين «أَنَّ مَجْمُوعَ مَا وَرَدَ فِي الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام مِنْ كَوْنِهِمْ مُوَكَّلِينَ بِالْأَعْمَالِ مِنْ إِنْمَاءِ نَبَاتٍ، وَخِلْقَةِ حَيَوَانٍ، وَحِفْظِ إِنْسَانٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى الْخَاصَّةِ بِمَا هُوَ أَدَقُّ مِنْ ظَاهِرِ الْعِبَارَةِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا النُّمُوَّ فِي النَّبَاتِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِرُوحٍ خَاصٍّ، نَفَخَهُ اللهُ ﷻ فِي الْبَذْرَةِ، فَكَانَتْ بِهِ هَذِهِ الْحَيَاةُ النَّبَاتِيَّةُ الْمَخْصُوصَةُ.

وَكَذَلِكَ يُقال: فِي الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ، فَكُلُّ أَمْرٍ كُلِّيٍّ قَائِمٍ بِنِظَامٍ مَخْصُوصٍ، تَمَّتْ بِهِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي إِيجَادِهِ، فَإِنَّمَا قِوَامُهُ بِرُوحٍ إِلَهِيٍّ سُمِّيَ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ مَلَكًا.

وَمَنْ لَمْ يُبَالِ فِي التَّسْمِيَةِ بِالتَّوْقِيفِ يُسَمِّي هَذِهِ الْمَعَانِيَ الْقُوَى الطَّبيعيَّة، إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْ عَالَمِ الْإِمْكَانِ إِلَّا مَا هُوَ طَبِيعَةٌ، أَوْ قُوَّةٌ يَظْهَرُ أَثَرُهَا فِي الطَّبِيعَةِ.

وَالْأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِيهِ، هُوَ أَنَّ فِي بَاطِنِ الْخِلْقَةِ أَمْرًا هُوَ مَنَاطُهَا، وَبِهِ قِوَامُهَا وَنِظَامُهَا، لَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُنْكِرَهُ، وَإِنْ أَنْكَرَ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ بِالْوَحْيِ تَسْمِيَتَهُ مَلَكًا، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى وُجُودِ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، أَوْ أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَحْيِ تَسْمِيَتَهُ قُوَّةً طَبِيعِيَّةً أَوْ نَامُوسًا طَبِيعِيًّا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لَمْ تَرِدْ فِي الشَّرْعِ، فَالْحَقِيقَةُ وَاحِدَةٌ، وَالْعَاقِلُ مَنْ لَا تَحْجِبُهُ الْأَسْمَاءُ عَنِ الْمُسَمَّيَاتِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ يَرَى لِلْأَرْوَاحِ وُجُودًا لَا يُدْرِكُ كُنْهَهُ، وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُ الرُّوحَ، وَلَكِنْ أَعْرِفُ قُوَّةً لَا أَفْهَمُ حَقِيقَتَهَا.

وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللهُ ﷻ عَلَامَ يَخْتَلِفُ النَّاسُ، وَكَلٌّ يُقِرُّ بِوُجُودِ شَيْءٍ غَيْرِ مَا يَرَى وَيُحِسُّ، وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُهُ حَقَّ الْفَهْمِ، وَلَا يَصِلُ بِعَقْلِهِ إِلَى إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، وَمَاذَا عَلَى هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ وَقَدِ اعْتَرَفَ بِمَا غُيِّبَ عَنْهُ لَوْ قَالَ: أُصَدِّقُ بِغَيْبٍ أَعْرِفُ أَثَرَهُ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أُقَدِّرُهُ قَدْرَهُ، فَيَتَّفِقُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ، وَيَفْهَمُ بِذَلِكَ مَا يَرِدُ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الْوَحْيِ، وَيَحْظَى بِمَا يَحْظَى بِهِ الْمُؤْمِنُونَ؟»[1].

وهنا رُبَّمَا نتساءل: ولماذا تُدَبِّرُ الملائكةُ عليهم السلام أَمْرَ الله الذي يأمر به؟ ألا يكفي أن يقول الله ﷻ للشيء: كُنْ فَيَكُون؟

الجواب: كما أن الله ﷻ غَنِيٌّ عن السَّمَوَات والأرض، وكُلِّ المخلوقات، فهو غَنِيٌّ عن الملائكة، ولكن المَلِك الأعلى تُعَبِّرُ صفاتُه العظمى عن ذَاتِهِ، وتُعَبِّرُ أفعالُه عن صِفاتِهِ، فيظهرُ مُلْكُهُ في ظهور الأفعال التي تصدر عن صِفاتِه، فالملائكة عليهم السلام تُدَبِّرُ هذه الأمور التي يريد الله ﷻ أن تكون، وتضع هذه القوى التي تسير في الخلق وفق القوانين التي يريدها الله ﷻ.

فالْمُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ يَرَى الحياة والحركة تسير وَفْقَ تدبير العزيز العليم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وهنا ستتساءل: بَصَّرَنا القرآنُ أنَّ الأَصْلَ التَّكْرِيمِيَّ الثالثَ: إعلانُ الله ﷻ للملائكة عليهم السلام عن المخلوق الجديد، فما الأَصْلُ التَّكْرِيمِيُّ الذي يُبَصِّرُنا به قوله ﷻ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]؟

وإليك الجواب- وفقك الله-:

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٢٣).

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الرابع

التكريم بتحديد مركز البشريَّة في الكون ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

- مشهد [1]: مرسوم إلهي بتعيين خليفة على الأرض.
- مشهد [2]: الخلافة وظيفة آدم عليه السلام وتنتقل إلى ذريته من بعده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].
- مشهد [3]: الخليفة الجديد، وأدوار الاستخلاف المنتظر.
- مشهد [4]: استحضار الملائكة لدورة فساد أرضية سابقة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].
- مشهد [5]: حتى الملائكة تَسأل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].
- مشهد [6]: عِلمٌ غَيبِيٌّ، وحِكمَةٌ خَفِيَّةٌ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الرَّابِعُ: التَّكْرِيمُ بتحديد مركز البشريَّة في الكون:

إذ جعل الله ﷻ الإنسانَ خليفةً في الأرض، فقال ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].. هنا يَقُصُّ علينا الله ﷻ في القرآن أنه كرَّم البشريَّة تَكْرِيمًا رابعًا بأن جعل الإنسانَ خليفةً في الأرض، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

تكشف لنا بصائر المعرفة القرآنية بعض أَهَمِّ أسرار الوجود الإنسانيِّ في هذا الكون.. ويجيب القرآن على أكثر الأسئلةِ المُعَقَّدَةِ التي تلاعب بمعانيها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغون الحياة عِوَجًا.. كيف ذلك؟

يأتيك الجواب عن ذلك في المشاهد المتتابعة التي يوقفنا عليها السياق:

المشهد الأول: مرسوم إلهي بتعيين خليفة على الأرض:

عُدْ إلى كلام الله ﷻ للملائكة عليهم السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] تَجِدِ البصيرةَ القرآنيةَ هنا تَقُصُّ عليك أن: وُجُودكَ أَيُّهَا الإنسانُ يعكسُ رَحْمَةَ اللهِ ﷻ بِكَ، وتَكْرِيمَهُ لَكَ، فَلَمْ يَكُنْ نُزُولُكَ إلى الأرضِ عُقُوبَةً تَسَلَّطَتْ على آدمَ وزوجِه عليهما السلام، بل كان تشريفًا يَتَضَمَّنُ التَّكْلِيفَ، وكان ذلك التَّكْلِيفُ وهذا التَّشْرِيفُ قديمين أخبر الله ﷻ عنهما قبل أن يخلق الإنسان، فكأنَّ معنى الآية أن الله ﷻ قال: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا، وجَاعِلُه خَلِيفَةً في الأرض.

إِنَّ وُصُولَ الجنسِ البَشَرِيِّ إلى الأرض ليقوم بوظيفته فيها كان محسومًا قبل أن يقع آدم عليه السلام في الخطيئة..

بصيرة: الوجود الإنساني يعكس الرَّحمة الإلهيَّة، والتَّكريم الربانيَّ، والخلافة في الأرض ليست عقوبة، بل تشريفٌ يتضمَّن التَّكليف، إذ قرَّره الله ﷻ قبل الخلق الإنسانيِّ، وأعلم به الملائكة عليهم السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، فكأنه قال: إني خالق بشرًا، وجاعله خليفة في الأرض، فوصول الجنس البشريِّ إلى الأرض ليقوم فيها بوظيفته الوجوديَّة، كان محسومًا من قبل.

ولعلك تسأل: أين المفتاحُ الذي يَمْنَحُنا فَهْمَ هذه القِصَّةِ بهذا الشَّكْلِ؟

أجيبك -وفقك الله-:

إنه قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. فكلمة ﴿جَاعِلٌ﴾ من (جَعَلَ) التي تأتي بمعنى صَيَّرَ، ولا تكون إلا بِنَاءً على شَيْءٍ كان موجودًا، فهنا ضَمَّنَ كَلِمَة ﴿جَاعِلٌ﴾ معنى (الخلق)؛ إذ قبل أن يجعله الله ﷻ خليفةً لابد أن يَخْلُقَهُ، فكأنَّهُ قال: إني خالق بشرًا، وجاعله بعد أن أَخْلُقَهُ خليفةً في الأرض.

إذن: بَصَّرَتْنَا هذه الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بالحَلِّ لِبَعْضِ الألغاز التي يتلاعب بها العابثون والجاهلون، فمنهم من كان من أبرياء التفكير، ومنهم من يلبس ثياب الإلحاد، فيقولون مفتخرين: وما ذَنبُ أَبناءِ آدمَ حتَّى نالُوا عُقُوبَةَ البقاءِ على الأرض إِنْ كان آدمُ قَدِ ارْتَكَبَ الخطيئة؟ هل تُؤمنون أَيُّها المسلمون بالخطيئة الأَصْلِيَّةِ؟

ونحن -المسلمين- نؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فهذه الأسطورة -أسطورة وراثة المعصية- أكذوبة شيطانية، والهدى هدى الله تعالى.

نعم! فاقصص القصص الحقَّ.

هذه الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تكشف الجواب بوضوح: آدَمُ عليه السلام وَذُرِّيَّتُهُ سيكونون في الأرض، ومركزهم فيها واضح، سيكونون خلفاء فيها، فمكان الخلافة الذي ينبغي أن يصل إليه آدم هو الأرض، وليس الجَنَّة، ماذا يعني ذلك؟

ذلك يعني أنَّه لا بُدَّ أن يصل الجِنسُ البشريُّ إلى الأرض بعد أن يُخْلَقَ، فذلك هو المكان الذي سيقوم فيه بوظيفته الوُجُودِيَّة، فالوجود البشريُّ على الأرض كان مخططًا له من قبل.

ألا تجد بذلك أن الوجود البشري على الأرض لم يكن عقوبة، بل كان تكليفًا مسبقًا، يتضمن تشريفًا له معتنقًا، وكان تشريفًا يتضمن تكليفًا؟

المشهد الثاني: الخلافة وظيفة آدم عليه السلام وتنتقل إلى ذريته من بعده:

بصائِرِ القرآن تُجَلِّي لك الأمرَ على أحسن وَجْهٍ في التبيان.. وسؤال الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠] يُخْبِرُكَ أَنَّ أَمْرَ خِلافَةِ الأرضِ لا يقتصر على آدمَ عليه السلام، بل إن أبناءه سيتسلمون المنصب ذاته تكليفًا وتشريفًا؛ فليس آدم عليه السلام هو الذي سيُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ بل بعْضُ ذُرِّيَّتِهِ.

ما أَجْمَلَ أَنْ تَسْمَعَ القِصَّةَ على هذا النَّحْوِ!

إي والله! ما أَعْذَبَ أَنْ تَسْمَعَ الحقائقَ القُرْآنِيَّةَ البَاهِرةَ التِي تُوَضِّحُ طَبِيعَةَ الوُجُودِ الإنسَانِيِّ في الأرض!

وتَسْمَعُ القرآنَ يُعيدُ لك ذِكْرَ وظيفةِ الخلافة التي تشملُ كُلَّ ذُرِّيَّةِ آدم عليه السلام، فتسمع في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وتسمع في سورة يونس عليه السلام: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]، وتسمع في سورة

النمل: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وتسمع في سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

فالوجودُ البشريُّ على الأرض كان مُقَرَّرًا مُسْبَقًا، وظهر في الإعلان الإلهيِّ عن الوافد الجديد الذي سيخلقه الله ﷻ، ولم يكن الهبوطُ إلى الأرض عُقُوبَةً تَأْدِيبِيَّةً فقط[1]، فقد تاب الله ﷻ على آدم عليه السلام، وجعلَ مَوْعِدَ هُبُوطِهِ إلى الأرضِ مُقْتَرِنًا بحدَثٍ لا يَنسَى معه سَبَبَ ما وقع له، فأخرجه من الجنَّة لِيَجِدَ شَيئًا من الشَّقاء الجسديِّ مما يجعله على صِلَةٍ دَائِمَةٍ بالله ﷻ طالبًا عَوْنَهُ، حَذِرًا مِن عَدُوِّهِ، ومن هنا تفهم بصورةٍ واضحةٍ لا لَبْسَ فيها معنى غَلَبَةِ آدمَ عليه السلام في حُجَّتِهِ لِكَلِيمِ الله ﷻ موسى عليه السلام في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عليهما السلام عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قال مُوسَى عليه السلام: أَنْتَ آدَمُ الَّذِى خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ؟ فَقال آدَمُ عليه السلام: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قال مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قال آدَمُ عليه السلام: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ قال: نَعَمْ. قال: أَفَتَلُومُنِى عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْن»[2].

---

(١) يختال بعض الملحدين هذه الأيام بترديد أنَّ الإسلام يفترض أن الوجود البشريَّ على الأرض هو عبارة عن عقوبة لآدم عليه السلام ولأبنائه من بعده، ثم يطرح اكتشافًا!! أنَّ الإسلام فيه عقيدة الخطيئة الأصلية المذمومة كما هو الحال في المسيحية المحرفة، ثم ينقل هذه التصورات إلى بعض الأبرياء من الشباب الذين يرددون ذلك دون فهم للتصورات التي تقدمها المعرفة القرآنية.. لعلك قرأت أعلاه بعض الأجوبة المنبثقة من المعرفة القرآنية الذهبية.

(٢) مسلم (٢٦٥٢).

المشهد الثالث: الخليفة الجديد، وأدوار الاستخلاف المنتظر:

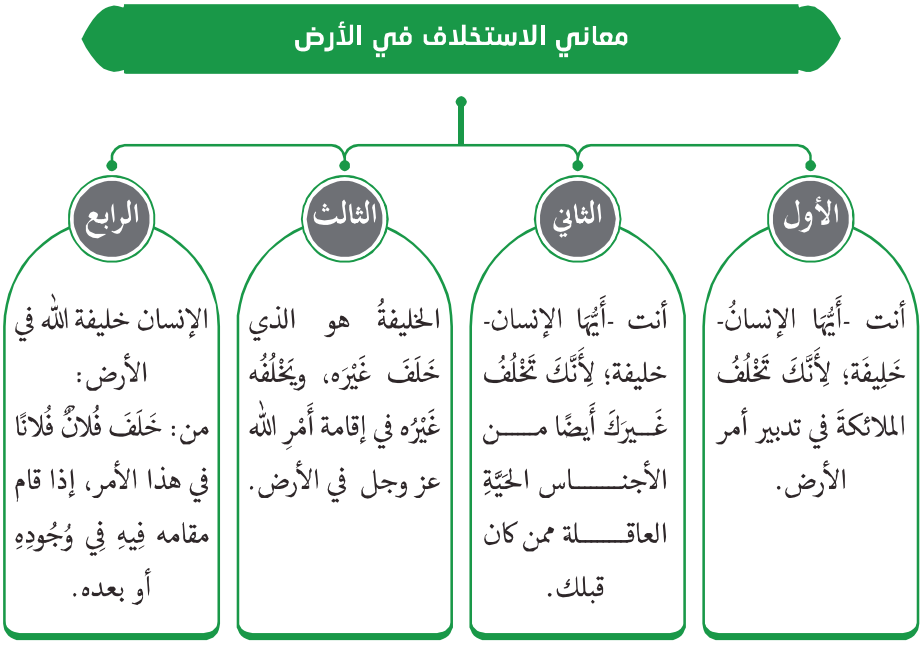

القصة القرآنية التي تخبرك بالحقِّ الواضح تُصَوِّرُ لنا البشريَّة وكرامتهم التي تتلخص في أنَّ الله ﷻ جَعَلَهُمْ خُلَفَاءَ في الأرضِ، وهذا يدفعنا إلى أَنْ نتساءلَ مُتَدَبِّرِينَ:

ما معنى كلمة (خَلِيفَة) في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؟ وما وَجْهُ الجمالِ والكمالِ الذي ظَهَرَ في وَصْفِ القرآنِ لمركز الإنسانِ في الأرضِ بهذا الوصفِ؟

ودونك الجواب- وفقك الله-:

تَبْهَرُكَ هذه الكلمةُ القرآنيةُ، فهي تُحَدِّدُ مَرْكِزَ الإنسان في الأرض وفي الكون بِصُورَةٍ دَقِيقَةٍ تجمع بين التَّشْرِيفِ والتَّكْلِيفِ، والتَّمْجِيدِ والمسؤولِيَّةِ، وتُخْبِرُكَ بِقُوَّةِ هذه الكلمة، فعندما

تتأمل فيما قاله علماؤنا حول معنى كلمة (خَلِيفَةً) تَجِدُهُمُ اتَّجَهُوا عِدَّةَ اتِّجَاهَاتٍ، وتعال نجمع بين كُلِّ المعاني التي ذكروها بما أنه يمكننا الجمع بينها:

فالمعنى الأَوَّلُ: أنت -أَيُّهَا الإنسانُ- خَلِيفَةٌ؛ لِأَنَّكَ تَخْلُفُ الملائكةَ عليهم السلام في تدبير أمر الأرض، فانْظُرْ رَحْمَةَ الله ﷻ بك، وتَشْرِيف الله له، وتَأَمَّلْ مسؤوليَّتك التي يجب أَنْ تقومَ بها.. هذا المعنى اسْتَخْرَجَهُ الزَّمْخَشريُّ من هذه الكلمة المباركة فقال: «الخليفة: من يخلف غيره، والمعنى: خَلِيفَةً منكم، لأَنَّهُمْ كانوا سُكَّانَ الأرضِ، فَخَلَفَهُمْ فيها آدَمُ وذُرِّيَّتُه»[1].

والمعنى الثاني: أنت -أَيُّهَا الإنسان- خليفة؛ لِأَنَّكَ تَخْلُفُ غَيرَكَ أَيضًا من الأجناس الحَيَّةِ العاقلة ممن كان قبلك، فالمعنى الأَوَّلُ صَوَّرَ لنا أَنَّ الإنسان خَلَفَ الملائكةَ عليهم السلام، والمعنى الثاني صَوَّرَ لنا أَنَّ الإنسانَ خَلَفَ أَجْنَاسًا أخرى، كَمَا قال ﷻ بَعْدَ ذِكْرِ إِهْلَاكِ الْقُرُونِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]، والذين ذهبوا إلى هذا المعنى قالوا: إِنَّ ذَلِكَ الصِّنْفَ الْبَائِدَ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكَ الدِّمَاءَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ عليهم السلام اسْتَنْبَطُوا سُوءَ الَهُمْ بِالْقِيَاسِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا بُدَّ أَنْ يُنَاسِبَ مَنْ يَخْلُفُهُ، وَيَكُونَ مِنْ قَبِيلِهِ كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَى الْفَهْمِ، ولكن الله أخبر الْمَلَائِكَةَ عليهم السلام بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ مِمَّا يَمْتَازُ بِهِ هَذَا الْخَلِيفَةُ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ، وَمَا لَهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ[2].

وقد تتساءل طلبًا لمعرفة القصة:

فَمَنِ الأَجْنَاسُ التي كَانَتْ قَبْلَ الإنسانِ، فَأَفْسَدَتْ في الأرض وسَفَكَتِ الدِّمَاءَ؟

---

(١) تفسير الزمخشري (١/ ١٢٤).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢١٥).

أجيبك: لا هَدَفَ حقيقيٌّ يُوجَدُ وَرَاءَ مَعْرِفَةِ ذلك إلا مُجَرَّدُ التَّفَكُّهِ بسماع القصة، فيكفي أن نشعر من سؤال الملائكة عليهم السلام أنَّ هناك مَنْ أفسد وسفك الدماء، وأَنَّ الملائكة عليهم السلام قاسوا الخليفة اللاحق على الخليفة السابق، فَذَكَّرَهُمْ أنه يعلم ما لا يعلمون.

تريد أن نَتَفَكَّهَ بِذِكْرِ ما قيل، فدعني أُخْبِرْكَ أنَّك ستجد في أساطير الفرس والهند والمصريين واليونان والسلاف ذِكْرَ صنفٍ عاقل يسمون (الجِنَّ والبِنَّ)، وقيل: اسمهم (الطَّمُّ والرَّمُّ) ورَجَّحَ ابنُ عاشور أن هذه مُجَرَّد مَزَاعِمَ خُرَافِيةٍ لا دليل عليها[1].

واليونان في خرافاتهم يزعمون أن سكان الأرض كانوا من (التيتان)، ثم نازعهم الحكم للأرض أبناؤهم الذين يدعونهم (جادز)، وهم كائنات في خرافاتهم عاشت في جبل الأولمب وقريبًا منه وعاثت في الأرض فسادًا بصراعها فيما بينها.

فالمعنيان الأول والثاني يدلان على أن الخليفة هنا من خَلَفَ الملائكة عليهم السلام، وخَلَفَ الأصناف الحَيَّةَ السَّابِقَةَ في إدارة الأرض، فهل من معنى ثالث؟

الجواب:

المعنى الثالث: الخليفةُ هو الذي خَلَفَ غَيْرَه، ويَخْلُفُه غَيْرُه في إقامة أَمْرِ الله عز وجل في الأرض،

فكلمة (خليفة) على وزن فعيلة بمعنى مَفْعُولٍ أو فَاعِلٍ، أي: مَخْلُوفٍ أو خَالِفٍ، فجعل الله جل جلاله كلَّ جيلٍ يَخْلُفُ مَنْ قَبْلَهُ لأداء هذه المُهِمَّةِ العظيمة، فكُلُّ وَاحِدٍ منهم مَخْلُوفٌ بِمَنْ بَعْدَهُ، خَالِفٌ لِمَنْ قَبْلَهُ، وقد فسَّر ابنُ إسحاق هذه الكلمة بذلك، فقال: (خليفة) ساكنًا وعامرًا يسكنها ويعمُرها خلَفًا[2].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٢٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٤٩).

المعنى الرابع: الإنسان خليفة الله في الأرض.

وهنا رُبَّمَا نتساءل: كيف يمكن لنا أَنْ نقول: إِنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض؟ هل هذا يعني أَنَّ الله ﷻ أَوْكَلَ للإنسان أن يفعل ما شاء في الأرض كيفما يشاء؟

الجواب -وفقك الله-:

نعم.. يَصِحُّ أَنْ نقول: إن الإنسان خليفة الله في الأرض؛ لأن كلمة (خليفة) على وزن فعيلة من قولك: خَلَفَ فُلانٌ فُلانًا في هذا الأمر، إذا قام مقامه فِيهِ فِي وُجُودِهِ أو بعده، فصارت كلمة خليفة دَالَّةً على تكريمٍ حقيقيٍّ للإنسان؛ إذ الخليفة هو الذي يخلف غيره بِأَنْ يُنَفِّذَ أَمْرَهُ فيه، ويقوم عليه، وذلك هو التكليف الذي جعله الله ﷻ للبشرية.

وأجيالُ البشريَّة يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ في إقامة مَبَادِئ الاسْتِخْلافِ في الأرض، كَمَا قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وَقال ﷻ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

بذلك ترى أَنَّ كَوْنَ الإنسانِ خَليفة لا يعني أَنَّهُ يفعل ما يحلو له، بل يفعل ما استخلفه الله ﷻ عليه حسب أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، فـ (الْمَالُ) مثلًا استخلفه الله ﷻ عليه ليقوم بالتَّصَرُّفِ فيه كما أراد رَبُّهُ، وقد أخبرنا الله ﷻ بذلك، فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فكلمة (خليفة) دَلَّتْ على مركز مَرْمُوقٍ يُوضَع فيه الإنسان، لكنَّه مركزٌ له مسؤوليةٌ ضخمةٌ، فليس المراد أَنَّ الله ﷻ أَوْكَلَ إليه أَنْ يَصْنع ما شاء دون حساب، بل جعله قائمًا بأمره في عمارة الأرض وإمارتها مع بقائه ضمن محاسبة الله ﷻ وسُنَنِهِ في مُكَافَأته على الإحسان ومعاقبته

على الإساءة، وممن ذكر هذا المعنى الإمام الزمخشري رحمه الله إذ قال: «آدم كان خليفةَ اللهِ في أَرْضِهِ وكذلك كلُّ نَبِيٍّ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]»(١).

فالاستخلاف هنا يعني القيام على عمارة الأرض وفق مراد الله وأمره كما قال جل جلاله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقال جل جلاله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣]، وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩].

ويجلي لنا أَنَّ الاستخلافَ لا يقتضي أَنْ يكون المُسْتَخْلِفُ تَارِكًا المُسْتَخْلَفَ يفعل ما يشاء قَوْلُ الله عز وجل عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فهاهو موسى عليه السلام يَسْتَخْلِفُ أَخَاه، ويضع له نظامًا يتبعه، ولا يُخَالِفُه، وبَعْدَ انقضاءِ مُدَّةِ الاستخلاف حاسب موسى عليه السلام أخاه وقومه على الأعمال التي قاموا بها وقت الاستخلاف، فقال الله سبحانه وتعالى عن ذلك: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وتخبرنا الآيات بِأَنَّ الله عز وجل جَعَلَ النِّظَامَ الذي يتبعه المُسْتَخْلَفُونَ في الكتاب الذي أنزله عليهم، ولكن بعض المُسْتَخْلَفِينَ يتلاعبون به، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟

(١) تفسير الزمخشري (١/ ١٢٤).

ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقال الله ﷻ عَن فِئَةٍ أُخْرى تلاعبت بتفاصيل النِّظَامِ الذي وَضَعَهُ الله ﷻ لِلْمُسْتَخْلَفِينَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

ويُبَصِّرُنا الله ﷻ بالمؤمنين الذين يقومون بتنفيذ مبادئ الاستخلاف في الأرض، فيقول ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

بصيرة: كلمة (خليفة) تدلُّ على مركز مَرْمُوقٍ يُوضَع فيه الإنسان، لكنَّه مركزٌ له مسؤوليةٌ ضخمةٌ، فليس المراد أَنَّ الله ﷻ أَوْكَلَ إليه أَنْ يَصْنع ما شاء دون حساب، بل جعله قائمًا بأمره في عمارة الأرض وإمارتها مع بقائه ضمن محاسبة الله ﷻ وسُنَنِهِ في مُكَافَأته على الإحسان ومعاقبته على الإساءة.

هكذا بدأت قصة آدم عليه السلام، فهو وذريته سيكونون خلفاء في الأرض، ولكن لماذا كان الإنسان هو المختار لهذه الوظيفة العظيمة؟

ودونك الجواب- وفقك الله-:

خلق الله ﷻ الْعَالَمَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً، وَخَصَّ كُلَّ نَوْعٍ غَيْرَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ بِشَيْءٍ مَحْدُودٍ مُعَيَّنٍ لَا يَتَعَدَّاهُ: فَأَمَّا مَا لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ كَالْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، فَقَدْ وَرَدَ فِيهِم مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ وَظَائِفَهُم مَحْدُودَةٌ، قال ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]،

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ [الصافات: ١-٢]، وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ بِالنَّظَرِ وَالِاخْتِبَارِ فَهُوَ حَالُ الْمَعْدِنِ وَالْجَمَادِ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا عَمَلَ، وَحَالُ النَّبَاتِ وَإِنَّمَا تَأْثِيرُ حَيَاتِهِ فِي نَفْسِهِ... فَكُلُّ حَيٍّ مِنَ الْأَحْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ وَالْغَيْبِيَّةِ فَإِنَّ لَهُ اسْتِعْدَادًا مَحْدُودًا، وَعِلْمًا إِلْهَامِيًّا مَحْدُودًا، وَعَمَلًا مَحْدُودًا، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً عَنِ الَّذِي لَا حَدَّ لِعِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَا حَصْرَ لِأَحْكَامِهِ وَسُنَنِهِ، وَلَا نِهَايَةَ لِأَعْمَالِهِ وَتَصَرُّفِهِ، **وَأَمَّا الْإِنْسَانُ** فَقَدْ خَلَقَهُ اللهُ ضَعِيفًا، كَمَا قال فِي كِتَابِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨]، وَخَلَقَهُ جَاهِلًا كَمَا قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]، **فالإنسان عَلَى ضَعْفِهِ وَجَهْلِهِ يملك الاستعداد للتعلم المعقد، ويستطيع من خلال ذلك أن يَتَصَرَّفَ فِي الْأَقْوِيَاءِ، ويتعلم جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ، ويسخر الكائنات والأحياء إما نحو الدمار وإما نحو العمار، وفق خريطة الحياة التي أنزلها الله العزيز الغفار..**

يُولَدُ الْحَيَوَانُ عَالِمًا بِالْإِلْهَامِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَتَكْمُلُ لَهُ قُوَاهُ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ، وَيُولَدُ الْإِنْسَانُ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْإِلْهَامِ إِلَّا الصُّرَاخُ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ يَحِسُّ وَيَشْعُرُ بِالتَّدْرِيجِ الْبَطِيءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَيُعْطَى قُوَّةً أُخْرَى تَتَصَرَّفُ بِشُعُورِهِ وَإِحْسَاسِهِ تَصَرُّفًا يَكُونُ لَهُ بِهِ السُّلْطَانُ عَلَى هَذِهِ الْكَائِنَاتِ، فَيُسَخِّرُهَا وَيُذَلِّلُهَا بَعْدَ ذَلِكَ كَمَا تَشَاءُ تِلْكَ الْقُوَّةُ الْغَرِيبَةُ وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْعَقْلَ، وَلَا يَعْقِلُونَ سِرَّهَا...فيكون لَهُ بِهَا مِنَ الِاخْتِرَاعَاتِ الْعَجِيبَةِ مَا كَانَ، وَسَيَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ التَّقْدِيرُ وَالْحُسْبَانُ...فَالْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ غَيْرُ مَحْدُودِ الِاسْتِعْدَادِ وَلَا مَحْدُودِ الرَّغَائِبِ وَلَا مَحْدُودِ الْعِلْمِ وَلَا مَحْدُودِ الْعَمَلِ، فَهُوَ عَلَى ضَعْفِ أَفْرَادِهِ يَتَصَرَّفُ بِمَجْمُوعِهِ فِي الْكَوْنِ تَصَرُّفًا لَا حَدَّ لَهُ بِإِذْنِ اللهِ وَتَصْرِيفِهِ[1].

(١) تفسير المنار (١/ ٢١٧).

فَذَكَرَ الله ﷻ خَلْق الْأَرْضِ والسَّمَوَات، ثم عَقَّبَ ذلك بأنه سيجعل في الأرض خليفة ليَخْلُف صَاحِبَ الشَّيْءِ فِي التَّصَرُّفِ فِي مَمْلُوكَاتِهِ، وسَنِّ النِّظَامِ المناسب للبشرية عَلَى حَسَبِ وَفْرَةِ عَدَدِهِمْ وَاتِّسَاعِ تَصَرُّفَاتِهِمْ، فَكَانَتِ الْآيَةُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ إِيمَاءً إِلَى حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى إِقَامَةِ حكمٍ يتولى إدارة أمور البشريَّة، وتنفيذ ذلك النظام الذي يقيم الحياة[1].

هَلْ شَعَرْتَ الآن بِجَمَالِ هذه الكلمة (خَلِيفَةً)؟

هنا تشعر بالقُوَّةِ العِلْمَيةِ لِحُذَّاقِ المُفَسِّرينَ الذين حَقَّقُوا أَنَّ الْمُرَاد بكلمة (خليفة) هنا ليس آدَمَ عليه السلام فَحَسْبُ، فهو –تعالى مجده– لَمْ يُرِدْ آدَمَ عليه السلام عَيْنًا؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا حَسُنَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، كما يقول ابن كثير رحمه الله[2].

وهكذا يقوم الإنسان بتنفيذ النظام الذي أنزله الخالق ﷻ لِتَسِيرَ عليه الكائنات في الأرض، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يكون المخلوقُ مُسْتَقِرًّا فِي الْمَكَانِ مِنْ قَبْلُ، «وإذن فصاحب المشيئة العليا يريد أن يُسَلِّمَ لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتَكِلَ إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله – بإذن اللّه – في المهمة الضخمة التي وَكَلَها اللّه إليه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٩٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦).

وإذن فقد وُهِبَ هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات ووهب من القوى الخفية ما يحقق مشيئة الله تعالى.

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض - وتحكم الكون كله - والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة! وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم».

وبهذه الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] اسْتَدَلَّ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ خَلِيفَةٍ ليحكم بين الناس[1].. والذي ينبغي ذكره هاهنا ليتضح مرادهم ﷺ أَنَّه لا بُدَّ مِن تَعْيِينِ مُؤَسَّسَاتٍ لتدير الحياة وفق نظامٍ واضحٍ؛ لِيَتِمَّ الاستخلافُ على أحسن وجوهه، ويتم من خلاله تدبير الأرض وتوزيع المهام ليتحقق الإعمار.

المشهد الرابع: استحضار الملائكة عليهم السلام لدورة فساد أرضية سابقة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

لقد أعلم الله ﷻ الملائكة عليهم السلام عن الوافد الجديد الذي سيخلقه، وعن مركزه العظيم حيث سيكون خليفة في الأرض، فهل سكتت الملائكة عليهم السلام ؟ لا، بل حكى الله ﷻ عنهم أنهم ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فلماذا ذكر الله ﷻ ذلك عن الملائكة عليهم السلام؟

(١) انظر: تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٦٤).

هذا التساؤل الملائكي: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يُبَصِّرُنا بأخطر جريمتين يمكن أن يقوم بهما مخلوق، وهما الإفساد في الأرض، وسفك الدماء..

فدونك الحديث عنهما موجزًا:

الجريمة الأولى: الإفساد في الأرض:

الإفسادُ كلمةٌ تُصَوِّرُ مقدار الجريمة الهائلة التي يرتكبها البشر، فهي كلمةٌ مُشْتَقَّةٌ مِن فَسَدَ يَفْسُدُ فَسَادًا، والفَسَادُ: خُروجُ الشَّيء عن حَالِهِ المستقيمة المعتدلة، قليلًا كان الخروج عنه أم كثيرًا حتى يصير إلى البطلان والاضْمِحْلال، فيبطل الانتفاع به، ورُبَّما ينعكس.

والإفسادُ إخراج وضع الأرض عن حالتها المعتدلة المستقيمة إلى الواقع الأعوج، وعن الحالة الصحيحة الصِّحِّية إلى الحالة المريضة العليلة المُدَمِّرة، وعن حالة العدل إلى حالة الظلم، وعن جمال النُّور وأَمَانِهِ إلى قُبْح الظلمات ومخاوفها.

الإفسادُ في الأرض كلمةٌ جامعةٌ لكُلِّ تَغْيِيرٍ سَيئ، ولكُلِّ هَدْمٍ للواقع الصَّالِح الذي خَلَقَ اللهُ ﷻ عليه بيئة الأرض وفطرة أهلها، فيدخل فيه الإتلاف، والتدمير، والانحلال، والانحراف، ويحدث الإفساد من خلال الجرائم التي يتجاوز الإنسان فيها حدود الله ﷻ.

فيشمل الإفسادُ العبثَ بالموارد والأجهزة والمواد والمُعَدَّات، وإثارةَ الحُروبِ والفِتَنِ، وإفْسادَ البيئة، والمنافعَ الدِّينيةَ والدُّنْيَوِيةَ، والإهْمَالَ والغِشَّ والخِيانة، وسَرِقة الثَّرواتِ العَامَّة والخاصَّةِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وَنَشْرَ اللصُوصِيَّةِ والسَّرِقَةِ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ٧٣].

وهنا سنسأل: لماذا ذَكَرَتْ جَمَاعة الملائكة عليهم السلام جَرِيمةَ الإفْساد في الأرض أَوَّلًا؟ وما وَجْهُ كَوْنِ الإفساد جَريمةً؟

الجواب: لأنَّ حقيقة جريمة الإفساد معارضة النظام الذي وضعه الله ﷻ للحياة، والعمل على إلغائه، فالنظام الذي وضعه الله ﷻ:

إمَّا أَنْ يكون هو التدبير الذي بنى عليه الكونَ لِيُحَقِّقَ التَّوازُنَ بين المُكَوِّنَاتِ المَادِّيَّةِ للحياة الأرضية، مثل وُجُودِ الأحياء، والمخلوقاتِ المُتَنَوِّعَة، كالأشجار، والبحار، والجبال، والحيوانات، والبشر، وأَنْظَمَةِ تَكَوُّنِ المياه، ووُجُودِ الهواء، وقَوانينِ الفيزياء، والكيمياء، وكيفية الزِّرَاعَةِ، والحصاد.. فمن يعمل على تدمير هذه الطبيعة التي خلقها الله ﷻ يكون مفسدًا في الأرض، وبذا يعارض أمر الله ﷻ الذي نَظَّمَ الحياة، وهو بذلك يقضي على الحياة أصلًا.. فانظر مقدار هذه الجريمة الجسيمة.

وإما أن يكون هذا النظام هو التشريع الإلهيُّ الذي كَلَّفَ الله ﷻ البشريَّة بالتزامه والسير وفقه مثل أركان الإسلام والإيمان، واجتناب المعاصي، والرَّزِيَّة أن معارضة هذا النظام مما يتباهى بها بعض البشر، فيشركون بالخالق غَيْرَهُ، بدلًا من أَنْ يَتَّبِعُوا نظامه وقوانينه، ثم يقترفون المعاصي الشهوانِيَّة التي تُعَبِّرُ عن الأنانِيَّةِ والطمع والجشع والفردِيَّة، فيُحِلُّونَ الزِّنَا، والرِّبا، واغتصاب ممتلكات الآخرين، ويُؤَدِّي ذلك إلى تغيير أمر الله ﷻ الذي صبغ عليه الحياة، ومن يعمل ذلك يفسد في الأرض، فيُدَمِّر النظام الذي يمكن أن يحيا عليه البشر الحياة الكريمة السعيدة.

وعندما يُضَادُّ البشرُ النظام الذي وضعه الله ﷻ في الكون، والتشريع الذي شرعه للعباد.. يظهر التدمير في طبيعة الأرض، وفي الأمر الصحيح الذي يجب أن يجري عليه الاقتصاد

والطبيعة والسياسة والاجتماع؛ كهدم بيئتها المتنوعة البديعة، والعبث بتوازن قوانينها المادية، ويترتب على ذلك الفسادُ في البر والبحر، والخللُ المدمِّر لواقع الحياة، وفساد الإنسان في الأرض يؤدِّي إلى انقراض الأحياء.

تَصَوَّرْ أَنَّ البَشَرَ قتلوا في العام ٢٠٢٢م ما يقرب من ٤٠ مليون جنين باسم حُرِّيَّةِ الإجهاض، حيث تجري هذه العملية بِأَسْوَأِ طَرِيقٍ يُمْكِنُ أَنْ يَتصَوَّرَهُ بشرٌ، فيُقَطَّعُ فيها الجنينُ تقطيعًا لصالح رغبةِ أطرافٍ مُجْرِمَةٍ تُقْنِعُ الحَامِلَ بِحُرِّيَّتِها وحَقِّها في ممارسة هذا الإفساد الرهيب.

ومن الإفساد ألا تُحَكَّمَ القوانين الاجتماعية الصحيحة، كتحريم الرِّبا، وهم يعلمون أن الربا يؤدِّي إلى أعظم المفاسد الاقتصادِيَّة، وكقوانين بناء الأسرة المُؤَدِّية إلى التماسك والسعادة الإنسانيَّة؛ فالله ﷻ خَلَقَ الخَلْقَ، وشرع له قوانين وأحكامًا تناسب هذا الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، والحيد عن القوانين الإلهِيَّةِ يُؤَدِّي إلى إفساد الأرض وانْحِلالِها بِمَنْ عليها.

فإن قلت: عرفنا الجريمة الأولى التي قال عنها الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ثم قالوا: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فذكروا أَنَّه سَيَتَرَتَّبُ على جَعْلِ هذا المخلوقِ الجديدِ خليفةً في الأرض أنه سيكون فيها من يسفك الدماء، فما معنى ذكرهم لهذا؟

وإليك الجواب- وفقك الله-:

الجريمة الثانية: سفك الدماء:

هذه الكلمة ﴿يَسْفِكُ﴾ يقال منها: سَفَكَ الدَّمَ والدَّمْعَ والماءَ يَسْفِكُهُ ويَسْفُكُه سَفْكًا، فهو مَسْفُوكٌ وسَفِيكٌ: صَبَّهُ وهَرَاقَهُ وأَجْرَاهُ لكلِّ مائِعٍ[1].

(١) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (٢٧/ ١٩٧).

والظاهر أنها أقوى من كلمة (يَصُب)، فإنها تدل على سَيَلان جُزءٍ من الجسد أو تَحَوُّلِه بأكمله إلى سائلٍ مصبوبٍ يسيح في الأرض كذوبان الجوهر والذَّهَب إذا تَمَّ تَمْيِيعُه، فانظر كيف صورت الملائكة عليهم السلام هذه الجريمة.. فلم يقولوا: (ويقتلون الناس)، بل قالوا: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.. فيُصَوِّرُ لنا هذا التعبيرُ الهَوْلَ العظيمَ الذي يُصِيبُ المَرْءَ، وهو يرى الدَّمَ مَسْفُوكًا مَصْبُوبًا سواء أكان قليلًا أم كثيرًا.. وتذويب الحياة التي يكتنزها الإنسان لتصبح مصبوبةً سائحةً مائعةً تسيل في الأرض بما يعني التَّخَلُّصَ مَمَّنْ خَلَقَهُم الله جل جلاله ليشاركوا إخوانهم في الإنسانيَّة في حَقِّ الحياة، فالتعبير الذي ذكره الملائكة عليهم السلام: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يُصَوِّرُ لك المُعْتَدِي وهو يجعل الدِّماءَ تَسِيلُ كالماء الذي يجري في المَسِيل، والمُعْتَدِي يُسِيلُها لتخرج خارج الجسد وتفارقه، فيموت الجسدُ بسطوةٍ وبطشٍ بسببِ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ والاسْتِكْبَارِيَّةِ.

سفك الدماء من أعظم الجرائم؛ لأن الله عز وجل يخلق مخلوقًا، ويأمر الخَلْقَ بعدم الاعتداء عليه، فيأتي مخلوقٌ آخَرُ ويَحْرِمُه حَقَّ الحياة التي وهبها الله سبحانه وتعالى إِيَّاهُ، بل يُذِيبها لِتُصْبِحَ مَائِعَةً تَسِيحُ في الأرض.

عندما نجمع بين هاتين الجريمتين المذكورتين في قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ نتساءل:

لماذا ذكروا سَفْكَ الدِّمَاءِ بَعْدَ الإِفْسَادِ في الأرض، مع أَنَّ سَفْكَ الدِّماءِ نوعٌ من الإِفْسَادِ؟

الجواب: سَفْكُ الدِّمَاءِ نوعٌ من الإِفْسَادِ، ولكن الله جل جلاله خصصه بالذِّكْرِ لأَنَّهُ أَسْوَأُ أَنْواعِ الإِفْسَادِ في الأرض.

ولاحِظْ أنَّ الملائكةَ عليهم السلام عَبَّرُوا عَن هَاتَيْنِ الجَرِيمَتَيْنِ بالفعل الحاضر (المضارع) (يُفْسِدُ، يَسْفِكُ)؛ لأنَّ الحاضرَ (المُضَارِعَ) يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدُوثِ والاستمرارِ الدائمِ أو المُتَقَطِّع

بحسبه، فيَحدُثُ الإفسادُ والسَّفكُ لِلدِّمَاءِ حِينًا من الدَّهْرِ ثُمَّ يَهْمُدُ، فيتوقف، ثم يعود للحدوث مُجَدَّدًا.

والملائكة عليهم السلام هنا لَمْ تَعْدُ الصَّوَابَ؛ إِذْ تَسْأَلُ عَنِ الحكمة في مَخْلُوقٍ يُوجَدُ مِن ذُرِّيَّتِه مَن يُفْسِدُ في الأرض ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ.. فانظُرْ لِمقدارِ الإِفْسَادِ الذي يَقْتَرِفُهُ الإنسانُ ليس في حَقِّ الأَرْضِ بَلْ في حَقِّ أَبْنَاءِ جِنسِهِ حَدًّا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِ وزير الخَارِجِيَّة الأَلْمَانِي هانز ديترش جنشر في الاجتماع العام للأمم المتحدة بنيويورك٢٥/ ٩/ ١٩٩١: «لا يزال الإنسان حتى يومنا هذا يشنُّ حُرُوبَه على كَافَّةِ المخلوقات»، وليت الوزير خصص بالذِّكْرِ حُروبَ الإنسانِ ضِدَّ أَخِيه الإنسان.

والعجب أن يدَّعي أولئك الوَالِغُون في الدِّمَاءِ العَدْلَ وحماية حقوق الإنسان، وهُمْ أَكْثَرُ مَن يُعَاقِرُ الظُّلْمَ، ويَحْيا على بُؤْسِ المظلومين، ويرقص على جِرَاحَاتِهِمْ.

يَدَّعُونَ الْعَدْلَ مَا بَيْنَ الْأَنَام ... جُثَثُ الْقَتْلَى مِنَ الظُّلْمِ رُكَامْ

يَدْعُمُونَ الظُّلْمَ بِاللَّيْلِ وَإِنْ ... أَشْرَقَ الصُّبْحُ تَنَادَوْا لِلسَّلَامْ!

هَامَتِ الأَرْوَاحُ في وَادِي الْعَذَابْ ... نبتُهُ شوكٌ، ونارٌ، وحِرابْ

وَسَعِيدُ الْحَظِّ في عَالَمِهِمْ ... مَنْ بَنَى مَنْزِلَهُ تَحْتَ التُّرَابْ!

يَا حَضَارَاتِ الرِّيَا والْكَذِبِ ... يا حَضَارَاتِ الْعَنَا والنَّصَبِ

يُقْتَلُ الأَحْرَارُ فيها غِيلَةً ... عَجَبِي مِنْ ظُلْمِهَا وَا عَجَبِي[1]

(١) الأبيات لعبد الرزاق بن حمود الزهراني. ينظر: مجلة البيان، العدد: ٩٧، ص: ٦٢.

سبب قول الملائكة ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]

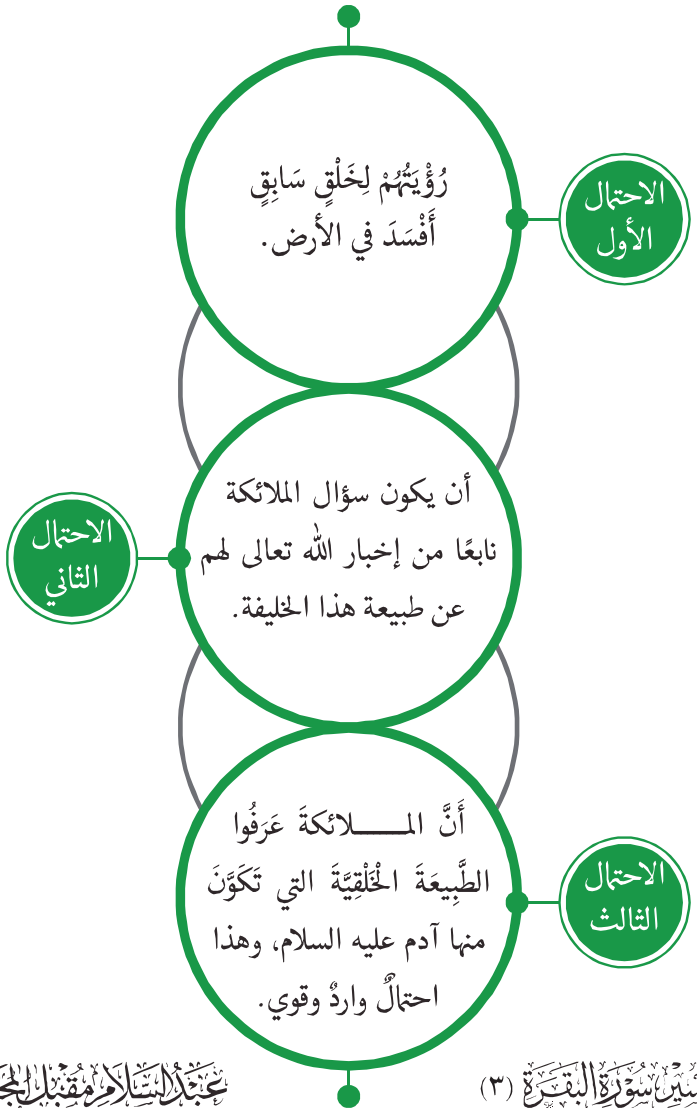

وأمام هذا التَّسَاؤُلِ المَلائِكِيِّ نتساءل نحن:

مِنْ أَيْنَ عَلِمَتِ الملائكةُ عليهم السلام أَنَّ الجِنسَ الجَدِيدَ سيصدر عنه إِفْسَادٌ فِي الأرض وَسَفْكٌ لِلدِّمَاءِ؟

الجواب: لا تتوقف طويلًا أمام ذلك، فقد علمت الملائكة عليهم السلام أَنَّ بَعْضًا مِن ذُرِّيَّةِ الجنس الجديد سيحدث منه ذلك، ولْنُشِرْ إلى أَنَّ هناك احتمالاتٍ ثلاثة رُبَّمَا كانت مَبْعَثَ سُؤَالِ الملائكة عليهم السلام:

الاحتمال الأول: رُؤْيَتُهُمْ لِخَلْقٍ سَابِقٍ أَفْسَدَ فِي الأرض:

ستقول: وكيف ذلك وقد ذهب بعض المفسرين إلى أَنَّ ذِكْرَ الأرضِ والسَّمَوَات قبل هذه الآية يَدُلُّ على أَنَّ آدم عليه السلام أَوَّلُ المخلوقين للأرض؟

أجيبك بِأَنَّ هذا التَّلَازُمَ بَيْنَ ذِكْرِ السَّمَوَات والأرض وخَلْقِ آدمَ عليه السلام لا يَدُلُّ على أَنَّ البشر خُلِقوا مباشرةً بَعْدَ خَلْقِ الأرض ولم يَسْبِقْهُم أحدٌ عليها؛ إذ قد عَلِمَتَ يقينًا أَنَّ الملائكة عليهم السلام والجنَّ خُلِقُوا قبل ذلك، وقد قال: ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧]، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يشير إلى ذلك، إذ قال: «لَقَدْ أَخْرَجَ اللهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وَقَدْ كَانَ فِيهَا [أي: في الأرض] قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ بِأَلْفَيْ عَامٍ الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ، فَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَلَمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] يَعْنُونَ: الْجِنَّ بَنِي الْجَانِّ، فَلَمَّا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، بَعَثَ عَلَيْهِمْ جُنُودًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، فَضَرَبُوهُمْ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ بِجَزَائِرِ الْبُحُورِ. قَالَ: فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ؟ قَالَ: فَقَالَ اللهُ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾»[1].

وفي رواية تفصيلية عن ابن عباس ﷺ قال:

«كَانَ إِبْلِيسُ مِنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ خُلِقُوا مِنْ نَارِ السَّمُومِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، قَالَ: وَكَانَ اسْمُهُ الْحَارِثَ. قَالَ: وَكَانَ خَازِنًا مِنْ خُزَّانِ الْجَنَّةِ. قَالَ: وَخُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام كُلُّهُمْ مِنْ نُورٍ غَيْرِ هَذَا الْحَيِّ. قَالَ: وَخُلِقَتِ الْجِنُّ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَهُوَ لِسَانُ النَّارِ الَّذِي يَكُونُ فِي طَرَفِهَا إِذْ أَلْهَبَتْ. قَالَ: وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ، فَأَوَّلُ مَنْ سَكَنَ الْأَرْضَ الْجِنُّ، فَأَفْسَدُوا فِيهَا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. قَالَ: فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسَ فِي جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، وَهُمْ هَذَا الْحَيُّ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ فَقَتَلَهُمْ إِبْلِيسُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى أَلْحَقَهُمْ بِجَزَائِرِ الْبُحُورِ وَأَطْرَافِ الْجِبَالِ. فَلَمَّا فَعَلَ إِبْلِيسُ ذَلِكَ اغْتَرَّ فِي نَفْسِهِ، وَقَالَ: قَدْ صَنَعْتُ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ أَحَدٌ. قَالَ: فَاطَّلَعَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَلْبِهِ وَلَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ؛ فَقَالَ اللهُ عز وجل لِلْمَلَائِكَةِ عليهم السلام الَّذِينَ مَعَهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام مُجِيبِينَ لَهُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كَمَا أَفْسَدَتِ الْجِنُّ وَسَفَكَتِ الدِّمَاءَ؟ وَإِنَّمَا بُعِثْنَا عَلَيْهِمْ لِذَلِكَ. فَقَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»[2].

وأنت ترى أَنَّ أَوَّلَ هذه الرواية لا ينسجم مع ما ثبت في القرآن من أَنَّ (إبليس) من الجِنِّ، لا من الجِنِّ المزعوم، فقد قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٣٠٣٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٥٥).

إذن فالاحتمال الأول للكلام الذي صدر من الملائكة عليهم السلام أنهم علموا خلقًا سابقًا أفسد في الأرض، فما الاحتمال الثاني؟

الاحتمال الثاني: رُبَّمَا كان سؤال الملائكة عليهم السلام نابعًا من إخبار الله تعالى لهم عن طبيعة هذا الخليفة.. والله جل جلاله يروي القصة فيطوي أخبارًا فيها لا يذكرها، ويذكر أخبارًا أخرى؛ لأنها المقصودة من الذِّكْرِ في السِّياق، وقد ذكر الطبريُّ رِوايةً تدلُّ على أنَّ الملائكة عليهم السلام سألت عن طبيعة هذا المخلوق الجديد، فقال الله عز وجل لهم: يكون له ذرّية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضًا.. فعند ذلك تعجبوا وأرادوا معرفة الحكمة فقالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

الاحتمال الثالث: أَنَّ الملائكة عليهم السلام عَرَفُوا الطَّبِيعَةَ الْخَلْقِيَّةَ التي تَكَوَّنَ منها آدم عليه السلام؛ إذ ظهر لهم -كما ظهر لإبليس- الحقيقة الآدَمِيَّة، فَهِمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ البشريَّة، فَإِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ هَذَا الصِّنْفَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وذكر هذا ابن كثير رحمه الله فقال: «أَوْ فَهِمُوا مِنَ الْخَلِيفَةِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الناس وفيما يقع بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَظَالِمِ وَيَرُدُّ عَنْهُمُ الْمَحَارِمَ وَالْمَآثِمَ، قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ، أَوْ أَنَّهُمْ قَاسُوهُمْ عَلَى مَنْ سَبَقَ»[2].

ومما يُبَيِّنُ التَّعَرُّفَ على خصائص المخلوق من خلال معرفة طبيعته ما جاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ» [3].. فلما رأت الملائكة عليهم السلام

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦)، وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٧٤).

(٣) مسلم (٢٦١١).

طبيعته، وعلموا أنه لَا بُدَّ أن ينتج من قُوَّتِه الشَّهْوانِيَّةِ الإِفْسَادُ في الأرض، ومن قُوَّتِه الغَضَبِيَّةِ سَفْكُ الدِّمَاء، تَسَاءَلَتْ هذا التساؤل.

وهذا احتمالٌ واردٌ وقوي، ورأيت الرازي رحمه الله أشار إليه دون تفصيلٍ، وكأن ابن عاشور اسْتَلْهَمَهُ مِنه، ثُمَّ زَيَّنَهُ مُفَصَّلًا فقال: «عَلِمُوا أَنَّهُ تَرْكِيبٌ يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْجِبِلَّةِ إِلَى الِاكْتِسَابِ وَعَنِ الِامْتِثَالِ إِلَى الْعِصْيَانِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ يَشْتَمِلُ عَلَى شَاهِيَةٍ وَغَاضِبَةٍ وَعَاقِلَةٍ، وَمِنْ مَجْمُوعِهَا وَمَجْمُوعِ بَعْضِهَا تَحْصُلُ تَرَاكِيبُ مِنَ التَّفْكِيرِ نَافِعَةٌ وَضَارَّةٌ، ثُمَّ إِنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي فِي الْجَوَارِحِ تَسْتَطِيعُ تَنْفِيذَ كُلِّ مَا يَخْطُرُ لِلْعَقْلِ وَقُوَاهُ أَنْ يَفْعَلَهُ، ثُمَّ إِنَّ النُّطْقَ يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ خِلَافِ الْوَاقِعِ وَتَرْوِيجَ الْبَاطِلِ، فَيَكُونُ مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ، وَمِنْ أَحْوَالِهِ أَيْضًا صَلَاحٌ عَظِيمٌ، وَإِنَّ طَبِيعَةَ اسْتِخْدَامِ ذِي الْقُوَّةِ لِقُوَاهُ قَاضِيَةٌ بِأَنَّهُ سَيَأْتِي بِكُلِّ مَا تَصْلُحُ لَهُ هَذِهِ الْقُوَى خَيْرُهَا وَشَرُّهَا فَيَحْصُلُ فِعْلٌ مُخْتَلَطٌ مِنْ صالح وسيئ»[1].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٢).

المشهد الخامس: حتى الملائكة تسأل:

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

فإذا تساءلنا:

لماذا سألت الملائكة عليهم السلام هذا السؤال؟ وهل سألوا سؤال استنكارٍ واعتراض واحتجاج؟

الجواب:

وهل يمكن أن يسأل الملائكة عليهم السلام ربهم عز وجل سؤال استنكار أو أن يحتجوا على فعله؟!

فالملائكة عليهم السلام لا يعترضون؛ إذ وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧]، ولكن:

يُبَصِّرُنا السُّؤَالُ الملائكيُّ بأنه سؤال للاستفهام والاستعلام والاستكشاف.. أي: لطلب الفهم، والعلم، والكشف، وهو مفتاح المعرفة المبصرة الصادقة لاستكشاف الوجود الكوني.

> **بصيرة: العبودية الخاضعة المخبتة لا تمنع من أن يسأل العابد ربَّه عز وجل عن حكمته في كل شيء ليزداد علمًا.. وبصرًا.. ونورًا.**

فالملائكة عليهم السلام تريد أن تتعلم الحكمة من خلق هذا الخليفة الذي سيفسد بعض أبناء جنسه في الأرض.. إنه سؤال كبيرٌ.. تطرحه الملائكة عليهم السلام لطلب المعرفة.. ومن العجيب أن هذا السؤال نفسه يطرحه الملائكة عليهم السلام وهم يؤمنون بالله في حين يطرحه الملحدون لتعليل كفرهم بالله(١).

فقوله جل جلاله: ﴿أَتَجۡعَلُ﴾ هذه همزة سؤال، ولكن ماذا يعني السؤال هنا؟

---

(١) راجع كتاب (حتى الملائكة تسأل) لجفري لانج.. ومعنى هذا السؤال كان أحد أسباب إلحاد د.جفري كما أن قراءته له في سورة البقرة كان أحد أسباب إيمانه.

إن السؤال هنا على حقيقته، فالمراد به الاستفهام أي طلب الفهم، وطلب إزالة ما أُبهم من الكلام، والاستعلام أي: طلب المعلومة، والاستكشاف أي: طلب الكشف عن الحكمة، والاستخبار أي: طلب الخبر، وهذا السؤال يشبه سؤال سيدنا عمر بن الخطاب للنبي ﷺ لَمَّا صَلَّى على المرأة التي زَنَت: أَتُصَلِّي عليها يَا نَبِيَّ اللهِ وقد زَنَت؟ فَقال ﷺ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ. وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»(١).

فقول عمر رضي الله عنه **ليس إنكارًا على النبي** ﷺ**، وإنما هو استعلام**.. وسؤال الملائكة عليهم السلام هنا مثل سؤال مُوسَى عليه السلام: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فهو ليس سؤال استنكار بل سؤال يطلب فيه أن يفهم، ويصحبه طلب استرحام، وكذلك مثل قول جَرِير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَيْ: أَنْتُمْ كَذَلِكَ. وَلَوْ كَانَ اسْتِفْهَامًا لَمْ يَكُنْ مَدْحًا (٢).

كأنهم قالوا: ما الحكمةُ مِن جَعْلِ هذا المخلوق خليفةً في الأرض مع أَنَّ أَمْرَ بعضِ ذُرِّيَّتِه رُبَّمَا آل إلى أن يُفْسِدَ فيها ويَسْفِكَ الدِّمَاء؟

بصيرة: سُؤالُ الملائكة عليهم السلام يُبَصِّرُنا بأَنَّه لا ينبغي لنا الخوف والقلق مِن طَرْحِ الأسئلةِ الوُجُودِيَّةِ التي تَتَعَلَّقُ بالحياة مادام السائلُ يريد الفهمَ، بل لا بُدَّ مِن استيعاب المنهج القرآني في كيفية التعامل معها.

(١) مسلم (١٦٩٦).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٩٢).

أدركنا أن الملائكة عليهم السلام يسألون الله ﷻ طالبين الفهمَ ومعرفةَ الحكمةِ من وُجُود المخلوق الجديد، وظهر ذلك في قول ربنا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، ووجدنا أن الله ﷻ نقل لنا تكملة لكلامهم حيث قالوا: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾؟ فلماذا زادوا هذه الزيادة؟ وهل صحيح أن الحسد بعثهم ليتفاخروا بذلك؟

الجواب:

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ يُبَصِّرُنا ذكر التسبيح الملائكي لله على تذلل الملائكة عليهم السلام، واجتهادهم في تنفيذ أمر الله لا على أنهم يمنون في تسبيحهم وتقديسهم.

فهذه الزيادة تؤكد أن سؤالهم ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كان للاسترشاد لا للاعتراض.. وبذا ترتبط الجمل في السؤال، فيكون معنى هذه الجملة ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، أي: يا رب إنما أردنا بقولنا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ السؤال لطلب فهم حكمتك، وإلا فنحن نعظمك فنسبح بحمدك، ونقدس لك من أن تكون أفعالك عبثًا، ولَعَلَّ بعض المفسرين -رحمهم الله- ذهلوا عندما جعلوا قولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ تقديمًا لأنفسهم أو بيانًا لفضلهم.

ولم لا يريد الملائكة عليهم السلام بذلك بيان تَذَلُّلِهِم وإخراجِ سؤالهم مخرج المستفهم لا المعترض، ووفق الله ﷻ الرَّازي لهذا الفهم، فقال: «لَيْسَ الْمُرَادُ مَدْحَ النَّفْسِ، بَلِ الْمُرَادُ بَيَانُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ مَا أَوْرَدْنَاهُ لِنَقْدَحَ بِهِ فِي حِكْمَتِكَ يَا رَبِّ، فَإِنَّا نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنَعْتَرِفُ لَكَ

بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ، فَكَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّهُمْ مَا أَوْرَدُوا السُّؤَالَ لِلطَّعْنِ فِي الْحِكْمَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، بَلْ لِطَلَبِ وَجْهِ الْحِكْمَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ»[1].

فلما تساءلوا عن الحكمة من جعل المخلوق الجديد خليفة أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لِيُبيِّنُوا أَنَّهم يبحثون عن الحكمة في إيجاد مخلوقٍ قد يَتَرَتَّبُ على إيجاده الفسادُ، وسَفْكُ الدماء مع أنَّ الله ﷻ يمكنه أن يخلق ملائكة آخرين يُؤَدُّونَ الوظائف المطلوبة، وأثناء تأديتهم لها يُسَبِّحُون بحمد الله ﷻ ويُقَدِّسُون له.. «ثم هم - بفطرة الملائكة عليهم السلام البريئة التي لا تَتَصَوَّرُ إلا الخيرَ المطلق، وإلا السلامَ الشَّامِل -يرون التسبيح بحمد اللّه والتقديس له.. هو وحده الغاية المطلقة للوجود.. وهو وحده العلة الأولى للخلق.. وهو متحقق بوجودهم هم، يُسَبِّحُون بحمد اللّه ويقدسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته! لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة اللّه في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحيانًا، وقد يسفك الدماء أحيانًا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل، خير النمو الدائم، والرقي الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والتطلع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير».

في قصة حوار الملائكة عليهم السلام حول استخلاف الإنسان على الأرض ذكروا خصلتين يتقربون بهما إلى الله ﷻ هما: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.. **فما معنى** ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؟

الجواب: هنا ذكر الملائك خصلتين مميزتين يفعلونهما:

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٩٢).

الأولى: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.. أي: يقولون سبحان الله وبحمده:

فما التسبيح؟

التسبيح من (سَبَحَ)[١].. وأصلها حَرَكَةٌ وسَعْيٌ على نحوٍ خَاصٍّ يستغني فيه السابح عن المعتاد حوله، فالسَّبْحُ وَالسِّبَاحَةُ: الْعَوْمُ أو المَرُّ السَّرِيعُ المُتَحَكِّمُ فِي الْمَاءِ وفي الهواء، يقال: سَبَحَ سَبْحًا وسِبَاحَةً، **فالسِّبَاحة اختراقٌ لوسطٍ ما مثل الماء أو الهواء بِتَحَرُّكٍ على نَحْوٍ مُحَدَّدٍ مع الانغماس الكامل أو دونه.**

و(سُبْحَانَ) أصله مصدر نحو: غُفْران، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سُبْحَانَ مِنْ كَذَا، أَيْ: مَا أَبْعَدَهُ، وَفِي صِفَاتِ اللهِ ﷻ: سُبُّوحٌ، لأَنَّهُ تَنَزَّهَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْبَغِي لَهُ.

وجعل التَّسْبِيحُ عامّا في العبادات قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نِيَّةً، قال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

وعندما نُغْرِقُ في التَّحْليلِ اللُّغَوِيِّ عَمِيقًا نجد النبي ﷺ يُمِدُّنا بمعنىً عظيمٍ من معاني التسبيح.. فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [٢].

والسُّبُحَاتُ جمعُ سُبْحَة، قال الخليل وغيره: معنى سُبُحَات وَجْهِهِ نُورُهُ وجلاله وبهاؤه[٣].

فهذا يَمُدُّنا بمعنىً جديد، وهو نِسْبةُ منتهى الكمالِ والجمالِ والجلال إلى الله ﷻ، ويكون

---

(١) العين (٣/ ١٥٢).

(٢) مسلم (١٧٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤).

معنى: سبَّح الله أي: عظَّم اللهَ بنسبة مُنتَهَى الجمالِ والكمال والإكرام والجلال إليه، ويقتضي ذلك تَنزِيهَهُ عَنْ أَنْ يُنسَبَ إليه ما لا ينبغي، وتَمْجِيدَهُ مِنْ أَنْ يكون كِمِثْلِهِ شَيْءٌ، قال الطبري رحمه الله: «وأصلُ التسبيح لله عند العرب: التنزيهُ له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك، كما قال أعشى بني ثعلبة:

أَقُولُ -لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُه- سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

يريد: سُبحان الله من فَخْرِ علقمة، أي: تنزيهًا لله مِمَّا أَتَى عَلْقمة من الافتخار، على وَجْهِ النَّكِيرِ مِنْهُ لذلك»[1] كذا شرحه الطبري رحمه الله.. وَلِمَ لا يُضَافُ إِلى التَّنزيه التَّعْظِيمُ في كلمة التَّسْبِيحِ، وهو الذي يدلُّ عليه سِياقُ نُصُوصٍ أُخْرَى، وقد نَصَّ الرَّازِيُّ رحمه الله على أَنَّ التَّسْبِيح جَاءَ تَارَةً فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى التَّنْزِيهِ، وَأُخْرَى بِمَعْنَى التَّعَجُّبِ الذي عُنِيَ به التعظيم، ثم سرد مواضعها فالتنزيه مثل: أَنَا الْمُنَزَّهُ عَنِ النَّظِيرِ وَالشَّرِيكِ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]، والتَّعَجُّبُ الذي عُنِيَ به التعظيم مثل: أَنَا الَّذِي سَخَّرْتُ الْبَهَائِمَ الْقَوِيَّةَ لِلْبَشَرِ الضَّعِيفِ ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٣][2]، ونقل ابن كثير عن ابْن أَبِي حَاتِمٍ بسنده قال عُمَرُ لِعَلِيٍّ رضي الله عنهما وأصحابه عنده: لا إله إلا الله قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا سُبْحَانَ اللهِ؟ فَقال لَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا اللهُ لِنَفْسِهِ، وَرَضِيَهَا، وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ. وأسند عن مَيْمُون بن مِهْرَان عَنْ "سُبْحَانَ اللهِ" قَالَ: اسْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ بِهِ، ويُحَاشَى بِهِ مِنَ السُّوءِ[3].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٤).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٩٤).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦١)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٥).

والتنزيه يحمل معنيين: معنى الإبعاد، ومعنى الإعلاء، فالقائل: (سبحان الله) يبعده سبحانه عن كلِّ سوء معظِّمًا له، هو مرتفع به عن كلِّ سوء، فهو يقتضي المعنيين، فالتعظيم ملازم للتنزيه، والتنزُّه: الابتعاد عن المكان إلى مكان أحسن وأجمل، والتنزُّه عن النجاسة: الابتعاد عن النجاسة إلى ما هو أحسن وأعلى منها، وهي الطهارة، وتنزيهنا لربِّنا ﷻ: معناه إعلاؤه عما قاله الظالمون، فهو إذن محاشاة لربِّنا ﷻ عن ذلك، وتعظيمه بما يليق به، ومما يدلُّ على أن التسبيح يتضمَّن التعظيم، ما استقرَّ في النفوس من قول: (سبحان الله) عند رؤية شيء من عجائب قدرة الله تعالى، ويُقْصَدُ بها عند ذلك تعظيم قدرة الله تعالى وحكمته، والتعبير عن الشعور الصادق بعظمته سبحانه؛ لكونه خالق ذلك الشيء الذي استدعت رؤيته قول: (سبحان الله).

فالتَّسْبيحُ هو التَّنزِيهُ والتَّعْظيمُ الذي يقتضي أَنْ يَكُونَ لِلْمُسَبَّحِ مُنتَهى الكمال والجلال..

ويقرر أبو جعفر النَّحاس ﷺ هذا المعنى، فيقول: «شرح هذا: أنه بمعنى تبعيد الله جلَّ وعز عن كلِّ ما نسبه إليه المشركون من الأنداد والأضداد والشركاء والأولاد»[1].

والحمد هو الثناء على المحمود بصفاته الذاتية، وإحسانه المتعدي، ويكون معنى كلام الملائكة ﷺ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].. أي: ننسب إليك منتهى الجمال والكمال والإكرام والجلال مستعينين في ذلك بحمدك؛ إذ تسبيحنا إنما كان بإنعامك علينا، فنحن نحمدك عليه، ونستعين بالحمد على تسبيحٍ مثله.

ويكون تفصيل المعنى:

(١) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٦٤).

نسألك أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وسؤالنا هذا حال كوننا لا ننافسه في الاستخلاف، ولا ننسب إليك ما لا حكمة فيه، بل نحن نسبح بحمدك، أي: ننسب إليك منتهى الجمال والكمال والإكرام والجلال، فلا يمكن أن تخلق شيئًا باطلًا، أو أن تَعْلَمَ ملائكتُك ما لم تعلِّمهم إياه، ونسبحك من أن يخفى عليك مكر أو شر، وننزهك عن النقص في فعلك، ونعظِّمك في ذاتك حال كوننا حامدين لك على كل شيء، ومن أعظم ما نسبح بحمدك لأجله تمكيننا من تسبيحك:

لَـكَ الحَمْـدُ مَوْلانَـا عَلَى كُـلِّ نِعْمَـةٍ وَمِنْ أَعْظَمِ النَّعْمَاءِ قَوْلِي لَكَ الْحَمْدُ

لَمْ تَكْتَفِ الملائكةُ عليهم السلام في تعظيمهم لله جل جلاله بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ حتى أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.. **فما معنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟**

ودونك الجواب في الخصلة الثانية من خصلتين متميزتين كان الملائكة عليهم السلام يفعلونهما:

الثانية: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، والتقديس هو التطهير:

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: من قدَّس، فمال ابن فارس إلى أن هذه الكلمة مِنَ الْكَلَامِ الشَّرْعِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وتعني الطُّهْر[١]، و«القَدَّاس - كشَدَّاد: حَجَر يوضع في الحوض يصب عليه الماء لئلا يتكدّر الحوض، والقادس: حَجَرٌ يُنْصَب في وَسَط الحوض قَدْرًا لِرِيّ الإبل إذا غمره الماء رَوِيت الإبل، والقادِس: السفينة أو السفينة العظيمة، والقَدِيس: الدُرّ (يمانية)»[٢]، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْقُدَاسَ: شَيْءٌ كَالْجُمَانِ يُعْمَلُ مِنْ فِضَّةٍ. قَالَ: كَنَظْمِ قُدَاسٍ سِلْكُهُ مُتَقَطِّعُ[٣].

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٦٣).

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٧٤٧).

(٣) مقاييس اللغة (٥/ ٦٤).

فالقدس هو الكريم النفس المصان عن غيره مما هو أدنى منه، ويجعل معيارًا لقياس غيره، والتقديس: صَوْنُ الشيء النفيس وحفظه متجمعًا لا يَخْتَلط أو يشاب أو يُهْدَر: كماء الحوض المذكور، وكالدُّرِّ في صَدَفه.

ويرى الرَّاغِبُ رحمه الله أَنْ التَّقْدِيس بمعنى التّطهير الإلهيّ المذكور في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وليس بمعنى التّطهير الذي هو إزالة النّجاسة المحسوسة، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، يعني به جبريل عليه السلام من حيث إنه ينزل بِالْقُدُسِ من الله عز وجل، أي: بما يطهِّر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهيِّ(١).

فقول الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: ننسبك إلى ما يليق بك من الجمال والكمال والجلال والإكرام، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهّر الأشياء ارتسامًا لك كما يقول الراغب رحمه الله(٢)، ولعل الأدق: ونُخَلِّصُ أنفسنا وعبادتنا لك، فالسُّبُّوح المنزَّه، والقدوس الذي يجب أن نُخْلِصَ العبادةَ له.

ولعلك تسأل: ما العلاقة بين ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وبين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟

الجواب: اختلف أهل العلم في العلاقة بين هاتين الخصلتين، فبعضهم قال: التسبيح بحمد الله معناه الصلاة، والتقديس هو تنزيه الله عن النقائص، وبعضهم ذكروا العكس، فالتسبيح هو تنزيه الله عن النقائص، وحمده شكره على كل الكمالات، والتقديس هو الصلاة.

وهذا قريب من اختيار أبي مسلم الأصفهاني لمعنى نقدس لك، فنقل عنه أبو حيان: نقدس لك أفعالنا من المعاصي.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٦٦٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص٦٦٠).

ووقعت عليه بعد أن قررت اختياري الذي رأيته.

وقد ذهب ابن عاشور رحمه الله إلى أن فِعْل قَدَّسَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، ولكنه جاء متعديًا باللام لِإِفَادَةِ تَأْكِيدِ حُصُولِ الْفِعْلِ نَحْوُ شَكَرْتُ لَكَ وَنَصَحْتُ لَكَ وَفِي الْحَدِيثِ عِنْدَ ذِكْرِ الَّذِي وَجَدَ كَلْبًا يَلْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ «فَأَخَذَ خُفَّهُ فَأَدْلَاهُ فِي الرَّكِيَّةِ فَسَقَاهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ» أَيْ شَكَرَهُ مُبَالَغَةً فِي الشُّكْرِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ ضَعْفُ ذَلِكَ الشُّكْرِ مِنْ أَنَّهُ عَنْ عَمَلِ حَسَنَةٍ مَعَ دَابَّةٍ فَدَفَعَ هَذَا الْإِيهَامَ بِالتَّأْكِيدِ بِاللَّامِ وَهَذَا مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ[1].

ويظهر لي أن معنى قولهم ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ هنا معناه: نطهر لك أنفسنا من ذنوبنا وخطايانا لتكون لائقة للتسبيح بحمدك، ولذلك عدَّوه باللام فقالوا: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

فانظر لجمال الكلمتين؛ إذ يكون معنى الكلام:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾: **ونحن ما سألنا عن ذلك إلا لمعرفة الحكمة، وإلا فنحن ننزهك عن النقص في فعلك، ونعظمك في ذاتك حال كوننا حامدين لك على كلِّ شيء، ومن ذلك تمكيننا من تسبيحك، ونحن نطهِّر لك أنفسنا لتكون لائقة للتسبيح بحمدك.**

فلا تَظُنَّنَّ أَنَّ الملائكة عليهم السلام كانت تَمُنُّ بذلك على رَبِّها، بل هي تصف الواقع تقربًا إلى الله تعالى الذي له المنُّ والفضل، فقد ربَّى أولياءه على عدم المنِّ، فقال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، وعندما ذكرت الملائكة عليهم السلام أنها تسبح الله وتقدس له، فذلك لاستحقاقه سبحانه، ولحاجتها لذلك، لا لحاجته، فهو ليس بحاجةٍ لا لتسبيحنا ولا لتسبيحهم، وهو قادرٌ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٥).

على أن يجعل آدم خليفة دون أن يخبرهم، فهو كما وصف نفسه في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قائم بذاته، وكل شيء قائم به، وخاضع له.

وهذا التصور بخلاف التصور الذي أثارته الأساطير الإغريقية التي تذكر أن آلهتهم مثل (زوس) إله الرعد المزعوم لا يعيش إلا على التسبيح وحُبِّ البشر من أهل الأرض، أما الله ﷻ خالق السَّمَوَات والأرض فهو الحيُّ القَيُّومُ يفتقر إليه الخلق، وهو الغنيُّ عنهم تبارك الله رب العالمين، وقد خلق مخلوقاتٍ عظامًا لا يساوي البشر شيئًا أمامهم، منها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلاهُ الأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا! فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»(٢).

فالملائكة عليهم السلام يؤمنون بذلك، وإنما أرادوا السؤال عن الحكمة في خلق مخلوقاتٍ لا تقدر الله تعالى حق قدره.

ولبيان خشية الملائكة عليهم السلام، اقرأ ما رواه سلمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٧/ ٢٢٠) رقم (٧٣٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣٧٠) وقال: «رواه الطبراني بإسناد صحيح، والحاكم وقال:صحيح الإسناد».

(٢) أبو داود (٤٧٢٧)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٢) وعزاه لابن أبي حاتم وقال: «إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات»، وقال ابن حجر في فتح الباري (٨ / ٦٦٥): «وإسناده على شرط الصحيح»، وقال الشيخ الوادعي في الصحيح المسند (١/ ١٩٧): «هذا حديث حسنٌ على شرط البخاري، وأخرجه إبراهيم بن طهمان في "مشيخته"، فارتقى الحديث إلى الصحة».

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ عليهم السلام: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُون: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(١).

ومن هذه الجملة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نَسْتَلْهِمُ أَنَّه يجب أَنْ تَتَرَفَّق بِمَن يُعَدِّدُ مناقِبَهُ أمامك، أو يمدح بلاءه؛ إذ قد لا يكون غرضُه المَنَّ، بقدر ما يكون هدفُه فَهْمَ ما يجري حوله من خلال وصف واقعٍ يعرفه المخاطب.

وهذه الكلمات المباركات للملائكة عليهم السلام علَّمنا النبي ﷺ أن نقولها ونرددها، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْكَلاَمِ أَفْضَلُ؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(٢).

وقد ملأت ملائكة الله السَّمَوَات تسبيحًا وتقديسًا، فعن سعيد بن جبير قال: كان النبي ﷺ يُصلي، فَمَرَّ رجلٌ من المسلمين على رجل من المنافقين، فقال له: النبيُّ ﷺ يُصلِّي وأنت جالس! فقال له: امض إلى عملك إن كان لك عمل. فقال: ما أظنُّ إلا سيمر عليك من ينكر عليك. فمرَّ عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: يا فلان، النبي ﷺ يصَلِّي وأنت جالس! فقال له مثلها، فقال: هذا من عَملي. فوثب عليه فضربَه حتى انتهى، ثم دخل المسجدَ فصلَّى مع النبي ﷺ فلما انفتل النبي ﷺ قام إليه عمر رضي الله عنه، فقال: يا نبيَّ الله مررت آنفًا على فلان وأنت تُصلي، فقلت له: النبيُّ ﷺ يُصلِّي وأنت جالس! فقال: سرْ إلى عملك إن كان لكَ عمل. فقال النبي ﷺ: فهلا ضربْتَ عُنقه، فقام عمر رضي الله عنه مسرعًا. فقال: يا عُمر، ارجع فإن غضبك

---

(١) المستدرك (٨٧٣٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤١).

(٢) مسلم (٢٧٣١).

عِزّ ورضاك حُكْم، إن لله في السَّمَوَات السبع ملائكة يُصَلُّون له، غنيٌّ عن صلاة فلان. فقال عمر: يا نبي الله، وما صَلاتهم؟ فلم يرد عليه شيئًا، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا نبي الله، سألك عُمر عن صلاة أهل السماء؟ قال: نعم. فقال: اقرأ على عمر السلام، وأخبره أن أهل السماء الدنيا سجودٌ إلى يوم القيامة يقولون: "سبحان ذي الملك والملكوت"، وأهل السماء الثانية ركوعٌ إلى يوم القيامة يقولون: "سبحان ذي العزة والجبروت"، وأهل السماء الثالثة قيامٌ إلى يوم القيامة يقولون: "سبحان الحي الذي لا يموت"(١).

ويشهد لهذا الحديث حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى -أَوْ إِلَى- الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ». قَالَ: فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: «وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ»(٢).

المشهد السادس: عِلْمٌ غَيْبِيٌّ، وحِكْمَةٌ خَفِيَّةٌ:

إذا كان الله جل جلاله قد أعلم الملائكة عليهم السلام بأنه سيخلق وافدًا جديدًا في الكون ليكون خليفة في الأرض هو الإنسان، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قَبِلَ منهم أن يسألوه عن حكمته في خلق خليفة الأرض، فكيف أجابهم عن ذلك؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٢)، وقال شاكر رحمه الله: «هو حديث مرفوع، ولكنه مرسل، لأن سعيد بن جبير تابعي. وإسناده إليه إسناد جيد».

(٢) أحمد (٢١٥١٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد منقطع، ورواه الترمذي (٢٣١٢)، مع إدراج الزيادة في الحديث، وقال: هذا حديث حسن غريب، ويُروى من غير هذا الوجه أنَّ أبا ذر قال: «لوددت أني كنت شجرة تعضد»، وقال الشيخ الألباني: حسن دون قوله: «لوددت...».

هنا لا بد أن نتساءل: أجاب الله ﷻ الملائكة عليهم السلام جوابًا غير مباشر عن حكمته، فقال في آخر الآية: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾، فما معنى هذا الجواب؟

الجواب: هنا تلوح لنا بصيرة جديدة:

> **بصيرة: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ تعني: لا يمكن أن تظهر لهم الحكمة لضعفهم، لكنهم يجب أن يذكروا أن هناك حِكَمًا يعلمها الله ﷻ، ربما استبان بعضها لاحقًا، فالجواب تذكيرٌ من الله ﷻ بما تعلمه الملائكة عليهم السلام من سعة علمه، يشوقهم للمعرفة المستقبلية، ويقتضي أمرين معًا: أن يسلموا بعلم الغيب الذي يعلمه الله ﷻ، ويندفعوا للبحث عن تفصيل هذا العلم الإلهي وفق الاستطاعة.**

فالله ﷻ أجاب على السؤال الملائكي بأن بيَّن لهم وللكون كله عَظَمة حكمته الغيبية: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، فلم ينكر عليهم سؤالهم بل ذكرهم بقولٍ عامٍّ مجملٍ أن له حكمة عظيمة ربما تستبين تفاصيلها في المستقبل، أي أعلم من المصالح والخفايا ما لا تعلمون.. ويتابع الزمخشري تدبره للآية، فيضع سؤالًا بناء على هذا الجواب الإلهي، فيقول: فإن قلت: هَلّا بيَّنَ لهم تلك المصالح؟ قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإِنْ خَفِيَ عليهم وَجْهُ الحُسْنِ والحِكْمَةِ[1].

صحيح! فهناك من العلم ما لا يطيق المخلوقون معرفته، ويحتاجون إلى الزمن ليتضح لهم.. كحال طالب الثانوية إِنْ شُرِحَ له ما يؤخذ في مراحل أعلى.

---

(١) الكشاف (١/ ١٢٥).

بصيرة: ربما كان الاكتفاء بالعلم بالمجملات أولى بالمتعلم من علمه التفاصيل في بعض الأحوال، وهذا يعود لتقدير المعلم الحاذق الحصيف.

المفاهيم المدهشة التي يدلّ عليها قوله تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ {البقرة:٣٠}

المفهوم الأول

التسليم لحكمة الله عز وجل.

المفهوم الثاني

البحث عن المعرفة الكاشفة لهذه الجملة النورانية؛ إذ اقتصر على هذه الإجابة ليجتهدوا في معرفة الحكمة المختبئة في ثنايا أفعاله وكلماته الأخرى.

المفهوم الثالث

وجود إفساد مستقبلي جزئي لا يعني ترك إقامة ما يؤدّي إلى الصلاح الكلي.

المفاهيم المدهشة التي يدل عليها قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾:

يدل قول الله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ على عدَّة مفاهيم منها:

المفهوم الأول: التسليم لحكمة الله ﷻ:

إذ إن معنى قوله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ أي: أعلم من الحكمة التي تقتضي وجود هذا الخليفة أمرًا لا تعلمونه.

ولكننا نتساءل: فهل الملائكة عليهم السلام لا تعلم أن الله يعلم ما لا يعلمون؟

الجواب: بلى.. إن الملائكة المطهرة الكرام البررة عليهم السلام يعلمون أنَّ الله -تعالى شأنه- يعلم ما لا يعلمونه، لكن أراد الله ﷻ أن يشفي نفوسهم المتطلعة إلى المعرفة بصورةٍ مؤقتة بأن يصرفهم عن بيان الحكمة عاجلًا إلى أمرٍ سيقع آجلًا، فيكشف لهم النُّورَ المُخْتَبِئَ وراء الحكمة من الفعل الرَّبَّانِي بِجَعْلِ هذا الوافد الجديد خليفة في الأرض، فقوله ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ تذكيرٌ بما يعرفه المخاطبون، وهو تذكيرٌ يدل على أنه مهما اكتشفتم من حقائق علمية لا بد أن تبقى مسافة كبيرة لا يمكنكم اكتشافها، وذلك أمرٌ منطقيٌ، ومسألة طبيعيةٌ ما داموا في حَيِّزِ المخلوقية التي لا يمكن تجاوزها.

ولتتم التربية والتزكية المستنبطة من هذه الآية أعد قراءة هذه الآية العظيمة مع قوله -تعالى جده- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٦]، فالذي يعلم أن ما يأتيه من رَبِّه هو الحقُّ، يُسَلِّم له، ولا يتردد فيه.

المفهوم الثاني: البحث عن المعرفة الكاشفة لهذه الجملة النورانية ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقر: ٣٠]:

ولعلك تسأل: أين يمكن أن نبحث عن هذه المعرفة؟

الجواب: في كلام الله ﷻ وأفعاله الأخرى؛ فإن الله ﷻ لمَّا قال لهم ذلك لم يجبهم إجابة محددة عن سؤالهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] بل قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾؛ كأنَّه يحثُّهم حَثًّا على معرفة هذه الحكمة المختبئة في ثنايا أفعاله وكلماته المباركة النَّيِّرَةِ الأخرى، وهذا يستدعي من قارئ هذه الكلمات المباركات أن يحث خطواته النقلية والعقلية ليجد الإجابة التَّفصيليَّة التي تكشف هذه الإجابة الإجمالية في بقية القرآن الكريم من خلال تدبره ليجد المعرفة التي تنمو مع أمرين: الزمن، والازدياد من النُّور القرآني.

المفهوم الثالث: وجود إفساد مستقبلي جزئي لا يعني ترك إقامة ما يؤدي إلى الصلاح الكلي:

فالملائكة ﷺ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بناءً على عِلْمِهم بحدوث إفسادٍ مستقبليٍّ، ولكن الله ﷻ يَعْلَمُ حِكَمًا كُلِّيَّةً عُظْمَى لا تُبَرِّرُ إعدامَ البشريَّة بسبب فساد بعضهم.

وقد تتساءل:

كَثُرَ تركيز عددٍ من المفسرين على أن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني ما ينطوي عليه قلب إبليس، ونقل المفسرون ما يتعلق بفضح ما انطوى عليه فكر إبليس، فرووا عن ابن عباس ﷺ قال: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره[1]،

فهل هذا المعنى صحيح؟

أجيبك- وفقك الله-:

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٧).

هذا المعنى لا نملك ما يؤيده أو ينفيه، وستجد -أيدك الله- هذا المعنى يتكرر من بعض المفسرين، ولكن: أترضى أن يكون هذا المعنى الكلي العظيم ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ خَاصًّا بهذه القضية المحدودة الجزئية "فضح حقيقة إبليس"؟

نعم! يمكن أن يكون هذا المعنى جزئية صغيرة في بحر المعاني الكبيرة التي تدخل في هذه الكلمات العظيمة ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فلا يَحُولَنَّ هذا القولُ التَّفْسِيرِيُّ بينك وبين السِّياقِ العام، واعتبارِ عُمُوم البيان.

وهنا نقرِّر أن الله ﷻ خلق الإنسان لعمارة الأرض وفق نظام العبادة الذي أمره به، وهو يعلم ما سيكون منه من خلل.

وهنا ربما نسأل: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تُظْهِرُ هيمنة القرآن، وتَرُدُّ بِقُوَّةٍ على المُحَرِّفين الذين لا يرجون لله وقارًا، فكيف ذلك؟

الجواب: تظهر هذه الكلمات العظيمة أن الله جل مجده كامل العلم كامل الحكمة لا يمكن أن يقضي أمرًا وهو لا يعلم أوله وتفاصيله ونهايته، هذا بخلاف ما ورد في التوراة الحالية من عبارات يغلب على الظن أنها محرفة عن النص الأصلي، أو مبدلة، ففي سفر التكوين:

(٦: ٥): ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم.

(٦: ٦): فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه.

(٦: ٧): فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء؛ لأني حزنت أني عملتهم.

وفي صموئيل الأول (١٥: ٣٥): «والرب ندم؛ لأنه ملك شاول على إسرائيل»!

وهذا يخالف ما ورد في التوراة من تعظيم الله في صفاته، ففي سفر العدد (٢٣: ١٩): «لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ، وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ. هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ؟ أَوْ يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي؟».

هذا التناقض في النص التوراتي الحالي يدل بوضوح على وقوع التحريف، وعد الآن لترى جلالة اللفظ القرآني المبارك.. عد واسمع ربك ينقل لك مشهد الملائكة العظام عليهم السلام وربنا الرحمن المستعان يجيبهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ كأنه يقول لهم: أعلم من تدبير مصالح الكون ما لا تعلمون.. أعلم من أحوال إنشاء الخلق وتكميله ما لا تعلمون.. فخَبِّرْنِي –أيدك الله– عن عَظَمة هذه البصيرة القرآنية التي أمدتنا بها هذه الكلمات، فدع ما قد يشوش ذهنك من المنقولات التفسيرية التي تبعدك عن هذا الجمال[1].

فإنك تلمس قوله: ﴿أعلم﴾ فتجد لها جلالة عظيمة أي الحكمة أعلمها وأنتم لا تعلمونها إما لعدم تحملكم لسماعها، أو لأن الحكمة تقتضي إخفاءها فلم أضفنا نحن رجمًا بالغيب وخلقه لها.

(١) مثل ما روى الطبري (١/ ٤٧٧) عن مجاهد رحمهما الله: «علم من إبليس المعصية وخلقه لها، وعلم من آدم الطاعة وخلقَه لها» إن صح النقل عنه، فهو زاد شيئًا لم تدل الآية عليه حتى لو كان صحيحًا .

المظهر التكريمي الخامس: تكريم آدم عليه السلام بالعلم والمعرفة (الاستعداد الإنسانيُّ للمعرفة) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

هذا التكريم العظيم جاء قبل ذكر أمر الله العليم الحكيم بالسجود لآدم عليه السلام، وهنا نستطيع أن نقول: المعرفة باكتشاف الوجود أثمرت تكريم آدم عليه السلام بأن أمر الله ﷻ الملائكة عليهم السلام له بالسجود: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

أول سؤال يتعلَّق بهذا الفصل من القصَّة أن الله ﷻ في القرآن أخبر بأن المخلوق الجديد سيكون ﴿خليفة في الأرض﴾، لكننا وجدنا أن الله ﷻ قال عنه بعد ذلك: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، فسماه باسمه ﴿آدم﴾، وقد وجدنا أن الله ﷻ دعاه بهذا الاسم في الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عليه السلام، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ، فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ»(١).

فما وجه تسميته عليه السلام بهذا الاسم؟

هنا تأتي:

بصيرة١: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ تُبَصِّرُنا بأَنَّ تسمية الله ﷻ لآدم بهذا الاسم لِيُعَبِّرَ عن طبيعة ذُرِّيَّتِه المختلفة، فينبغي التعامل بواقعية معهم، لا بمثالية قد تعمي وتصمُّ.

(١) الترمذي (٣٣٦٨)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ»، والحاكم (٢١٤)، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩)، والوادعي في الجامع الصحيح (١٤٠٨).

هذا هو الموضع الأول في القرآن الذي يُبَصِّرُنا بأنَّ الله ﷻ سَمَّى أبا البشر "آدم" عليه السلام.

و"آدم": اسمٌ عَرَبِيٌّ مُشْتَقٌّ من أَدَمَة الأرض، أي: وَجْهِها الظاهر، وَمَنْعُه من الصَّرْف لأنه على وزن الفعل كما تقول: آدمَ الملكُ الأرضَ أي: بَلَغَ أَدَمَتَها، وسبب التسمية بَيَّنَها وأخبر عنها النبي ﷺ فقال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ رَبُّ الْعِزَّةِ مَلَكَ الْمَوْتِ، فَأَخَذَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ مِنْ عَذْبِهَا وَمَالِحِهَا، فَخَلَقَ مِنْهُ آدَمَ، وَمِنْ ثَمَّ سُمِّيَ آدَمَ؛ لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ»(٢).

وكذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: «إن آدم عليه السلام خُلق من أديم الأرض، فيه الطيِّب والصالح والرديء، فكل ذلك أنت راءٍ في ولده، الصالح والرديء»(٣)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أنَّ ملك الموت لما بُعث ليأخذ من الأرض تربةَ آدم، أخذ من وجه الأرض وخلط، فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاءَ وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، ولذلك سُمِّي آدم عليه السلام؛ لأنه أخذ من أديم الأرض(٤).

وقد تَنَبَّه الحذَّاق من محققي العلماء ورُوَّاد الإصلاح وحُداة النصح إلى هذا التفاوت في الجبلات البشريَّة، أو ما يطلق عليه المعاصرون (الفروق الفردية)، واستحضروا هذا المعنى

---

(١) الترمذي (٢٩٥٥)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٧٥٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٨٠)، وقال شاكر: هذا إسناد صحيح. ورواه الطبري في التاريخ أيضًا (١/ ٤٦)، بهذا الإسناد، بزيادة في آخره. ولكن فيه: "بعث رب العزة إبليس" بدل"ملك الموت". وهذا هو الصواب الموافق لسائر الروايات، فلعل ما هنا تحريف قديم من الناسخين.

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٨٠).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٤٨١).

في تعليمهم وإرشادهم للأقوام، ومن ذلك ما قاله بعضهم للمصلح الداعي: «**ويقابل كلُّ قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم** على أكمل سنن، ويخصُّ كلًّا من أزمان السّنة بما يوافق ذلك الزَّمن؛ والوصايا كثيرة وإنّما تهذيب العلم يغني عنها، وتأديب الشَّريعة يكفي مع القدر اليسير منها»[1]، فيلزم الداعية أن يَحُثَّ المدعوين على جميع الطاعات تفصيلًا وتوضيحًا وبيانًا، ويحذِّرهم من جميع المعاصي تفصيلًا وتبيينًا دقيقًا، مع الالتزام بالأدلة من الكتاب والسنة، ومع التنويع، **وإعطاء كل قوم ما يناسبهم من الأمر والنهي**[2].

نعود للآية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، فبَصَّرْتنا الآية أن الله ﷻ عَلَّمَ آدم الأسماء كلها، فما المعنى الكلي الذي نبصره في هذه الكلمات؟

الجواب: هنا تأتي:

بصيرة٢: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ تُبَصِّرُنا بأن أعظم المزايا الإنسانيَّة تعلُّم الأسماء كلها، وبيَّن النبيُّ ﷺ أن المؤمنين يقولون لآدم عليه السلام يوم القيامة: «وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»(البخاري: ٤٤٧٦)**، ومعرفة الأسماء بداية معرفة خصائص المسميات.**

ولعلك تسأل: ما معنى ﴿عَرَضَهُمْ﴾؟

والجواب – وفقك الله –:

---

(١) صبح الأعشى (١٢/ ٧٦).

(٢) فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، سعيد بن وهف القحطاني (١/ ٣٥٢).

عَرَضَ أصحابَ الأسماء أي: المُسَمَّيات، كما قال ثعلب رحمه الله: «عرضهم بالميم لا تكون إلا للأشخاص، فإذا قال عرضهن وعرضها فهو لغير الأشخاص ولا تكون عرضهن إلا للأسماء، وتكون عرضها للأسماء والأشخاص»(١).

وقال السيوطي رحمه الله: «المراد بالأسماء أصحاب الأسماء، وهي المُسَمَّيات، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؟»(٢)، ولعله يعني: علمه أسماء الأشياء، ولا يمكن ذلك إلا بأن يعرف الأشياء نفسها.

ويُفَصِّلُ ابن عباس رضي الله عنهما أمثلةً لِمَا تَعَلَّمَهُ آدم عليه السلام فيقول: علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ ودابة، وأرض وَسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها(٣).. وعن الحسن وقتادة قالا: علَّمه اسم كلِّ شيء: هذه الخيلُ، وهذه البغالُ، وما أشبه ذلك، وجعل يُسمِّي كلَّ شيء باسمه، وعُرِضَتْ عليه أُمَّةً أُمَّةً(٤).

وبالتأمل في هذه الآثار نجد أن المُسَمَّيات المُمَثَّل بها مما عُلِّمَها آدمُ عليه السلام كلها من قبيل ما سيوجد بعد في الحياة الدنيوية الأرضية وسيتعامل معها آدم وذريته، وكل هذا يأتي في سياق الإعداد لحياة أرضية ممتدة.

وربما تساءلت عن أهمية معرفة أسماء المواد والمخلوقات بالنسبة للمخلوق البشري الأول.

أجيبك – أيدك الله –:

---

(١) مجالس ثعلب (طبعة المعارف) (ص: ٢٦٥).

(٢) الحبائك في أخبار الملائك (ص: ٢٣٨).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٨٢).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٤٨٧).

ألا ترى الأمر واضحًا؟ إذ تكمن أهمية هذه المعرفة في أنها تعني وجود الأساس المعرفي للمعارف المتراكمة، فأنت لا يمكن أن تعرف خصائص الشيء دون أن تعرفه هو، وأن تعرف اسمه، فإذا عرفت اسم الشيء شكل ذلك البداية لمعرفة المُسَمَّى وحقيقته، وهكذا تستطيع فَهْمَ كلِّ ما حولك عندما تعرف أسماءها، وخصائصها، ومميزاتها.

هذا يعني أن يتوافر عند الإنسان كل (التصورات) اللازمة للتعامل مع كلِّ ما حوله من أسماء الأشياء في الحياة، وحينها يستطيع أن ينشئ الأحكام المتعلقة بها، وهي التي يسميها علماء المنطق (التصديقات)، وأدرك ابن حزمٍ هذا فرأى أن «الله تعالى رتَّب الأسماء على المُسَمَّيات، وجعل ذلك سببًا للتفاهم، ولولا ذلك ما كان تفاهمٌ أبدًا، ولا فهمنا عنه تعالى شريعة»[1].

ونتساءل هنا:

معرفة أسماء كل شيء تعني بداية معرفة سبب التسمية، وذلك يقتضي معرفة خصائصها.. فعلى ماذا يدل هذا؟

والجواب:

يدل على وجود الأساس المعرفي لتكوين المعارف المتراكمة، ونقل الرازي هذا الرأي، فقال: «عَلَّمَهُ صِفَاتِ الْأَشْيَاءِ وَنُعُوتَهَا وَخَوَاصَّهَا وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الِاسْمَ اشْتِقَاقُهُ إِمَّا مِنَ السِّمَةِ أَوْ مِنَ السُّمُوِّ، فَإِنْ كَانَ مِنَ السِّمَةِ كَانَ الِاسْمُ هُوَ الْعَلَامَةَ، وَصِفَاتُ الْأَشْيَاءِ وَنُعُوتُهَا وَخَوَاصُّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَاهِيَّاتِهَا، فصح أن يكون المراد من الأسماء: الصِّفَاتِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ السُّمُوِّ فَكَذَلِكَ

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٤/ ٣٤).

لِأَنَّ دَلِيلَ الشَّيْءِ كَالْمُرْتَفِعِ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالدَّلِيلِ حَاصِلٌ قَبْلَ الْعِلْمِ بِالْمَدْلُولِ، فَكَانَ الدَّلِيلُ أَسْمَى فِي الْحَقِيقَةِ»[1].

وهنا ربما تقول:

هذا تكريم كبير للإنسان، فهل نجد في التوراة الحالية الأمر نفسه، فيكون القرآن مصدقًا لها؟

والجواب:

انظر -أيدك الله- في هذه المزية الكبيرة التي جعلها الله لآدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ﴾ الله ﴿آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وقَارِن مع ما ورد في التوراة التي تعرضت لتغيير النساخ؛ إذ تجد في سفر التكوين:

(٢: ١٩): وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها.

(٢: ٢٠): فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأَمَّا لنفسه فلم يجد مُعِينًا نَظِيْرَهُ.

يقرب هذا النص التوراتي من الجمال القرآني، ولكنك تجد البيان القرآني أعلى وأحلى وأسمى؛ لأنه محفوظٌ بلفظه ومعناه، أما التوراة فقد يتطرق لها النقص والزيادة والتحريف، ففي القرآن نجد النص صريحًا أن الله جل جلاله يُعَلِّمُ آدم عليه السلام الأسماء كُلَّها ليظهر بذلك فضله أمام الملائكة عليهم السلام، والفرق واضحٌ من جهتين:

١) النص على جهة مصدر التعليم، فمصدر التعليم في القرآن الله خالق الكون -جل في علاه-.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٩٧).

٢) وجهة الشمول المعرفي في النص القرآني لآدم عليه الصلاة والسلام الذي لم يقتصر على الحيوانات والطيور.

مهلًا! فهذا التكريم يتضمن تكريمًا آخر هو العقل.. أفحسبت أن الله ﷻ وهب آدم عليه السلام العلم دون عقل؟! فالله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨] أي: لعلكم تعقلون فتشكرون.

وتَأَمُّلُكَ للقرآن وَفْقَ هذه الجهة خَيرٌ من استحضار مُقَرَّرَاتٍ سابقة ومحاكمة القرآن إليها، مثل النقاش غير المفيد الذي أثاره بعض المفسرين حول إرسال آدم عليه السلام إلى الملائكة عليهم السلام أو إلى البشر.

ستتساءل بعد ذلك: بعد أن زوَّد الله ﷻ آدم عليه السلام بأساس المعرفة العلمية، وهو معرفة أسماء كل شيء، ماذا حدث؟

والجواب- وفقك الله-:

لقد أوقف الله ﷻ الملائكة عليهم السلام على قدر علمهم، وعلى تفوق هذا المخلوق الجديد عليهم علمًا ومعرفة، وكان السبيل إلى ذلك التجربة الحية، ورؤية الواقع كما هو.

بصيرة ٣: إيصال العلم بالتجربة ورؤية الواقع وعدم الاكتفاء بالتلقين من أهم مسالك طلب المعرفة وتحصيلها، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾، **فَعَرَضَ الله ﷻ هذه المُسَمَّيات بأشكالها وشخوصها، وفي ذلك إشارة إلى استعمال الأساليب المختلفة لإيصال العلم، وبيان الحكمة.**

والمذهب التجريبي (Empiricism) أحد المسالك البحثية العلمية التي قامت عليه كثير من العلوم، وثبتت بها كثير من الحقائق، وإن كان المغالون من أنصار "المذهب التجريبي" قد بالغوا في تقدير أمره وتجاوزوا به محله ومجاله، فزعموا أن تحصيل الإنسان للحقائق الكونيَّة ومعرفتها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها(١).

وواضحٌ أنَّ الملائكة عليهم السلام لا يعلمون الأسماء كلَّها، فمثلًا بعضهم مُكَلَّفٌ بالجبال مثل ملك الجبال، فيعلم ما يتعلق بها، وبعضهم مُوَكَّلٌ بالموت، وبعضهم بالقَطْرِ، والملائكة عليهم السلام تعرف أشياء لكن على سبيل التخصص، لا المعرفة العمومية، كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥]، فليس عندهم عِلْمٌ بالأسماء كُلِّها، فقد خَصَّ الله ﷻ بهذا العلم الواسع المتعدد المجالات آدم عليه السلام، وهذا الأمر ليس بالبساطة التي يتصورها البعض؛ إذ إنه يوحي بالقدرة العقلية لإدراك ماهية الأشياء ثم استيعاب أسمائها، وحدود معانيها، وهو ما ثبت أن آدم عليه السلام قد تَفَوَّق به وفيه على الملائكة الكرام عليهم السلام(٢).

وقد تتعجب فتتساءل: وكيف تم العرض لأشكال كل تلك المخلوقات في مكانٍ واحدٍ؟

أجيبك- أيدك الله-:

لعلك ترى أن مسألة العرض صارت في هذا العصر قريبة التصور كما في الشاشة التلفزيونية التي تعرض أشياء الدنيا على هيئةٍ يَعْيا معها العَدُّ، ويَكِلُّ دونَها الحَصْرُ، وهذا تقريبٌ وتبسيطٌ لقصة العرض، مع أننا لا نعلم تفاصيلها وكيفيتها، فالله ﷻ عرض المسميات على الملائكة

---

(١) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، مكتبة وهبه، الطبعة العاشرة، (ص: ٢٣٣).

(٢) ينظر: مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، تحقيق: (إشراف ندوة مالك بن نبي)، دار الفكر- دمشق سورية، الطبعة: ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م ط٤: ١٩٨٤م، (ص: ٢٢).

عليه السلام، فعن ابن عباس رضي الله عنه وعن مُرَّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾: ثم عرض الخلقَ على الملائكة عليهم السلام.

وقوله تعالى ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾: النبأ خَبَرٌ خَاصٌّ، فهو الخبر العظيم الذي يحوي فائدة خاصة أو أمرًا جللًا، وهنا أمرهم الله جل جلاله أن ينبئوه عن أسماء ما يعرض عليهم، والأمر هنا أمر تعجيز مثل قوله تعالى ذكره: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩].

هنا نتساءل في قوله عز وجل: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

كلمة ﴿إن﴾ أداة شرط تجزم، وتطلب شرطًا وجوابًا، فأين جواب الشرط؟

الجواب: حاول المفسرون رحمهم الله هنا أن يبحثوا عن جواب ﴿إِنْ﴾، وكثيرٌ منهم جعلوا التقدير: إن كنتم صادقين أنكم يمكن أن تكونوا خلفاء بدلًا من آدم عليه السلام فأنبئوني بأسماء هؤلاء.

هكذا قال بعض علمائنا، ولكن لك أن تتساءل: عندما تقرأ الآيات لا تجد أن الملائكة عليهم السلام عرضت نفسها بديلًا، فأين ما يدل على أنهم قدموا أنفسهم لذلك بعد إذ اتضح المراد من سؤالهم السابق؟

فهم سألوا سؤال استكشاف، وليس طلبًا للاستبدال، ولا يمكن أن تعود إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ لتقول: إنهم يمُنُّونَ على ربِّهم؛ إذ لم يصفوا أكثر من الواقع الذي به يعتذرون، لِيَتَذَلَّلُوا بين يَدَيْ ربِّهم، ويخبروا أن سؤالهم كان لمعرفة الحكمة لا للاعتراض، والإخبار ليس لربهم، فهو أعلم بنا وبهم من أنفسنا، ولكن الإخبار لزيادة التَّذَلُّلِ، وإظهار التَّعَبُّد.

ويرى الطبري رحمه الله أن الله -جل ثناؤه-، وإن كان أخبرهم عما يكون من بعض ذرِّية خليفته في الأرض من الفساد وسفك الدماء، فقد كانَ طوَى عنهم الخبرَ عما يكون من كثيرٍ منهم من طاعتِهم ربَّهم، وإصلاحهم في أرْضه، وحقن الدماء، ورفعِهِ منزلتَهم، وكرامتِهم عليه، فلم يخبرهم بذلك... فقال الله لهم -إذ علَّم آدم الأسماء كلها-: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنكم تعلمون أنّ جميع بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، على ما ظننتم في أنفسكم- إنكارًا منه جلَّ ثناؤه لقيلهم ما قالوا من ذلك على الجميع والعموم، وهو من صفة خاصٍّ ذرّية الخليفة منهم[1].

ألا يمكننا أن نجعل تساؤلهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ دَالًّا على أنهم يرون أن هذا المخلوق ليس بأهلٍ لخلافة الأرض، بسبب وجود بعضٍ منه سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء؟

لقد كان الملائكة عليهم السلام صادقين في أن بعضًا من ذُرِّيَّةِ هذا المخلوق سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وكانوا صادقين في أنهم يسبحون بحمد الله عز وجل ويقدسون له مخلصين، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد من خلال ذلك الحوار أن يذكرهم بأمرٍ غائبٍ عنهم اقتضته حكمة خلق هذا المخلوق، وتوضح هذه الحكمة الجانب الإيجابي المشرق الذي لم يره الملائكة عليهم السلام في هذا المخلوق، وفي بعض ذريته أيضًا، وكذلك ربما لم يظهر لبعض ذرية آدم عليه السلام .

والذي يظهر أن هذه الجملة استفزازية لزيادة الاهتمام على طريقة بعضهم؛ إذا أرادوا من السامع زيادة الاهتمام بما سيذكرون أو يعرضونه.. فالأمر: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ والشرط: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يدُلَّان على التشويق والتعليم والإثارة والتذكير بالجهل في مسائل كثيرة، فليكن

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٦٢).

عدم العلم بالحكمة في استخلاف آدم منها.. وكأنه يقول لهم: كما لم تعرفوا هذه الأسماء ولم تعرفوا مقدار الإمكانات التي خلقتها في هذا المخلوق، فكذلك تذكروا أنكم لا تعرفون حكمتي في خلقه.

ورجَّح الطبري رحمه الله ما مال إليه الجمهور، ويكون التقدير: إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عَصَاني ذريته، وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني، واتَّبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس؛ فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وعَلِمه غيركم بتعليمي إيَّاه؛ فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بَعدُ، وبما هو مستتر من الأمور -التي هي موجودة - عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي.. نظيرُ قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وذلك حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥][1].

ومال الزمخشري رحمه الله إلى قريب من ذلك، فقال: «وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت.. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: يعنى في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء؛ إرادةً للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٩٠)، بتصرف.

أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾»[1].

وكما ترى فإننا نشترك في بعض الأمور، ولكنني أخالف التخمين في أن الملائكة عليهم السلام أشارت إلى أَحَقِّيَتِهم بالخلافة، وكذلك أخالف في أن الله عز وجل يزجرهم عن سؤاله، فإن السؤال للفهم ليس محل رَدٍّ، بل هو مفتاح المعرفة.

وسنبقى نتساءل ونحن نتدبر الآية:

ما وجه الارتباط بين معرفة الملائكة عليهم السلام بالأسماء وبين صدقهم حتى يقول الله عز وجل لهم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: ٣١]؟

الجواب- وفقك الله-:

يمكن أن نجعل الأمر ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ والشرط ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تذكيرًا للملائكة عليهم السلام بأنكم لا تستطيعون الإحاطة بالحكمة الإلهية من كل فعلٍ لله عز وجل، كما أنكم لا تستطيعون معرفة الأسماء كلها، فلم يبق لكم إلا زيادة التسليم، أي: إن كنتم صادقين في أنه لا بُدَّ أن تدركوا الحكمة في كُلِّ ما يفعله الله عز وجل فأنبئوني بأسماء هؤلاء، ثُمَّ لمَّا اعترفوا بعجزهم، وقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ ازدادوا إيمانًا وتسليمًا، ثُمَّ ازدادوا أكثر عندما رأوا هذا المخلوق الذي علموا أنَّ بعض ذُرِّيَّتِه ستفسد في الأرض.. رأوه يعلم أسماء الأشياء التي جهلوها ازدادوا إيمانًا وتسليمًا.

هذا الذي ظهر لي في الارتباط بين الأمر ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ والشرط ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) الكشاف (١/ ١٢٦).

أي: يمكن حمل قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ على ما قاسوا عليه من الأحداث التي جرت في الأرض وإفساد الجِنِّ فيها من قبل، أو على ما قالوه من الرَّجْم بالغيب بشأن مستقبل ذُرِّيَّةِ آدم في الأرض وإفساد بعضهم وسفكهم للدِّماء، فكأنَّ الله ﷻ يقول لهم: إن كنتم صادقين في حكمكم على ذرية الخليفة بما قلتموه، أو صادقين فيما تنبأتم به، فأنبئوني بأسماء هؤلاء.

ومِمَّنْ بحث عن الحكمة في الارتباط من أصحاب الإشراق المَعْرِفِيِّ ابنُ عاشور؛ إذ رأى «أَنَّ الْعِلْمَ بِالْأَسْمَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ الصَّالِحَةِ لِاسْتِفَادَةِ الْمَعَارِفِ وَإِفَادَتِهَا، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَخَصَائِصِهَا، أَوْ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الذَّوَاتِ وَالْمَعَانِي، وَكُلُّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْعَالِمِيَّةِ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْقُوَّةِ، وَصَاحِبُ هَذَا الْوَصْفِ هُوَ الْجَدِيرُ بِالِاسْتِخْلَافِ فِي الْعَالَمِ؛ لِأَنَّ وَظِيفَةَ هَذَا الِاسْتِخْلَافِ تَدْبِيرُ وَإِرْشَادُ وَهَدْيُ وَوَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا دُونَ احْتِيَاجٍ إِلَى التَّوْقِيفِ فِي غَالِبِ التَّصَرُّفَاتِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ أَوْ فُرُوعِهَا.

وَإِذَا انْتَفَى الْإِنْبَاءُ انْتَفَى كَوْنُهُمْ صَادِقِينَ فِي إِنْكَارِهِمْ خِلَافَةَ آدَمَ، فَإِنْ كَانَ مَحَلُّ الصِّدْقِ هُوَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَجْدَرُ فَقَدْ ثَبَتَ عَدَمُهَا، وَإِنْ كَانَ مَحَلُّ التَّصْدِيقِ هُوَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْبَشَرَ غَيْرُ صَالِحٍ لِلِاسْتِخْلَافِ فَانْتِفَاءُ الْإِنْبَاءِ لَا يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ دَعْوَاهُمْ وَلَكِنَّهُ تَمْهِيدٌ لَهُ لِأَنَّ بَعْدَهُ إِنْبَاءَ آدَمَ بِالْأَسْمَاءِ لِأَنَّ الْمَقَامَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُمْ لَمَّا أُمِرُوا أَمْرَ تَعْجِيزٍ وَجُعِلَ الْمَأْمُورُ بِهِ دَلَالَةً عَلَى الصِّدْقِ كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ إنباء آخر مترقبا مِنَ الَّذِي طَعَنُوا فِي جَدَارَتِهِ»[1].

وبكل حال فإنه لا يجوز اعتقاد أو ظَنّ أن الملائكة عليهم السلام تَكْذِبُ لِما قد يُفْهَم من قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ إذ الملائكة عليهم السلام خلق معصومون لا يعصون الله ﷻ ما أمرهم ويفعلون ما

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤١٣).

يؤمرون، وإنما دفع الملائكة عليهم السلام إلى أن يقولوا ما قالوا أو يبطنوا ما أبطنوا من توقُّعَاتٍ بشأن ذُرِّيَّةِ آدم عليه السلام محض القياس على تاريخ ساكني الأرض السابقين من الجن، وحُبُّهُم الشديد لله تعالى، وكراهيتهم لأدنى إفسادٍ في كَوْنِه.

العَجْزُ عَنْ دَرَكِ الإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ:

بعد أَنْ أمر الله عز وجل الملائكة عليهم السلام أَنْ يخبروا عن أسماء الأشياء، وأَنْ يظهروا علمهم بها، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾، وهذا الأمر للتعجيز، ويراد به التعليم.. أي: تعليم الملائكة عليهم السلام بلمحةٍ تُذَكِّرُهم بأَنَّ علم الله سبحانه وتعالى يَكْتَنِزُ حِكْمةً لا يعرفونها في جَعْلِ آدم عليه السلام خليفةً في الأرض، هنا كان جواب الملائكة عليهم السلام مُمَيزًا، حيث قال الله عز وجل عن جوابهم: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البقرة: ٣٢].

ولعلك تسأل: فماذا يعني هذا الجواب؟

أجيبك- أيدك الله-:

هنا نصل إلى بصيرةٍ قرآنيةٍ تُمَثِّلُ مفتاحًا معرفيًا وسلوكيًا فريدًا في واقع الإصلاح البشري:

> **بصيرة ٤: جواب الملائكة عليهم السلام ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] من أعظم مفاتيح صلاح القلوب، وهو بداية تملك المعرفة، فطلب العلم يبدأ بالاعتراف بعدم العلم، والثناء على الله عز وجل الذي بيده كل العلوم والمعارف.**

إنهم الملائكة عليهم السلام.. أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين للعالم أَنَّ سؤالهم السابق كان سؤال استكشاف لا اعتراض، فحكى عنهم أنهم أجابوا بالجواب الرائع المعبر عن الأدب العظيم للملائكة عليهم السلام، حيث ردوا العلم إلى الله عز وجل.. لم يدَّعوا أو يتكبروا، بل ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: نُقَدِّسُكَ

ونُعَظِّمُكَ وَنُنَزِّهُكَ أَنْ يَكُونَ عِلْمُكَ قَاصِرًا، ونُقَدِّسُكَ ونُعَظِّمُكَ وَنُنَزِّهُكَ في أن تكون حكمتك غير موجودة عندما أخبرتنا أنك ستجعل في الأرض خليفة..

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾:

نُعَظِّمُكَ بالعلم والحكمة في خلقك لهذا المخلوق الجديد، فلم تَخْلُق هذا المخلوق عَبَثًا، بل أنت أعلم بحكمتك في خلقه ليكون خليفة.

﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾:

نعترف لك أننا لا نعلم شيئًا إلا الذي علمتنا إياه، فلا نعلم من أسماء هذه الأشياء، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنَا لَا نُحِيطُ بِعِلْمِك، وَلَا نَقْدِرُ عَلَى الْإِنْبَاءِ بِهِ.

فكان جواب الملائكة عليهم السلام عظيمًا يدل على صدق التعبد بين يدي الله، ويتضمن الاعتراف بعجزهم ونقصهم، والاستمداد للعلم من ربهم، وقد أثار هذا الجواب محمد رشيد رضا فقال: «وَكَلِمَةُ (سبحانك) تَهْدِي إِلَى هَذَا، فَكَأَنَّهَا جُمْلَةٌ وَحْدَهَا، وَهَذِهِ هِيَ الْبَلَاغَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا، مُثْمِرَةٌ حَدَائِقُهَا، مُتَجَلِّيَةٌ حَقَائِقُهَا» [1]، وقبله قال الحَرَالِّي: «وفي هذا المعنى إظهارٌ لفضلِهم وانقيادِهم وإذعانِهم، توطئةً لما يتصل به من إباء إبليس»[2].

(١) تفسير المنار (١/ ٢١٩).

(٢) نقله عنه البقاعي في: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٤٦).

ونأخذ من جوابهم الرائع البحث عن **تزكية النفوس وصفاء القلوب، وفتح المغلقات، ومعرفة الجديد**، فكلمتهم تقتضي أَنْ يُرَدِّدَ المُوَفَّقُ جواب الملائكة عليهم السلام إذا سُئِلَ عن شيءٍ لا يعلمه، فما أكثر ما يحاول الإنسان أن يُظهرَ علمه في كُلِّ شَيء! أن ينفخ قِرْبَتَهُ في كُلِّ مكان! رُبَّما لقصد الرئاسة أو التَّزَعُّم، والعجيب أَنَّ قول الملائكة عليهم السلام هذا ورد مثله عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ؟ قَالَ: «لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيلَ عليه السلام»، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ عليه السلام فَقَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ مِيكَائِيلَ عليه السلام فَجَاءَ فَقَالَ: «خَيْرُ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ، وَشَرُّهَا الأَسْوَاقُ»[1]، أي لكثرة الغفلة فيها وانتشار الكذب والغش.

وذكر الشعبيُّ رحمه الله عن عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: «مَا أَبْرَدَهَا عَلَى الْكَبِدِ! مَا أَبْرَدَهَا عَلَى الْكَبِدِ!» فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ لِلشَّيْءِ لَا تَعْلَمُهُ: اللهُ أَعْلَمُ»[1].

وأخذ علماء التربية في العالم بهذا المبدأ القرآني عندما سمعوه يتلى، فهاهو الشعبي رحمه الله يقال له: «أما تستحيي من كثرة ما تسأل، فتقول: لا أدري؟! قال: أكثر ملائكة الله المُقَرَّبين لم يستحيوا حَيْثُ سئلوا عما لا يعلمون أن ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[2].

يُعَلِّمُنا جواب الملائكة عليهم السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ﴾ أَنَّ على المرء أن يتطامن إن سُئِل عن عِلْم ما لا يَعْلَم، وألا يتكلف لذلك الأقاويل، وليكن لسان حاله:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٣٦).

(٢) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٢).

إذا ما انتهى عِلْمِي تَنَاهَيْتُ عندَه أطَالَ فأَمْلَى أو تَنَاهَى فَقَصَّرَا[١]

واستنبط ابن عاشور رحمه الله من هذا الجواب أَنَّ عُلُومَهُمْ مَحْدُودَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلزِّيَادَةِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا أَلْهَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَمَا يَأْمُرُهُمْ، فَلِلْمَلَائِكَةِ عليهم السلام عِلْمُ قَبُولِ الْمَعَانِي لَا عِلْمُ اسْتِنْبَاطِهَا[٢].

الانتقال:

ولكنك لا بد أن تتساءل: لماذا ختم الملائكة عليهم السلام تعظيمهم لله عز وجل بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾؟

وإليك الجواب -وفقك الله - في البصيرة الآتية:

بصيرة ٥: بالعلم الكامل والحكمة المطلقة يدار الكون ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾، فهما أهم صفتين للتدبير الحق، ولا يتصف بهما أحدٌ على سبيل الكمال إلا الله جل جلاله.

فالملائكة عليهم السلام عندما سألوا عن الحكمة مِنْ جَعْلِ خَليفة أرادوا المعرفة لا الإنكار، ولذا أكدوا هنا بأنَّ الله ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فنُسَلِّمُ له في تشريعاته وأوامره.

تَأَمَّلْ ذلك في الجواب الذهبي للملائكة عليهم السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ .. فَسَبَّحَ الملائكةُ عليهم السلام رَبَّهُم عز وجل تنزيهًا من أَيِّ نَقْصٍ، وتعظيمًا لِلذَّاتِ العَلِيَّةِ، أمَّا التنزيه فلأنَّ سؤاله لهم لا لحاجته لأنْ يعلم شيئًا منها، فهو يعلم السِرَّ وأخفى، وأمَّا التعظيم، فلِعِلْمِهِم أَنَّه أحاط بهم علمًا، وأَنَّهُم لا يعلمون إلا ما عَلَّمَهُمْ، ولذا وصف الملائكة

(١) البيت لزيادة بن زيد العذري، وهو من شواهد سيبويه في (الكتاب) (٣/ ١٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤١٤).

عليهم السلام ربَّهُم جل جلاله بِجَمْعِهِ بين العلم الكامل والحكمة التامَّة، فقالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾، وذلك لِيُقَدِّسُوهُ حَقَّ تَقْدِيسِهِ، ويُبَيِّنُوا أَنَّه أَعْلَمُ بِخَلْقِ هذا المخلوق: ابتداءً وانتهاءً، وأسبابًا.

وهذا العلم موافقٌ للحكمة التامَّة، فالعليم فعيلٌ صيغة مبالغة من عالمٍ، وذلك يعني الإحاطة بكل معلوم من غير تعليم؛ إذ كان مَنْ سوَاك لا يَعْلَمُ شيئًا إلا بتعليم غَيْرِه إِيَّاهُ[1].

و(حكيم): صيغة مبالغة من المحكم، أي: لك الحكم والإحكام الذي يتضمن الحكمة الخالصة، فتخلق الشيء وتصنعه على أتقن وَجْهٍ لما يستحق له أن يخلق ويصنع، حتى يمنع الفساد من التطرق إليه؛ ويوضح الغزالي رحمه الله ذلك ببيانٍ مشرقٍ فيقول: «الحكيم: ذُو الْحِكْمَة، وَالْحكمَة عبارَة عَن معرفَة أفضل الْأَشْيَاء بِأَفْضَل الْعُلُوم»[2]، والحكمة تعني منع الفساد والخلل؛ إذ أصل الحكم المنع، كما قال جَرِيرٌ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

وهاتانِ الصِّفَتَانِ هُمَا اللتانِ تُدِيرَانِ التَّدْبِيرَ الكَوْنِيَّ، فإذا ما حاول الإنسانُ بِقِلَّةِ عِلْمِهِ، وضَعْفِ حِكْمَتِه أَنْ يَفْرِضَ قَوانينَ تُضَادُّ القوانين الإلَهِيَّة، حَدَثَ ما ذَكَرَهُ الملائكةُ عليهم السلام: الإفسادُ في الأرض، وسفكُ الدماء.

فلماذا عَنْ تَدْبيرِ العَلِيمِ يَهْرُبُ المُحْتاجُونَ؟ ولماذا عَنْ حِكْمَةِ الحَكِيمِ يَفِرُّ الجَاهِلُونَ؟

الانتقال:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٩٦).

(٢) المقصد الأسنى (ص: ١٢٠).

هنا ينقلنا التصوير القرآني إلى الطرف الآخر الذي كان حاضرًا مع الملائكة عليهم السلام، فيقول الله عز وجل: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾، فما البصيرة التي تظهر من هذا الأمر الإلهي لآدم عليه السلام؟

بصيرة ٦: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾: العلم المؤسَّس على الوحي الإلهي

سرُّ تميُّزِ الجنس البشري، فاستمد آدم عليه السلام علمه من الوحي الإلهي، وبنى على تصوُّر أسماء كلِّ شيء من العلم المتراكم المبني على النظر والتجربة.

ألم تُظهر هذه البصيرة القرآنية تميز آدم عليه السلام في الملأ الأعلى؟

لقد أنبأ آدم عليه السلام الملائكة عليهم السلام، ولكن من أنبأه هو؟ ممن استمد علمه؟

لقد علَّمه الذي يعلم السر في السَّمَوَات والأرض، فأبرز الله سبحانه وتعالى مزية آدم العلمية فقال: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾، ويُقَرِّرُ البقاعي ذلك، فيؤكِّد أنَّ الله جل جلاله أمره أن ينبئهم ليزدادوا بصيرةً في أنَّ العالِمَ مَن عَلَّمْتُه، والسعيدَ من أسعدتُه، في أيِّ صُورَةٍ رَكَّبْتُه[1].

وهنا أنبأ آدم عليه السلام الملائكة عليهم السلام بأسماء كلِّ شيء، وظهر تَمَيُّزُ آدم عليه السلام في الباب المعرفي..

هل يستوي هذا ومَنْ يَذْكُر أَنَّ سَبَبَ نَكْبَةِ آدم عليه السلام وذُرِّيَّتِه مِن بعده أَنَّه أكل من شجرة مَعْرِفَةِ الخَيْرِ والشَّرِّ؟

هل تعلم من قال ذلك؟!

إنَّهُم مُحَرِّفُو التوراة، ففي سفر التكوين: ٢:١٧: «وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها حتمًا تموت».. بينما يبين الله عز وجل في القرآن أنَّ المعرفة هي سبب

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٤٩).

رفعة آدم عليه السلام.. وأسوأ ما في هذه الرِّواية المنسوبة إلى التوراة أنَّها زعمت أنَّ الله جل جلاله بَيَّنَ أنَّ آدم عليه السلام يموت إن أكل من هذه الشجرة، ثم إنه لم يمت بعد ذلك، يا للأكاذيب!![1].

الانتقال:

أنبأ آدم عليه السلام الملائكة عليهم السلام بأسمائهم، وأنفذ الأمر الإلهي، وحينها قال الله جل جلاله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣]، **فما المشهد الذي تقدمه هذه الآية؟**

الجواب – وفقك الله–:

تُقَدِّمُ هذه الآية مَشْهدًا لِحِوَارٍ رَائِقٍ شَائِقٍ بين الله العزيز الكريم، والملائكة الكرام عليهم السلام، ليتقرر أنَّ الحوار مسلكية تعليمية رائدة:

> **بصيرة ٧: التعليم يتحقق بالحوار:** ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣] **تُبَصِّرُنا بأن الأصل في التعليم الحوار، والحلم، والتَّلطُّف، وإعادة المعلوم نظريًّا لتثبيته واقعيًّا.**

ظهر للملائكة عليهم السلام سِرُّ التَّمَيُّزِ الآدَمِيِّ.. لقد أبان الله عز وجل لملائكته شيئًا يسيرًا مما يعلمه من علم الغيب في حكمة خلق هذا المخلوق.. لا تتعجب من هذا؛ لأنه واضح، وتعجب من اللطف الإلهي في تعليم الملائكة عليهم السلام لما تلهفوا على معرفته في سرِّ إيجاد هذا الوافد البشري.

---

(١) حتى نعرض وجهة نظرهم، فقد زعموا أنه يموت موتًا معنويًا، ولكن المجاز هنا ينفيه ما ذكر في سفر التكوين من نفي الحية لحواء عليها السلام أنهما سيموتان، فالمراد بالموت حقيقته فيما يظهر.

ولقد كان الحوار التصويريُّ للقضايا وسيلةً نبويةً تعليميةً متكررةً يستعملها النبي ﷺ مع المسلمين والكافرين، فمثلًا:

لما قال النبي ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ-أي عندما يأتي الرجل زوجته في اللقاء الخاص تكتب له صدقة-، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(١).

ولعلك هنا تطرح تساؤلًا تثيره المعرفة المنبثقة عن الآية:

هل الملائكة عليهم السلام يجهلون أنه ﷻ يعلم غيب السَّمَوَات والأرض ويعلم ما يبدون وما كانوا يكتمون؟

الجواب -وفقك الله-:

الملائكة عليهم السلام لا يجهلون هذا بدليل أنهم ردُّوا العلمَ إليه ﷻ، ولكن الله ﷻ يورد ذلك تذكيرًا وتقريرًا، وإحضارًا للحقائق الإيمانية المعروفة لهم سلفًا، واستدعاءً لتمثلها واقعًا، وما أكثر ما يعرف المرء من حقائق نظرية، لكنها تغيب عنه عند تطبيقها! أو عند وجود دواعيها التطبيقية واقعًا! فالله ﷻ ذَكَّرَهُم بما يعلمونه ليزدادوا إيمانًا ويقينًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وهنا سنسأل: لماذا فَرَّقَ الله ﷻ بَيْنَ الإبداء والكتمان في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فقال عن الأول: ﴿تبدون﴾، وقال عن الثاني: ﴿وما كنتم تكتمون﴾، فأضاف كلمة ﴿كنتم﴾ للكتمان؟

---

(١) مسلم (١٠٠٦).

الجواب- أيدك الله-:

فَرَّقَ الله بين الإبداء والكتمان حيث قال ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾؛ لأن الإبداء يتحقق فور الفعل، أمَّا الكتمان فإنَّه يكون قبل الحوار، ثم يستمرُّ بعد الحوار.

فأضاف الفعل (كان) قبل الكتمان، ولم يضفه قبل الإبداء؛ لأن الكتمان يكون قبل الحوار كما هو واضح، وليؤكِّد الله ﷻ بإثبات فِعْلِ الكينونة على عِلْمِه بالمكتوم فكيف بالظاهر من المعلومات والعلوم؟ كأنه قال: وأنا أعلم بما تبدون فور وجوده، وأعلم بما كنتم تكتمون مهما تقادم عهده.. هذا الذي يظهر لي في الفرق.

وذهب بعض المفسرين إلى وجهٍ آخر، فَقَرَّرَ أنَّ الله ﷻ أراد أَنْ يقول لهم: أنا أعلم ما تبدون من صدقكم، وصدق عبادتكم، وإخلاصكم عندما قلتم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وأعلم ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، أي: ما كَتَمَهُ بعضُكُم مِن الكبر ممن هو حاضر بينكم، والمقصود إبليس.. فالملائكة عليهم السلام لا كِبْرَ فيهم ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، فالذي وقع منه الكتمان لأمرٍ مخالفٍ واحدٌ هو إبليس، فخاطب الله الجميع لأن من أساليب العربية أن يتكلم عن المجموع مع أن المقصود واحد، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤]، وقد قالوا: إن الذي ناداه واحدٌ فقط هو زعميهم، لبيان المسؤولية الجماعية على المجموعة لتنكر الخطأ الفردي الذي ربَّما فشا وتنامى.

وهذا السبب يحتمل أن يكون وراء التعبير بقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ويدخل في تفاصيل السبب الأول.

وهنا يُقَرِّرُ الرَّازِيُّ رحمه الله بعبارةٍ أُصُولِيَّةٍ مَقَاصِدِيَّةٍ جميلةٍ أنَّ مقصد إيجاد البشر يتعلَّق بسبب غلبة الخير الذي يظهر منهم، فيقول: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ وَالْأَسْرَارِ

الْخَفِيَّةِ الَّتِي يُظَنُّ فِي الظَّاهِرِ أَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ فِيهَا، وَلَكِنِّي لِعِلْمِي بِالْأَسْرَارِ الْمُغَيَّبَةِ أَعْلَمُ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي خَلْقِهَا... والْأَقْسَام خَمْسَةٌ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مَحْضًا، أَوْ شَرًّا مَحْضًا، أَوْ مُمْتَزِجًا، وَعَلَى تَقْدِيرِ الِامْتِزَاجِ فإما أن يعتدل الأمران، أَوْ يَكُونَ الْخَيْرُ غَالِبًا، أَوْ يَكُونَ الشَّرُّ غَالِبًا: أَمَّا الْخَيْرُ الْمَحْضُ فَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي إِيجَادَهُ، وَأَمَّا الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْخَيْرُ غَالِبًا فَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي إِيجَادَهُ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ لِأَجْلِ الشَّرِّ الْقَلِيلِ شَرٌّ كَثِيرٌ، فَالْمَلَائِكَةُ عليهم السلام ذَكَرُوا الْفَسَادَ وَالْقَتْلَ، وَهُوَ شَرٌّ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَحْصُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فَأَعْرِفُ أَنَّ خَيْرَهُمْ غَالِبٌ عَلَى هَذِهِ الشُّرُورِ فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِيجَادَهُمْ وَتَكْوِينَهُمْ»[1].

هذا التقسيم الذي ذهب إليه الرَّازِيُّ رحمه الله بيِّنٌ جلِيٌّ في جَمَالِه، وقُوَّةِ بَيَانِه عن التَّصَرُّفات الإلهيَّة، ولكنِّي لا أميل إلى ما ذكره أنَّ الخيرَ الذي يصدر عن البشر غالبٌ على الشَّرِّ الذي يصدر عنهم، فلم يخبرنا الله عز وجل أنَّ حكمته اقتضت خلق البشر لهذا المقصد بل أخبرنا أنَّه يعلم ما لا تعلم الملائكة عليهم السلام في كلِّ شيء، ومن ذلك الحكمة في خلق البشر.

وهنا نتساءل:

ما الذي تثيره هذه الآية ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣] **من البصائر الإيمانية والقلبية؟**

الجواب: تثير هذه الآية جملة من البصائر بحسب الآتي:

(١) تفسير الرازي (٢/ ٤٢٦).

بصيرة ٨: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **تجمع تخويفًا عظيمًا، وإفراحًا كبيرًا، فمن يعلم ما يُبدي العالَمون وما كانوا يكتمون ينبغي أن تخافه البشرية وترجوه؛ لأنه يعلم حركات الضمائر، وما تخفي السرائر.. يعلم معاناة النفوس وآلامها، كما يعلم مكرها الخفي ومخادعاتها.**

فإن وراء هذا العلم المحاسبة في الآخرة كما قال ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

هنا ترى أساتذة مدرسة القلوب يُشَدِّدُون في محاسبة نفوسهم أَشَدَّ المحاسبة، فعن ميمون بن مهران قال: «لا يكون الرّجل تقيّا حتّى يكون لنفسه أشدّ محاسبة من الشّريك لشريكه»[(١)].

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثمَّ زمَّها، ثمَّ خطمها، ثمّ ألزمها كتاب الله ﷻ فكان لها قائدًا».

وعن الحسن رحمه الله: «﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢] قال: لا تلقى المؤمن إلّا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟»[(٢)].

ويلفتنا نِطَاسِيُّ[(٣)] القلوب حجة الإسلام الغزالي رحمه الله إلى أنَّ هذا مهيعٌ سالك لدى القوم فيقول: «عرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ اللّه تعالى لهم بالمرصاد، وأنّهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذّرّ من الخطرات واللّحظات، وتحقّقوا أنّه لا ينجيهم من

---

(١) الزهد، هناد بن السري (٢/ ٥٨٠).

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ٧٩).

(٣) النطاسي هو الطبيب، قيل له ذلك: لدقة نظرِه فِي الطبّ. تهذيب اللغة (١٢/ ٢٣٦).

هذه الأخطار إلّا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النّفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللَّحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، خفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السُّؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيِّئاته»[1].

قصة الحوار بين الله ﷻ وملائكته حول الإنسان الذي سيكون خليفة في الأرض من أعظم الأدلة على أن القرآن العظيم كلام الله، وهو أكبر المعجزات التي تدل على صدق نبوة النبي ﷺ، فكيف ذلك؟

الجواب يظهر في هذه البصيرة:

> **بصيرة ٩: هذه القصة من أعظم الأدلة على المصدرية الإلهية للقرآن العظيم، وهي من أكبر المعجزات التي تدلُّ على صدق نبوة النبي ﷺ؛ إذ إنها تتضمَّن علمًا غيبيًّا ليس بيد البشر اكتشافه، وتتضمَّن معلومات وجدت في الكتب السابقة، فجاء القرآن مصدِّقًا لها، وتتضمَّن تصحيحًا لمعلومات مغلوطة محرفة وردت في الكتب السابقة، فجاء القرآن مُقَوِّمًا لها.**

وكُلُّ ذلك بيانٌ للتحدِّي الوارد في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

فاسمع الطبري رحمه الله يقول هنا: «وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبرَ، والذكرى لمن ادّكر، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شهيد، عمَّا أودع الله جلَّ ثناؤه آيَ هذا

(١) إحياء علوم الدين، (٤/ ٣٩٤).

القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن، وذلك أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظَهْرَانَيْه من يَهود بني إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جلَّ ثناؤه أَطْلعَ عليها من خلقه إلا خاصًّا، ولم يكن مُدرَكًا علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده، ودلّ فيها على أنّ كل مخبر خبرًا عما قد كان -أو عما هو كائن مما لم يكنْ، ولم يأته به خبر، ولم يُوضَع له على صحّته برهان- فمتقوّلٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة، ألا ترى أنّ الله جل ذكره ردّ على ملائكته قِيلَهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠] »[1].

وأضف إلى كلام الطَّبَرِيِّ رحمه الله أنَّ هذه القصة بهذه التفاصيل لم ترد في التوراة قطُّ، ولم يأت عنها علمٌ، بل وجد في التوراة المحرفة ما يناقضها بصورة مقززة، ففي سفر التكوين٣:

٢٢وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَ ذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ».

٢٣ فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا.

٢٤فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.

فتشعر من الرواية بما لا يليق بصفات الله تعالى، وبأنه لا يريد تكريم الإنسان، بينما ترى عظمة الآيات القرآنية وهي تبين التكريم الإلهي للإنسان قبل أن يخلق، وبعد أن خلقه الله ﷻ،

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٩١).

وكيف ميزه بالعلم والمعرفة، وهكذا تحس بقوة بأن القرآن كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

احتفالٌ سَمَاوِيٌّ: سُجُودُ تكريمٍ لخليفة الأرض:

ينقلنا التصوير القرآني إلى مشهد جديد، وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤] .. فما المشهد الذي يظهر هنا؟ وما المناسبة والاتصال بينه وبين ما قبله؟

الجواب:

المظهر التكريمي السادس: تكريم آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة عليهم السلام له ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ٣٤]، فالآية تصور احتفالًا ضخمًا، وتكريمًا مهيبًا لوافد الإنسانيَّة:

المناسبة والاتصال:

بعد أن ظهر التكريم الإلهي لآدم عليه السلام وبرز تميزه باستعداده للعلم والمعرفة، وقدرته على معرفة أسماء كل شيء، ينقلنا النبأ العظيم، والقصص الحق الذي تنقل صوره لنا آيات القرآن الكريم إلى فصل جديد مثير، هو الاحتفال بتقليد آدم عليه السلام مكانة عليا بالسجود له: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ٣٤﴾

حيث أعلن الله ﷻ الملك العزيز العظيم زيادة في الحفاوة والتكريم لهذا المخلوق الجديد، وحشد له الملائكة عليهم السلام -وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس- ويبصرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود عن تكريم الإنسان في احتفال مهيب في رحاب الملأ الأعلى، فقد أمر الله الملائكة بالاستعداد للسجود للبشر الذي سيخلقه من طين، وذلك قبل أن يخلقه، فقال ربنا ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر:٢٨-٢٩].

ويظهر أن هذا الأمر كان على التراخي، فبدأ بإظهار المزية الكبيرة للإنسان؛ حيث علمه الله ﷻ أسماء كل شيء، وأظهر مزيته العظيمة أمام الملائكة عليهم السلام، والآن آن الأوان ليأمرهم الله ﷻ بالسجود بعد ذلك، فقال الله ﷻ عن هذا المشهد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

ولكن ما معنى كلمة ﴿ٱسْجُدُواْ﴾؟ ألا يمكن أن تعني: انحنوا له إكرامًا؟

الجواب: السجود يدل على انخفاض للجسد بوضع الجبهة على الأرض، واعتماد على الأطراف والركبتين، فصارت الأعضاء التي توضع على الأرض سبعة في تَطَامُنٍ وذُلٍّ، فيقال: سجد إذا تطامن، وكل ما ذل وطأطأ رأسه وانحنى فقد سجد كما قال حُمَيْد بن ثَوْر يَصف نسَاء:

فلَمَّا لَوَيْنَ علَى مِعْصَمٍ ... وَكَفٍّ خَضِيبٍ وإِسوارِها

فُضُولَ أَزِمَّتِها، أَسْجَدَتْ ... سُجُودَ النَّصارَى لأَحْبارِهَا

يَقُول: لما ارْتَحَلْن ولَوَيْن فُضولَ أَزِمَّةِ جِمالِهِنَّ على مَعاصِمِهِنَّ أَسْجَدَتْ لَهُنَّ، وسَجَدتْ وأَسجَدَت، إِذا خَفَضَتْ رأْسَها لتُرْكَب.

و(نَخْلةٌ ساجِدةٌ)، إِذا (أَمالَهَا حَمْلُهَا)، وسَجَدَت النَّخْلَةُ: مالَتْ[1].

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٣٣)، تاج العروس (٨/ ١٧٣).

وعَرف العرب السجودَ، وإن لَمْ يكن عَلَى هَذِهِ الهيئة، فقال النابغة:

أَوْ دُرَّةٍ صَـــدَفِيّةٍ غَـوَّاصُـــهـا بَهِج متى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدِ[1]

فالسجود هو الميلان والانحناء نحو الأرض، وأكمل أحواله: وضع مقدمة الرأس والوجه على الأرض، فيكون السجود المعروف في الإسلام أعلى أنواع الذل أمام الله الرب الأجل؛ إذ هو أخفض طأطأة للرأس ليلامس الأرض.

وهنا لا بد أن نسأل: ما السجدة التي قال الله عنها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ٣٤]؟ هل هي سجدة عبادة؟ فكيف يجوز ذلك، والسجود لا يكون إلا لله المعبود؟

الجواب: هَذِهِ السَّجْدَةُ فِيها ثَلاثَةُ أَقْوالٍ:

أَحَدُها: إنَّ الـمُرادَ مِنها مُجَرَّدُ التَّعْظِيمِ وليس السجود، وهذا الرأي غير مقبول؛ لأن معناه أنه لا يوجد سجود، فأصحابه عنوا بالسجود التعظيم فقط.

وثانِيها: إنَّ الـمُرادَ هو السَّجْدَةُ، إلّا أنَّ الـمَسْجُودَ لَهُ هو اللهُ تَعالى، فَآدَمُ عليه السلام كانَ كالقِبْلَةِ، وهذا الرأي يخالف ظاهر الآية ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾، فلم يقل: اسجدوا لي، واجعلوا آدم قبلة.

وثالِثُها: إنَّ الـمَسْجُودَ لَهُ هو آدَمُ عليه السلام .. هكذا نقل الرازيُّ الخلاف.

وأنت ترى أن الله ﷻ أوضح القصة دون تأويل، فالآمر هو الله جل في علاه، فهل من داعٍ يلجئك إلى تأويل كلامه بغير ذلك؟ فالسجود لم يكن لعبادة آدم عليه السلام، بل لعبادة الله ﷻ الذي أمر الملائكة عليهم السلام أن تسجد لآدم، فما الحاجة إلى أن نبحث عن شيء وراء ذلك؟

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ص: ٤٥).

والذي حمل الملائكة عليهم السلام على السجود لآدم عليه السلام تعظيم أمر الله في المقام الأول، وليس عبادة آدم عليه السلام في ذاته، وإن صحب ذلك إظهار الإكرام له عليه السلام، وَلذا قَالَ ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة رحمه الله كلامًا ثمينًا متينًا يلخص هذه القضية: «كَانَتِ السَّجْدَةُ لِآدَمَ، وَالطَّاعَةُ للهِ»(١).

وظهرت لنا الملائكة عليهم السلام يسمعون أمر ربهم، ويطيعونه، ولا يترددون في ذلك طرفة عين.

والسجود إما أن يكون لقصد التعظيم وإما أن يكون لقصد التكريم لمشاهَدٍ بالعيان كما سجد إخوة يوسف وأبواه له عليهم السلام، أو لمشاهدٍ بالجَنان كما نسجد نحن لله تعالى .

فسجد الملائكة عليهم السلام سجود تكريم طاعة للعليم الحكيم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ٣٤]، فالله تعالى هو الذي أمر بالسجود كما أمرنا بأن نطوف حول البيت، والبيت حجرٌ، ونحن أشد الناس كراهةً لوجود ما يشبه عبادة التماثيل أو عبادة الأوثان أو الأصنام، ولكننا نطوف حول البيت، لا لأننا اخترعنا هذا من عند أنفسنا، ولكن لأن الله عز وجل رب البيت أمرنا بأن نفعل ذلك، فعندنا في ذلك سلطان، وبرهان.. «وَتَعْدِيَةُ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ لِاسْمِ آدَمَ عليه السلام بِاللَّامِ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُمْ كُلِّفُوا بِالسُّجُودِ لِذَاتِهِ، وَهُوَ أَصْلُ دَلَالَةِ لَامِ التَّعْلِيلِ إِذَا عُلِّقَ بِمَادَّةِ السُّجُودِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٦٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].. وَلَا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ أَنَّ السُّجُودَ فِي الْإِسْلَامِ لِغَيْرِ اللهِ مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّ هَذَا شَرْعٌ جَدِيدٌ نَسَخَ مَا كَانَ فِي الشَّرَائِعِ الْأُخْرَى وَلِأَنَّ سُجُودَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام مِنْ عَمَلِ الْعَالَمِ الْأَعْلَى»(٢).

---

(١) تفسير الطبري، (١٧/ ٩٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٢).

فسجود الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام يظهر نوعًا جديدًا من التكريم أمام العالَم، فبعد التكريم للمخلوق الجديد بتصويره على أحسن صورة، وبعد تكريمه بالعلم والمعرفة أمر الله الملائكة عليهم السلام بالسجود له، فقال: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾، فظهرت لنا حكمتان في أمر الله ﷻ للملائكة عليهم السلام بالسجود لآدم عليه السلام:

الأولى: تكريمٌ للمخلوق الجديد.

والثانية: إظهارٌ لحقائق المخلوقات التي يعلمها الله ﷻ، فيبتلي بأوامره بعض مخلوقاته ليَظهَر المطيع منهم من العاصي، لا لأن الله ﷻ لا يعلم ذلك، بل ليقيم الله ﷻ الحجة على ذلك المخلوق، بإظهار حقيقته لنفسه من خلال أفعاله، ولذا وصف الله ﷻ المطيع من عباده في هذا الأمر، فقال: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ووصف العاصي: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

وهذه الآية تدل بظاهرها على أنَّ إسجاد الملائكة عليهم السلام تَمَّ بعد الحوار الإعلانِيِّ للملائكة عليهم السلام حول الوافد الجديد، وطبيعة وظيفته الاستخلافية، وبعد تعليمه الأسماء، وتجد آية الحجر وص تدلَّان على أن الأمر بالسجود تَمَّ الإعلام به قبل خلق آدم عليه السلام، حيث قال الله ﷻ في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]..

فلنا أن نتساءل: كيف نجمع بينهما؟

الجواب -وفقك الله-:

عندما تجمع بين هذه الآيات كلها يتضح لك أنَّ الأمر بالإسجاد أمرٌ مستقل وقع قبل خلق آدم عليه السلام، والعطف بالواو هنا لا يدل على الترتيب، وبذا يتضح لنا معنيان معًا في هذه

الآية: الأمر بالسجود لآدم قبل خلقه، وإذعان الملائكة عليهم السلام لذلك دون مراجعة، ولكن الله عز وجل بلطفه وكرمه ومجده، جعل السجود لآدم عليه السلام بعد إظهار مزيته على بقية المخلوقات بما علمه من أسماء كل شيء، لِيَظْهَرَ للملائكة عليهم السلام جُزْءٌ يسيرٌ من حِكَمِ الله جل جلاله المخفية في الغيب.

وعد إلى الآية لتتساءل متدبرًا عن الفرق بين التعبيرين في الآيتين: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهنا أخبر عن نفسه تعالى ذكره بالضمير: (نا) الدال على العظمة، فلماذا تغيرت طريقة التعبير؟

الجواب – وفقك الله–:

لعل الله عز وجل أراد هناك أن يخبرهم عن الوافد الجديد، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فأخبر الله جل جلاله الملائكة عليهم السلام عن استخلاف آدم عليه السلام بالكلام عن نفسه تعالى ذكره بصيغة الغائب وجعل ذلك بأسلوب الإخبار والحكاية، أما هنا فأراد أن يأمرهم، فناسب ذلك الإتيان بـ (نا) الدالة على التعظيم بصيغة المتكلم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وإنما أتى بها وهو الله الواحد الأحد ليبين عظمته، وهذا كما يتعاظم بعض ملوك الدنيا الذين إذا أرادوا أن يأمروا أمرًا فيقولون: نحن الملك الفلاني نأمر بكذا وكذا.

وهنا ينبغي أن نلحظ في أسلوب القرآن الكريم أن الله عز وجل إذا أراد أن يشير إلى وحدانيته في ألوهيته، فإنه يأتي بما يدل على التوحيد، كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، أما إذا أراد أن يدلل على عظمته في أوامره، أو في أفعاله فإنه يأتي ب (نا) الدالة على العظمة كما في هذه الآية، وكما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩].

والآن: أَلَمْ تُفَكِّرْ حول توجيه هذا الأمر للملائكة عليهم السلام؟

وأجيبك: لعل من أسباب ذلك أن يستبين لنا أن سؤال الملائكة عليهم السلام هناك لم يكن للاعتراض، بل للاستكشاف.

لقد قابلت الملائكة عليهم السلام هذا الأمر بالاستجابة الفورية للسجود دون نقاش، وتلمح ذلك في فاء المباشرة والتعقيب الواردة في قوله تعالى مجده: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

ألا ترى أن الملائكة عليهم السلام تساءلوا عن أمرٍ خبريٍّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾، بينما استجابوا فورًا في أمرٍ طلبيٍّ: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؟

فعَلَام يدل هذا؟

يدل هذا على أنَّ تساؤلهم هناك لم يكن إلا للاستفسار والاستكشاف، وليس للاعتراض، فوافق ذلك أن يستخرج منهم ما يؤكِّد حقيقة الاستسلام لأمر الملك العلَّام بالسجود لآدم عليه السلام على سبيل الإعظام والإكرام.

بصيرة: في تساؤل الملائكة عليهم السلام عن أَمْرٍ خَبَرِي ﴿إِنِّي جَاعِلُ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾، واستجابتهم فورًا في أَمْرٍ طَلَبِي ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ دليل على أن تساؤلهم لم يكن للاعتراض، بل للاستفسار والاستكشاف، فوافق ذلك أن يُستخرج منهم ما يؤكِّد حقيقة الاستسلام لأمر الملك العلَّام بالسجود لآدم عليه السلام على سبيل الإعظام والإكرام.

الاستسلام الملائكي، والإباء الإبليسي "إبليس في أولى خطوات التمرد والشيطنة":

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]، فلماذا ذكر الله ﷻ لنا أنَّ إبليس أبى السجود؟

الجواب: هذا ينقلنا إلى:

المظهر التكريمي السابع: رسم خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء وبين الخصوم الأعداء ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي هذا الأصل البصائر الآتية:

بصيرة ١: العدو الأكبر للبشرية هو إبليس، والتحالف مع عدو البشريَّة الأول (إبليس) يعني جلب الخسارة، واليأس، والحرمان، لأن هذه معاني كلمة: إبليس.

فـ(إبليس) على وزن إفعيل -إن صح أصله العربي- من أبلس، أي: أصيب بالدهشة والوجوم لخيبة أمله، ويأسه وانقطاع رجائه.

سجد الملائكة عليهم السلام، لكن واحدًا أبى السجود، وذكر الله ﷻ المشهد، فقال: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

يتجلى لك المشهد عن ثلاثة نماذج من خلق الله ﷻ:

الأنموذج الأول: أنموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق، ويمثل هذا الأنموذج الملائكة عليهم السلام؛ فقد سلموا وسجدوا.

الأنموذج الثاني: أنموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، ويمثل هذا الأنموذج إبليس.

والأنموذج الثالث: أنموذج الطبيعة البشريَّة المزدوجة التي لم تظهر عند ذلك المشهد، فلم يظهر من آدم طاعة ولا عصيان؛ لأنه لم يوجه له الأمر بعد، وسيظهر ما عنده في المدة التجريبية عندما يسكن الجنة.

ومتى تتجه إلى أحد الأنموذجين الأولين تجد في هذا المشهد:

أن الملائكة عليهم السلام خضعوا للأمر الإلهي طائعين، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يستنكفون، وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر اللّه وأبى أن يمتثله، فلم يكن من الساجدين.

أما تعجب لإبليس -عليه من الله الغضب- في عتوه، واستنكافه عن أمر ربه في سجدةٍ واحدةٍ تكرمةً لآدم عليه السلام، ثم هو بعد لا يتنزه عن التسفل في دركات الذلة والغواية والإغواء لبني آدم؟!

عجبتُ منْ إبليسَ في تيهِهِ ... وخبثِ ما أظْهَرَ منْ نيَّتهْ

تاهَ على آدَمَ في سجدةٍ ... وصارَ قوّادًا لذرِّيَّتهْ[1]

فماذا تفعل أنت يا ابن آدم حين تمر على آيات السجود، أو تسمع نداء منادي الصلاة يدعوك للترقي والصعود؟

أَسْرِعْ فاسْجُدْ، وكن كالملائكة عليهم السلام في طاعة ربهم عز وجل، فإنك حينها تملأ الشيطان غيظًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ -وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي- أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ» [2].

---

(١) البيت لأبي نواس. ينظر: أحسن ما سمعت، لأبي منصور الثعالبي (ص: ١٢).

(٢) مسلم (٨١).

وبهذا التمايز بين الموقفين: الملائكي، والإبليسي؛ تتجلى لآدم عليه السلام ولذريته خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء وبين الأعداء، حيث سجد الملائكة عليهم السلام لكن واحدًا أبى السجود، وذكر الله عز وجل المشهد، فقال جل جلاله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾.

هاهنا أخي: يعرفك الله عز وجل بأوليائك وبأعدائك، فمن سجد لأبيك فهو من أوليائك وحلفائك، ومن أبى التكريم الإلهي للبشرية، ولم يسجد لآدم فهو من أعدائك، ورأس أعدائك هو (إبليس)، وقد طرده الله من رحمته لأجلك، فالعجب ممن عرف ربه ثم عصاه، وعرف الشيطان ثم أطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] ..

رَعى اللهُ مَنْ نَهْوى وَإِنْ كانَ ما رَعى ... حَفِظْنا لَهُ العَهْدَ القَديمَ فَضيَّعا

وَصاحَبْتَ قَوْمًا كُنْتُ أنْهاكَ عَنْهُمُ ... وَحَقِّكَ ما أبْقَيْتَ للصُّلْحِ مَوْضِعا[1]

وهنا لا بد من أن تضع السؤال الشهير الذي يناقشه أهل العلم:

كيف شمل توجيه الأمر للملائكة عليهم السلام إبليس؟ هل هذا يعني أن إبليس من الملائكة عليهم السلام ؟ وكيف ذلك والملائكة عليهم السلام لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؟!

الجواب-وفقك الله-:

هذه القضية يذكرها عددٌ من المفسرين، واختلفوا في دخول إبليس في الأمر هنا، فجمعٌ منهم ذهبوا الى أن إبليس من طائفة من الملائكة عليهم السلام، فالملائكة عليهم السلام عندهم طوائف منهم طائفة يسمون الجن، وهذه الطائفة خلقت من نار، بينما خلقت بقية طوائف الملائكة عليهم السلام من نور، واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ

(١) لطائف المعارف ص٥٨.

لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، فالجِنَّةُ هم الملائكة عليهم السلام، والجِنُّ كلُّ ما اجتنَّ فلم يُرَ، وكذا الملائكة عليهم السلام، قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «وَلَيْسَ عِنْدَنَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام وَالْجِنِّ فَصْلًا جَوْهَرِيًّا يُمَيِّزُ أَحَدَهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَإِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافُ أَصْنَافٍ عِنْدَمَا تَخْتَلِفُ أَوْصَافٌ»(١)، وكان هذا معروفًا عند الموحدين العرب من أتباع سيدنا إبراهيم -عليه وعلى نبينا وأنبياء الله الصلاة والسلام- فمثلًا نسبوا إلى بعضهم قوله:

وَلَـوْ كَـانَ شَـيْءٌ خَـالِدًا أَوْ مُعَمَّـرا ... لَكَـانَ سُـلَيْمَانَ الْبَرِيءَ مِـنَ الدَّهْـرِ

بَـــرَاهُ إِلَهِـــي وَاصْطَفَـــاهُ عِبَـادَهُ ... وَمَلَّكَهُ مَا بَيْن ثُرْيا إِلَى مِصْرِ

وَسَـخَّرَ مِـنْ جِـنِّ الْمَلَائِـكِ تِسْـعَةً ... قِيَامًـــا لَدَيْـــهِ يَعْمَلُـونَ بِـلا أَجْـرِ(٢)

وقد ردَّ عليهم أصحاب الرأي الآخر بأدلة كثيرة تدل على أن الجن جنسٌ آخر غير الملائكة عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، ففرقوا بين الجن وبين الملائكة عليهم السلام.

وحتى لا ندخل في مساحة من الجدل التنظيري الذي لا داعي له، يمكننا أن نختصر المسألة بأن نقول:

من أهمِّ قواعد التفسير رَدُّ المتشابه إلى المحكم، ودخول إبليس في الملائكة عليهم السلام هنا ليس محكمًا بل هو متشابه؛ لأن الاستثناء يصح أن يكون متصلًا، فيكون المستثنى وهو إبليس من المستثنى منه وهم الملائكة عليهم السلام، ويصح أن يكون منقطعًا، فيكون المستثنى وهو إبليس ليس من المستثنى منه وهم الملائكة عليهم السلام، فدخول إبليس في الملائكة عليهم السلام هنا ظنيٌّ محتمل مجمل

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٢١).

(٢) الأبيات لأَعْشَى بني قَيسِ بْنِ ثَعْلَبَة. انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٠٥).

عرفناه بالمفهوم لا بالمنطوق الصريح، فلم يقل الله ﷻ لنا إلا إبليس كان من الملائكة ﷺ لكنه أبى السجود، ولئن نظرنا في آيات ربنا ﷻ تقدست أسماؤه، فإننا سنجده ينص صراحة على أن إبليس كان من الجن، مع أنه سبق أن تحدث عن الملائكة ﷺ في الآية ذاتها، حيث قال الله تعالى شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، والدلالة لخروجه عن جنس الملائكة ﷺ في سورة الكهف أوضح من دلالة دخوله فيهم، مع بقاء احتمالٍ صغيرٍ في أن الجن صنف من الملائكة ﷺ كما ذهب إليه بعضهم، وإن كنت لا أميل إليه الآن، فالجن صنف ثالث مستقل.

وهنا لربما قاطعتني فتساءلت: فكيف أُمِرَ إبليس بالسجود، وما كان الأمر إلا للملائكة ﷺ؟

أجيبك – أيدك الله –:

يصح توجيه الخطاب لمن حضر باعتبار الغالب، فخاطب الله ﷻ جميع من حضر ليسجدوا، ولكنه تعالى مجده خصص الملائكة ﷺ لمزية معينة، كأن يكونوا الأغلبية، لكن ذلك لا يعني أن يخرج عنهم من حضر، فأنت توجه الخطاب لفئة، وتقصد غيرها معها بالضرورة، بل ربما قُصِد غيرها من باب أولى، فإنك إن قلت: إن جاء الملِك فليقف له الوزراء تكريمًا، وكان يوجد من هو أدنى من الوزراء مرتبة، فتوجيه الأمر لهم من باب أولى، وكذلك لو وجد مع الوزراء من هو في رتبتهم، فإن الأمر يتوجه لهم أيضًا، وحسبنا هنا أن نتيقن أن الخطاب لمن خصص من الملائكة ﷺ وهو يعني غيرهم ممن حضر، فدخل فيه إبليس حينها، ويكفي ذلك.

ولذا من الخطأ الشائع أن يقال: إبليس رئيس الملائكة ﷺ، فهذا لا دليل عليه؛ إذ هو من الجن، وقد تقول: فهل هو أبٌ للجن؟ أجيبك بأنه لا يوجد منطوق في القرآن والسنة بذلك،

ولكن قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ يدل على أن الجن من ذريته بالمفهوم فقط، وإلا فقد يقال: ذريته جماعة من الجن الحاكمين لسائر الجن.

وعلى كلا القولين فإنَّ إبليس كان من المأمورين بأن يسجدوا لآدم عليه السلام سواء أكان من طائفةٍ من الملائكة عليهم السلام، أو من جنسٍ آخر؛ لأنَّ الخطاب للملائكة عليهم السلام في هذه الحالة أغلبي، لأنهم كانوا الأكثر حضورًا عند توجه الأمر بالسجود، وقد فَهِمَ منه إبليس أنه متوجه إليه أيضًا، ولا داعيَ لتفصيلٍ أكثرَ من ذلك في هذا الموضوع.

لاحظنا أن الله عز وجل ذكر اسم إبليس في هذه السُّورَة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة:٣٤]، ثم ناداه به في سورٍ أخرى كما في سورة الأعراف وص والحجر، فهل هذا هو الاسم الحقيقي لهذا المخلوق؟

الجواب -وفقك الله-:

ترى الله عز وجل سَمَّى هذا العدو الذي وقف معاندًا لله عز وجل في أمره: (إبليس)، وهذه الكلمة **إن كان أصلها عربيًّا، فهي على وزن (إفعيل)**: مأخوذ من: أبلس، أي: أصيب بالدهشة والوجوم لخيبة أمله، ويأسه وانقطاع رجائه، فيكتئب بشدةٍ ويصاب بالذهول والحيرة، ولا يدري ماذا يفعل، فيسكت ولا ينطق ببنت شفة، ويبأس من الخير والسعادة والراحة، ويملؤه شعورٌ بالحزن والندم والحقد.

فالاسم في ذاته كربة؛ فقد صَغَّره الله عز وجل، وحَقَّر شأنه، وأبعده عن الخير عندما لعنه، فطرده من رحمته، وقال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣]، فأبلسه الله، وآيسه من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا.

ومما يدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: يائسون من كلِّ خير، فهم نادمون ممتلئون بالحزن، ومن ذلك قول الشاعر:

يا صاح هل تعرف رسمًا مُكْرَسًا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا[١]

وقال رؤبة:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الأَخْمَاسْ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ

يعني به -أي بالإبلاس- اكتئابًا وكسوفًا[٢]، وحتى لو لم يكن الاسم عربيًا، فقد عُرِّب واقترب من اشتقاقٍ مليءٍ بالحسرة والندم.

فهل كانت هذه هي المرة الأولى التي سماه الله ﷻ بهذا الاسم؛ إذ يدل الاسم على الإبلاس واليأس من كل خير؟

الجواب:

يظل الأمر محتملًا، أي: يحتمل أنَّ الله ﷻ سمَّاه إبليس في تلك اللحظة عقوبة له على منازعته ربه في ألوهيته.

ولماذا نقول بأن تسميته بإبليس رُبَّما كانت في ذلك الوقت؟

---

(١) البيت للعجاج. ينظر: ديوانه (ص: ٣١). والمُكْرَسُ: الذي صار فيه الكِرْس، وهو: مَا تَلَبَّدَ مِنَ الْأَبْعَارِ وَالْأَبْوَالِ فِي الدِّيَارِ. وَاشْتُقَّتِ الْكُرَّاسَةُ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهَا وَرَقٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. مقاييس اللغة (٥/ ١٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥١٠)، ويرد الطبري على سؤال مفترض: «فإن قال قائل: فإن كان إبليس، كما قلت، "إفعيل" من الإبلاس، فهلا صُرف وأجري؟ قيل: تُرك إجراؤه استثقالًا؛ إذ كان اسمًا لا نظيرَ له من أسماء العرب، فشبَّهته العرب - إذْ كان كذلك - بأسماء العجم التي لا تُجرَى. وقد قالوا: مررت بإسحاق، فلم يُجروه، وهو من "أسحقه الله إسحاقًا"، إذْ كان وَقَع مبتدَأً اسمًا لغير العرب، ثم تسمت به العرب فجرى مَجراه -وهو من أسماء العجم- في الإعراب فلم يصرف. وكذلك "أيوب"، إنما هو "فيعول" من "آب يؤوبُ».

لأن إبليس اسم لا يرضى أحد أن يتسمَّى به؛ لأنه يتضمن معاني اليأس والهلاك، وقد زعم بعضهم أن: «اسْم إِبْلِيس نايل»[١]، وعن ابن عباس ﷺ قال: «كان اسم إبليس عزازيل»[٢]، ولا نملك دليلًا على اسمه الأصلي، ولا يتوقع أن يكون اسم إبليس كان كذلك قبل هذا الحدث، وخاصة لمكانته في عالم الملأ الأعلى في ذلك الوقت فيما يذكره المفسرون، ويظهر لي أنه أول نداء له بهذا الاسم، وقد نقل الرازي عن الحَسَن ﷺ: ولَمّا كانَ إبْلِيسُ مَأْمُورًا مَعَ المَلائِكَةِ ﷺ اسْتَثْناهُ اللهُ تَعالى، وكانَ اسْمُ إبْلِيسَ شَيْئًا آخَرَ، فَلَمّا عَصى اللهَ تَعالى سَمّاهُ بِذَلِكَ وكانَ مُؤْمِنًا عابِدًا مرتفع المكانة في الملأ الأعلى حَتّى عَصى رَبَّهُ فَأُهْبِطَ منها[٣].

وقال ابن حجر ﷺ: «وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ كَانَ يُسَمَّى بِذَلِكَ قَبْلَ ذَلِكَ، كَذَا قِيلَ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ؛ لِجَوَازِ أَنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ بِاعْتِبَارِ مَا سَيَقَعُ لَهُ»[٤].

إذن فالذي يظهر أنه أول موضع يُنادى فيه إبليس بهذا الاسم، فكلمة إبليس من أبلس، وتدل على الحيرة واليأس والقنوط من كل خير، وهذا ما آل إليه حاله بعد تمرده على أمر الله ﷻ، وتعاليه عن الانصياع لمراده منه.

وهنا لا بد أن تتساءل: لتظهر لنا هيمنة القرآن: ماذا تقول التوراة الحالية عن قصة سجود الملائكة ﷺ لآدم ﷺ، وظهور العداوة الإبليسية؟

سأجيبك بما يُبَصِّرُكَ بعَظَمة القرآن، فهنا تستطيع أن تجيب على أهل الكتاب، وخاصة الذين يقولون: إن النبي ﷺ استقى القصص من التوراة.. نقول لهم: لو كان هذا صحيحًا

---

(١) العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (٣/ ٣٠٦).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٠٥).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٦).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٣٩).

لكان ما في القرآن مطابقًا تمام المطابقة لما عندكم، لكننا نجد أن هناك قصصًا عندنا لا توجد عندكم، وعندنا قصص يوجد عندكم أصلها، لكن هناك مشاهد كثيرة تختلف فيما بيننا وبينكم.. لماذا؟

لأنَّ القرآن يُبَيِّنُ الحقيقة التي ليس فيها غبش أو تحريف، فلم يدخل التحريف كتابنا، بل دخل كتبكم.

واضرب لهم مثلًا قصة خلق آدم عليه السلام التي سبق أَنْ أشرنا إلى اختلاف القرآن فيها عن التوراة الحالية، ومن أوجه الاختلاف:

أن قصة إسجاد الملائكة عليهم السلام لا توجد في التوراة، بل هي مما انفرد به القرآن، فلا نجد قصة تكريم الإنسانيَّة بهذه الصورة المهيبة، والاحتفال العظيم الذي جرى لآدم عليه السلام، كما لا نجد إبراز العداوة الإبليسية بالصورة التي نقلتها لنا الرؤية القرآنية للأحداث.

عندما تفكِّر جيدًا في هذا النوع من الاختلاف بين القرآن المحفوظ والتوراة الحالية المُحَرَّفَةِ، تشعر أنَّه من الطبيعي أن ينعكس ذلك على أنماط عداوة البشريَّة لإبليس، فلا تجد في المجتمعات المسيحية الاستحضار المطلوب لعداوة إبليس للبشريَّة، ولذا تزداد الغفلة عن معرفة أساليب الشيطان في إغواء الإنسان، بل تجد أحيانًا التمجيد لإبليس، وها هي بعض القنوات تنشر مسلسلًا عن إبليس، وتسميه باسمه الشهير عندهم: "لوسيفر".

وفي مطلع العقد السابع من القرن الثامن عشر، اجتمع عدد من كبار الحاخامين والمديرين والحكماء، وقرروا أن يؤسِّسوا مجمعًا سريًّا يعمل على تخليصهم من هذا الوضع المزري، ويعيد إليهم حقَّهم المسلوب وسلطانهم ومجدهم الموهوب من قبل الرَّبِّ كما يزعمون، ولقد سَمَّوا هذا المجمع بالمجمع النوراني [The Illuminat]، وكلمة نوراني مشتقة من كلمة (لوسيفر) Lucifer التي تعني حامل الضوء، وهكذا فإن المجتمع النوراني قد أنشئ لتنفيذ

الإيحاءات التي يتلقاها كبار الحاخامين من لوسيفر خلال طقوسهم الخاصة، وعندما عمدوا إلى ترجمة اسم الشيطان في العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية، استخدموا اسم (لوسيفر)، والتي تعني في ذات اللغة: كوكب الزهرة أو كوكب الصباح، في حين نجد عند البابليين أن (لوسيفر) يعني الشيطان، فاستحالت عملية الترجمة إلى تغيير للمعنى والحقيقة والمفهوم، بحيث تلاشت معالم المقصود بـ«الشيطان»، وتغيرت حقيقته بهذه الترجمة الكاذبة الخاطئة[1].

وقد جاء في كلمةٍ فخرٍ للأستاذ الأكبر لمحفل "لسينج الماسوني" العبارة التالية: «نحن الماسونيون ننتسب إلى أسرة كبير الأبالسة (لوسيفر)، فصليبنا هو المثلث، وهيكلنا هو المحفل».

وفي رسالة الجنرال (ألبرت بايك) إلى رؤساء المجالس العليا التي نظمها قال: «يجب أن نقول للجماهير: إننا نؤمن بالله ونعبده، ولكن الإله الذي نعبده لا تفصلنا عنه الأوهام والخرافات، ونحن الذين وصلنا إلى مراتب الاطلاع العليا يجب أن نحتفظ بنقاء العقيدة الشيطانية».

وقد سموا الله تعالى (أدوناي)، وسموا الشيطان (لوسيفر)، وفي ذلك يقولون أيضًا: أما الديانة الحقيقيَّة والفلسفة الصافية، فهي الإيمان بالشيطان كإله مساوٍ لـ (أدوناي)، ولكن الشيطان وهو إله النور وإله الخير يكافح ضد (أدوناي) إله الظلام والشر.

---

(١) ينظر: المسيح عليه السلام دراسة سلفية، رفاعي سرور، دار هادف للطباعة والنشر، (ص: ٢٨٥)، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، علي ناصر الشحود، (٢٧/ ٧).

ويقول الماسوني عبد الحليم إلياس الخوري: «لم يبق أحد يؤمن بالله وخلود النفس إلا البلهاء الحمقى»[١].

وليعذرنا القارئ، حين ننقل هذه الأقوال التي تؤذي سَمْعَ كلِّ مؤمن، ولكننا لم ننقلها إلا لنبين مدى الانحطاط الذي ارتكست فيه تلك الثقافات، حتى وجدت من ضمنها ثقافات تقدِّسُ الشيطان، وتَسُبُّ الرحمن، تعالى الرحمن وتقدَّس عما يقوله الظالمون عُلُوًّا كبيرًا.

فإن قلت: ما الذي أسهم في بناء هذه الثقافة الشيطانية المُنْحَطَّة؟

الجواب: أسهم في بنائها قلة التحذير من الشيطان.

ومن أين جاءت قلة التحذير من الشيطان؟

الجواب: من تحريف التوراة والإنجيل و تحريف الكتب التي أنزلها الله تعالى، وحَذْفِ ما يتعلَّق بالشيطان وبإبليس.

ويزعم بعض أدعياء المثقفين أنه لا ينبغي لنا أن نذكر الشيطان نهائيًا للأطفال في المرحلة الأساسية؛ لأن ذلك بزعمه يزرع في نفوسهم الرُّعب، ويجعلهم يحلمون بالكوابيس، ويزعم أن ذكر الشيطان يؤدِّي بالأطفال إلى الأمراض النفسية.

أما أفلام (هاري بوتر) وأمثالها كثير من الأفلام والمسلسلات التي يوجِّهونها إلى الأطفال، فهي بريئة من هذه التهمة، ما أخبث هؤلاء الشياطين..!

---

(١) ينظر: موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت، تم تحميله في ربيع الأول ١٤٣٣هـ (١/ ٨٨).

وهكذا يتوصل الشيطان بمثل هؤلاء إلى تجهيل أجيال بأكملها لينشؤوا جاهلين عداوة الشيطان، وربما كان حَذْفُ ذكر الشيطان وحَذْفُ القصة الأولى للعداوة من التوراة بمثل هذه المبررات.

والناظر للقصة الأولى لآدم وحواء عليهما السلام ومَنْ كان سببًا في إغوائهما في التوراة، يجد فيها أن الحيَّة هي التي أغوتهما، فقد نسيت القصة الحقيقية، وكأنَّ إبليس قد تمَّت تبرئته.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن تبيانًا لكلِّ شيء، ففيه بيان الحق، وفيه بيان ما كتمه أهل الكتاب وحرَّفوه، والحمد لله رب العالمين على نعمة الهداية بالقرآن الكريم الذي هو نور يبدِّد الظلمات، وحياة تنقل المؤمنين من موت الغفلة إلى حياة العلم والذكر، ومن سُبُل الضلالة إلى سبيل الله القويم وإلى صراطه المستقيم بإرشاد نبيه الكريم ﷺ، وبمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا..!

وفي القرآن الكريم حذَّرنا الله ﷻ من الشيطان الرجيم كثيرًا، وبعدة أساليب: بذكر القصة الأولى التي تتضمَّن امتناع إبليس لعنه الله عن السجود، وما أظهره من شدَّة عداوته، ومن عزمه الذي قرنه بالقَسَم بعزَّة الله على إغواء بني آدم جميعا إلا المخلصين منهم.

وحذَّر الله سبحانه وتعالى ابتداءً أبوينا آدم وحواء عليهما السلام من الشيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، وحين أكلا من الشجرة قال الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال الله تعالى لبني آدم: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وأمرنا الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم حتى عند قراءة القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وأمرنا أيضًا بالاستعاذة من الشيطان عند الإحساس بنزغه لزرع العداوة بيننا وبين إخواننا من المؤمنين ومن بني آدم فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] .

وأرشدنا رسول الله ﷺ إلى الاستعانة بالتسمية، وهي قول: (باسم الله) في كثير من شؤوننا، حتى في شأن الجماع، وحذَّرنا رسول الله ﷺ من الشيطان في كثير من الأحاديث، ومنها قوله ﷺ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ»(١)، فالمعركة في كافَّة الأرصدة وفي كلِّ لحظة من لحظات أعمارنا، وابتداءً من لحظة الولادة ولا يترك الإنسان حتى في لحظات موته.

وفي يوم القيامة يأتي التقريع الشديد والتوبيخ الأليم من الله تعالى للمجرمين الذين اتبعوا الشيطان، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

وبعد أن عرفنا اسم العدو الأكبر للبشرية، فما أبرز صفاته التي جعلته في هذه المنزلة من العداوة؟

وإليك الجواب في البصيرة التالية:

---

(١) مسلم (٢٠٣٣).

بصيرة ٢: اعرف عدوك، واحذر خطواته، وحارب صفاته؛ فقد جمع إبليس بين ثلاث صفات إجرامية هي المراحل المتدرجة للوصول إلى مرحلة الإجرام الكامل ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾، فالإباء رفض السمع والطاعة، والاستكبار طلب تكبير نفسه فوق حجمها، فرفع نفسه إلى مرتبة فوق مرتبة المخلوق، والكفر يعني التغطية للحقيقية الواضحة، وذلك يؤدي إلى الجحود.

الثلاثية الإبليسية {صفات إبليس}

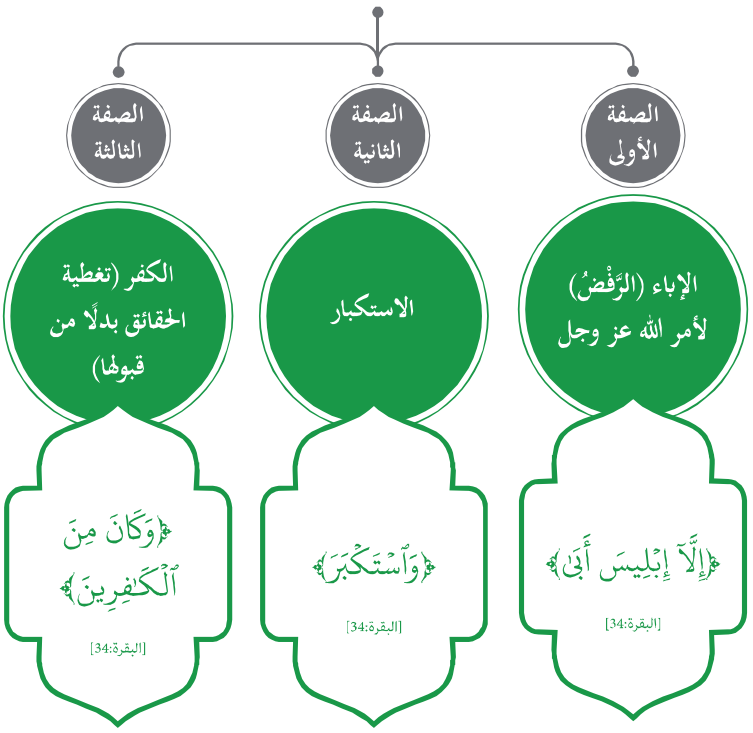

الثلاثية الإبليسية (صفات إبليس):

هلم معي لنفهم هذه الثلاثية الإبليسية بوضوح وجلاء:

الصفة الأولى: الإباء (الرَّفْضُ) لأمر الله ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾:

الإباء يعنى شدة الامتناع، وأقوى درجات الرفض حالًا أو مقالًا، ويا له من إباء رديء، فهو إباء من الاستماع لأمر الله ﷻ.

والإباء والامتناع عن الانصياع المباشر للسمع والطاعة بريد الكفر الأكبر.. يأبى المخلوق أولًا، ثم يكبر هذا الإباء رويدًا رويدًا ليكون عنادًا صريحًا، ثم يكبر ليصبح نقمةً على الشَّريعة، أي على الأوامر الإلهية، وذلك بخلاف من يعصي وهو مقرٌّ بأنه يعصي.

إن المبادرة إلى السمع والطاعة والانخراط في النظام الكوني العام الذي وضعه خالقه أعظم معين على ترك النزعة الإبليسية، والبعد عن اليأس والندم، والأحزان والألم.

فإن سمعت الأمر الإلهي فبادر، ولا تتردد.

إذا هممت فبادر، وإذا عزمت فثابر، واعلم أنه لا يحوز المفاخر من جاء في الصف الآخر.

وهذه المبادرة هي أحد أهم الأسس التي يظهر تكرار بنائها في النفس المسلمة من خلال سورة البقرة.. إنَّها أعظم واقٍ من اليأس والندم والتحسُّر مهما كانت نتائجها، واسمع تَحَسُّرَ الشيطان على ترك تلك المبادرة عندما يرى المُسْتَخْلَفَ الإنسانِيَّ يبادر إلى الطاعة دون إبطاء، حيث يصف النبي ﷺ ذلك، فيقول: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ يَا وَيْلِي- أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»[1].

---

(١) مسلم (٨١).

وهكذا قال أساتذة التربية الإيمانية:

فَـأعقِـبْ مِنَ النَّوم التَّنبُّـهَ رَاشِـــدًا ... فَـلَا بُـدَّ لِـلـنُّـوَّامِ مِـنْ يَـقَـظَـاتِ

ومَن رَاغَمَ الشَّـيطانَ مِثْلُكَ لم يُجبْ ... رُقَـاهُ ولـم يَـتْـبَـعْ لـه خُـطـواتِ

ومِمَّا يُنَسِّـــيكَ الأســى حَسَـــنَاتُها ... وإنْ كنتَ منها يا أخا الحَسَـــناتِ[1]

وهنا نتساءل متدبرين:

لاحظنا أنَّ الله ﷻ ذكر من سجد من المخاطبين، وهم الملائكة عليهم السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾، ثم استثنى واحدًا فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، ففهمنا من الاستثناء أنَّ إبليس لم يسجد، فلماذا قال بعد ذلك ﴿أَبَىٰ﴾، أي: رفض، والرفض مفهوم من الاستثناء؟ فهل كلمة ﴿أَبَىٰ﴾ مجرد تأكيد؟

الجواب:

لكلمة ﴿أَبَىٰ﴾ فائدة أكبر لا يبصرنا بها الاستثناء، ويتدبر ابن القيم رحمه الله الفائدة العظيمة التي تبصرنا بها كلمة ﴿أَبَىٰ﴾، فهي ليست مجرد تأكيد للاستثناء، وحقق أن ﴿أَبَىٰ﴾ أفادت معنى زائدًا، وهو أن عدم سجوده استند إلى إبائه، وهو أمر وجودي اتصف به، نشأ عنه الذنب، فلم يكن ترك سجوده لعجز ولا لسهو ولا لغفلة، بل كان إباءً واستكبارًا.

ومعلوم أنَّ هذا لا يفهم من مجرد الاستثناء، وإنما المفهوم منه عدم سجوده، وأما الحامل على عدم السجود فلا يدل الاستثناء عليه، فصرَّح بذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ...﴾ [البقرة: ٣٤]، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١] فإن نفي كونه من

(١) الأبيات لابن الرومي ينظر: ديوان ابن الرومي (٢/ ٢٦٣).

الساجدين أخص من نفي السجود عنه؛ لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد، فهو أبلغ في الذمِّ من أن يقال لم يسجد[١].

وهنا لا بد أن نتدبر أكثر:

فقد عرفنا الصفة الأولى لإبليس وهي الإباء، فما العلاقة بينها وبين قول ربنا: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؟

الجواب:

الصفة الثانية: الاستكبار:

قول ربنا ﷻ عن إبليس: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ يُبَصِّرُنا بأن إبليس لم يبادر إلى التوبة من إبائه.. بل أصرَّ على موقفه، وقام يُعَلِّلُ إباءَهُ، ويُفَلْسِفُ عِصْيانَه بدلًا من التوبة والاستغفار.

هذا الإصرار نقله من مرحلة الإباء إلى مرحلة الاستكبار.

وكلمة استكبر من كبر.. والسين والتاء إما أن تكون:

- للطلب، أي: طلب أن يكبر ويعظم نفسه فوق حجمه، فرفع نفسه إلى مرتبة فوق مرتبة المخلوق.
- أو للتأكيد أنه فعل ذلك الفعل، فكبَّر نفسه كما في استجاب أي أجاب إجابة مؤكدة.

والاستكبار يقال على وجهين:

أحدهما: محمود، وهو أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرًا، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب.

الآخر: مذموم، وهو أن يتشبع، فيظهر من نفسه ما ليس له[٢].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٥٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢١).

وقال السمين الحلبي رحمه الله: «واستكبر بمعنى تكبَّر، وإنما قَدَّم الإباءَ عليه وإنْ كان متأخِّرًا عنه في الترتيبِ؛ لأنه من الأفعالِ الظاهرةِ، بخلافِ الاستكبارِ فإنه من أفعال القلوب»[1].

وهنا قد تتساءل: ما حقيقة الكبر عندما يتصف به المخلوق؟

الجواب- وفقك الله-:

كلمة ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ تدلُّ على أنَّ المخلوق يتكلَّف الكبر، فيتعاظم، كما تعاظم فرعون، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤].

انظر لهذا المخلوق الكاذب يقول هذا الكلام، وهو يسكن في قطعة من الكون اسمها (مصر)، ثم (مصر) هذه توجد في قطعة من الأرض متناهية الصغر كذَرَّةٍ في زخم هذه المجرَّات والكواكب التي خلقها الله تعالى.

ويُصَوِّرُ الغزاليُّ رحمه الله الكِبْرَ والفرق بينه وبين العُجْب، فيرى أنَّ الكِبْرَ خُلُقٌ يَسْتَرْوِحُ الإنسان به إلى رؤية نفسه فوق غيره أي فوق المتكبَّر عليه؛ فإنَّ الكِبْرَ يستدعي متكبَّرًا عليه ومتكبِّرًا، وبه ينفصل الكِبْرُ عن العُجْبِ؛ فإنَّ العُجْبَ لا يستدعي غير المُعْجَب، بل لو لم يُخْلَقِ الإنسانُ إلا وحده تُصُوِّرَ أنْ يكون معجبًا بنفسه، ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يكون متكَبِّرًا إلا أنْ يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكَبِّرًا، ولا يكفي أنْ يَسْتَعْظِمَ نفسَه ليكون متكَبِّرًا، فإنَّه قد يَسْتَعْظِمُ نفسَه، ولكنَّه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أنْ يَسْتَحْقِرَ غيره، فإنَّه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أنْ يرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبةً، ثم يرى مرتبةَ نفسِه فوق مرتبةِ غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خُلُقُ الكِبْرِ، لا أنَّ هذه الرؤية

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٢٧٧).

تنفي الكِبْرَ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه.. فيحصل في قلبه اعتدادٌ وهزَّةٌ وفَرَحٌ ورُكُونٌ إلى ما اعتقده، وعَزَّ في نفسه بسبب ذلك، فتلك العِزَّةُ والهزَّةُ والرُّكُونُ إلى العقيدة هو خُلُقُ الكِبْرِ، ولذلك قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذرة من كبر»[١].

وَإِنَّمَا صَارَ حِجَابًا دُونَ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهَا، وَتِلْكَ الْأَخْلَاقُ هِيَ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَالْكِبْرُ يغلق تلك الأبواب كلَّها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَهُوَ رَأْسُ أَخْلَاقِ المتقين، ولا يقدر على ترك الحقد، ولا يقدر أن يدوم على الصدق، ولا يقدر على ترك الغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم[٢]، «فَمن استكبر على الحقِّ لم يَنْفَعْهُ إيمَانه»[٣].

بصيرة ٣: إنَّ (الاستكبار) حالةٌ فريدةٌ تدلُّ على أنَّ مِنَ المخلوقين مَنْ قد يرتكب أحطَّ الجرائم دون أن يكون هدفه المال، بل هدفه التَّعَاظُمُ والتَّكَبُّرُ لا غَير.

ويبين لنا النبيُّ ﷺ علامات الكِبْرِ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، عَلَيْهِ جُبَّةُ سِيجَانٍ مَزْرُورَةٌ بِالدِّيبَاجِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسِ ابْنِ فَارِسٍ قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسِ ابْنِ فَارِسٍ، وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعِ ابْنِ رَاعٍ، قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ، وَقَالَ: «أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ» ثُمَّ قَالَ:

---

(١) مسلم (٩١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤).

(٣) الكبائر للذهبي (ص: ٧٧).

إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قال لِابْنِهِ: «إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَ(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ»، قُلْتُ، أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ الْكِبْرُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: الْكِبْرُ هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: أَفَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «لَا»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: «سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْصُ النَّاسِ»(١).

فَسَفَهُ الحَقِّ يعني أن يَحُطَّ الإنسانُ من شأن الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس بأن لا يعطيهم قَدْرَهُم، فإذا حدث بينه وبين أخيه نقاش على سبيل المثال ردَّ الحقَّ لمجرَّد أنَّه لم يَقُلْهُ، وإذا دُعِي إلى حقٍّ مِن برٍّ للوالدين، وإحسانٍ للإنسانية، بادر بالإباء والامتناع.. وهذه العلامة مباشرة وواضحة: أن يظنَّ الإنسان أنَّه خيرٌ من غيره.

أخذ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رحمه الله هذه التربية القرآنية، فصدع بالحق للخلق، فقال: «مَنْ رَأَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدِ اسْتَكْبَرَ، وَذَاكَ أَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا مَنَعَهُ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِكْبَارُهُ»(٢).

---

(١) أحمد (٦٥٨٣)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٢)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٧١).

وما أجمل ما أنشده د. سعيد بن دحباج في الحطِّ على المتكبرين، وتمكين عقد الأخوة بين المؤمنين، حينما قال:

إخاءُ الدينِ يجمعنا سواءً ... فلا نَسْلٌ يفرِّقُنا وعِرْقُ
عبيدٌ كلُّنا للهِ نَحْنِي ... جِبَاهَ الذلِّ ليسَ هناكَ فَرْقُ
فقلْ لمن ادَّعَى فَضْلًا علينا ... وللأحرارِ زورًا يَسْتَرِقُّ
رويدكَ ما عَدَوْتَ بقولِ جهلٍ ... سوى إبليس في صفي يشُقُّ
دعاهُ الكبرُ حين أذاعَ قولًا ... أنا خيرٌ وبالعليا أَحَقُّ
وتزعمُ أنَّ طينتَكمْ خِلافٌ ... لِطِينَتِنَا وأنفسَكُمْ أرَقُّ
لعمرُ اللهِ ذاكَ مقالُ جهلٍ ... وبعضُ القولِ إسفافٌ وحُمْقٌ

وبعد أنْ عرفنا هنا الصِّفَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ اللتَيْنِ اتَّصَفَ بهما إبليس ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، ثُمَّ قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.. تعال بنا نتعرف على الصفة الثالثة من الثلاثية الإبليسية:

الصفة الثالثة: الكفر (تغطية الحقائق بدلًا من قبولها) ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

وهنا نتساءل:

لماذا ذكر الله ﷻ هذه الصفة الثالثة بهذا الأسلوب؟ وهل كلمة ﴿كان﴾ هنا تدل على أن إبليس كان كافرًا من قبل؟

والجواب: قيل[١] (كان) هنا بمعنى صار من الكافرين، كقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦]، وَقَوْل ابْنِ أَحْمَرَ:

بِـتَـيْـهَـاءَ قَـفْـرٍ وَالْـمَـطِـيُّ كَـأَنَّـهَـا قَطَا الْحَزْنِ قَدْ كَانَتْ فِرَاخًا بُيُوضُـهَا[٢]

ولكن الذي يظهر لي أنَّ (كان) هنا على بابها، فتدلُّ على الرُّسُوخ والثَّبَات في الصِّفَة حتى صارتْ سَجِيَّةً وطبعًا.. أي: رسخ في كفره، ولم يُرِدْ لنفسه أنْ يتوب بعد ذلك قطُّ، وهذا أسوأ ما يحصل للمخلوق من صِفَةٍ ثُمَّ مِن عُقُوبة!

ما الأسوأ من المعصية؟

ألَّا يُقذَف في قلبه حُبُّ التوبة..

عُمْرإبليس ممتدٌّ إلى يوم الوقت المعلوم، فيمكنه أن يتوب، إلا أنه يُصِرُّ على عِناده، فجعل نفسه راسخًا في الكفر، حتى صار الكفرُ سَجِيَّةً له.

وكلمة (كافر) مصطلح دقيق يدل على إخفاء الحقيقة الناصعة عن الآخرين، وتغطيتها بشتى السُّبُل.

وقد حاول إبليس أنْ يُغَطِّيَ الحقيقة الواضحة: حقيقة أن الآمر بالسجود لآدم هو الله ﷻ، ولم يكن آدم نفسه.. كان يحاول أن يُغَطِّيَ حقيقة أن يقوم المخلوق بالدَّوْر الذي هَيَّأَه له المَلِكُ الحقُّ المبين.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٩٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٣٢).

(٢) البيت لعمرو بن أحمر. ينظر: خزانة الأدب للبغدادي (٩/ ٢٠٥).

فقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ صَوَّرَ لنا أنَّ إبليس أضمر الكفرَ قَبْلَ أَمْرِ الله ﷻ للملائكة ﷺ بالسجود، وصَوَّرَ لنا رُسُوخَه في هذا الكفر، وهذا مثل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النمل: ٤١] دُونَ أَن يَقُول: أم لَا تَهْتَدِيَ؛ لِأَنَّهَا إِذَا رَأَتْ آيَةَ تَنْكِيرِ عَرْشِهَا وَلَمْ تَهْتَدِ، كَانَتْ رَاسِخَةً فِي الِاتِّصَافِ بِعَدَمِ الِاهْتِدَاءِ.

وَأَمَّا الْإِتْيَانُ بِخَبَرِ كان ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دُونَ أَنْ يَقُولَ: (وَكَانَ كَافِرًا)؛ فَلِأَنَّ إِثْبَاتَ الْوَصْفِ لِمَوْصُوفٍ بِعُنْوَانِ كَوْنِ الْمَوْصُوفِ وَاحِدًا من جمَاعَة تُثْبِتُ لَهُمْ ذَلِكَ الْوَصْفَ أَدَلُّ عَلَى شِدَّةِ تَمَكُّنِ الْوَصْفِ مِنْهُ مِمَّا لَوْ أَثْبَتَّ لَهُ الْوَصْفَ وَحْدَهُ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْوَاحِدَ يَزْدَادُ تَمَسُّكًا بِفِعْلِهِ إِذَا كَانَ قَدْ شَارَكَهُ فِيهِ جَمَاعَةٌ[1].

هنا لا بد أن نتدبر: لماذا فَضَحَ الله ﷻ هذه الصفات الثلاث في إبليس؟

الجواب- وفقك الله-: لأن هذه الصفات الثلاث بوابة سفك الدماء والإفساد:

فالإباء يعني رفض أمر الله ﷻ، وهذة معصية عظيمة من الكبائر، فإذا اجتمع الإباء مع الاستكبار أصبح الإنسان يقترب من أن يجعل نفسه نِدًّا لربِّه، وما يزال الاستكبار يَجُرُّ الإنسان حتى ينصب نفسه آمرًا مع الله تعالى كما تشاء نفسه لا كما يشاء ربُّه، فيصبح هذا الممتنع عن طاعة ربِّه المستكبر في نفسه من الكافرين، وإذا رسخ الكفر في الباطن، استحال الإنسان إلى وحش كاسر لا يتورع عن سفك الدماء، ولا عن معاقرة كل صور ووجوه الفساد والإفساد.

وسؤال آخر جدير بالوقوف عنده: لماذا قرن الله ﷻ بين هذه الصفات الثلاث الإبليسية؟

والجواب: إنَّ اقتران هذه الخصال الثلاث (الإباء، والاستكبار، والكفر) يدل على لزوم كل منها لأختيها، وهي في حال إبليس التعيس لزوم النتيجة للسبب، فلما استقرَّ في نفسه الإباء

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٧).

والاستكبار، أنتج كفرًا بالله ﷻ وتَمَرُّدًا عن الانصياع لأمره، وهكذا شؤم السيئات أن يجرَّ بعضها إلى بعض.

وقد امتازت سورة البقرة بجمع الأسباب الثلاثة معًا (الإباء، والاستكبار، وكونه من الكافرين) بينما ذكر الله ﷻ الإباء فقط في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: ٣١]، وذكر الاستكبار وكونه من الكافرين في سورة ص، فقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: ٧٤].. وإنما جمع الأسباب الثلاثة في هذه السُّورَة؛ لأن السُّورَة تنشئ الحضارة الجديدة التي ستشرق على العالم، وتربِّي أهل الأرض على مبادئ الاستخلاف الراشد.. هذا يعني أن يمنعوا سفك الدماء والإفساد في الأرض، وهذه الصفات السيئة: (الإباء والاستكبار والكفر) تؤدِّي إلى سفك الدماء والإفساد في الأرض، فالإباء الذي هو شدة الامتناع تصرُّفٌ خارجي يدل على محاربة الخير، والاستكبار سجية داخلية تدل على تعاظم صاحبها وعلى عجبه وزهوه وغروره، فتدفعه إلى التصرف الأهوج الأناني، فيؤول به الأمر إلى أن يكون من الكافرين، فيرسخ على الكفر ويثبت عليه ويدافع عنه، ولعله لهذا المعنى استطرد الطبري[1] في ذكر فائدة كبرى من هذه القصة تتعلق بتقريع الله لأمثال إبليس الذين يأمرهم الله ﷻ بإصلاح أوضاعهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فيكون ردهم ردًّا إبليسيًّا يأبون ويستكبرون، ويوشك أن يكونوا من الراسخين في كفرهم سائرين في الطريق الإبليسي، والقصة تلفت نظر المسلمين والإسرائيليين خاصة كما تلفت نظر العالمين إلى خطورة البعد عن النظام الذي شرعه الله ﷻ، والمضي في الخطوات الإبليسية..

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥١٠).

ومن أبرز من ذكر عنه هذا من المعاصرين رجلٌ من كبار الذين كانوا ينتسبون إلى العلم.. ثم آل به الأمر إلى الإلحاد، فكتب كتابه (الكون يحاكم الإله)، ولما بُحِث في سره الذي أفضى به إلى تلك الكرة الخاسرة، وجد عنده كبرٌ يجهر به ولا يسره، فهو يقول عن نفسه:

وَلَوْ أَنَّ مَا عِنْدِي مِنَ العِلْمِ وَالفَضْلِ ... يُقَسَّـمُ فِي الآفَاقِ أَغْنَى عَنِ الرُّسُلِ

وقال عن نفسه مظهرًا كبرًا فريدًا قاده إلى الكفر:

لو أنصـفوا كنـتُ المقـدَّمَ في الأمرِ ... ولم يطلبوا غيري لدى الحادثِ النُّكْرِ
ولـم يـرغـبـوا إلا إلـيَّ إذا ابـتـغـوْا ... رَشـادًا وحزمًـا يعزبـان عن الفكرِ
ولم يـذكروا غيري متى ذكر الـذَّكـا ... ولم يبصـروا غيري لدى غَيبة البدرِ
فما أنـا إلا الشَّـمسُ في غير بُرْجِها ... ومـا أنـا إلا الـدرُّ في لُجَجِ البَحرِ[1]

فآل به المطاف إلى أن ألحد، وصار حال هذا النوع من المتكبرين ما قال ابن تيمية رحمه الله: «أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهومًا وما أُعْطُوا علومًا، وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة وأفئدة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦]»[2].

فعلى رِسْلِكَ يا ابنَ آدم.. امش الهوينى.. وعَاوِدِ النَّظَرَ فيما منه خُلِقْتَ.. وعليه اشْتَمَلْتَ.. فما لك وللتكبُّر والتَّعَالِي؟

يـا مظهرَ الكِبْرِ إعجـابًـا بِصُـورَتِـه ... انـظُـرْ خَـلاءَكَ إنَّ الـنَّـتْـنَ تَـثْـرِيـبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّـاسُ فِيمَـا فِي بُطُونِهُمُ ... مَا اسْـتَشْـعَرَ الْكِبْرَ شُـبَّانٌ وَلا شِـيبُ
هَـلْ فِي ابْنِ آدَمَ غيرُ الرَّأْسِ مَكْرُمَـةً ... وَهْوَ بِخَمْسٍ مِنَ الأَقْذَارِ مَضْـرُوبُ

(١) ينظر: حطِّم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا (ص: ٤٢).

(٢) تقريب فتاوى ابن تيمية (١/ ٤٠٧).

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذْنٌ رِيحُهَا سَهِكٌ ... وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَالثَّغْرُ مَلْعُوبُ

يَا ابْنَ التُّرَابِ وَمَأْكُولَ التُّرَابِ غَدًا ... أَبْصِرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ[1]

بصَّرتنا الرؤية القرآنية في القسم الأول بمظاهر تكريم الله ﷻ للبشرية، والآن ننتقل إلى مشهد جديد يبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

فما المشهد الجديد الذي نراه هنا؟ وما المناسبة والاتصال بينه وبين ما قبله؟

الجواب: هنا يأتي:

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٨٥).

القِسم الثاني

تدريب آدم عليه السلام على إدارة الحياة المُنَظَّمَة خلال المدة التجريبية في الجَنَّة لِيستعدَّ للتَّعَامُل مع الواقع في الأرض [البقرة: ٣٥-٣٦]

المناسبة والاتصال:

في القسم الأول ذكر الله ﷻ بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأول (آدم عليه السلام) [٣٠-٣٤]، وفيه ظهرت للملائكة عليهم السلام الحكمة من خلق البشريَّة، واستبان لآدم عليه السلام أولياؤه وحلفاؤه، وتميز له أعداؤه، وامتلك الاستعداد لتكوين المعرفة المتراكمة من خلال معرفة أسماء كلِّ شيء.. عند ذلك أراد الله ﷻ لآدم عليه السلام أنْ يتدرَّب على الحياة الجديدة فأسكنه الجنة، ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾..

وهنا يمكن أنْ نُبْصِرَ الأصل التكريميَّ الثَّامِنَ في قصة آدم وحواء عليهما السلام، وهو إسكانه الجنَّة قبل انتقاله إلى الأرض، لكنَّه استحق أنْ يكون قِسْمًا مُسْتَقِلًّا، ويُنَوِّرُنا ذلك بمجموعة من البصائر:

> **بصيرة ١: خُلِقَ آدم عليه السلام للأرض وسُكْناها وعمارتها، ولتهيئته وزوجه عليهما السلام وإعدادهما لهذه المرحلة، لَزِمَ أن يخوضا مرحلةً تجريبيةً، وأن يحصلا على دورة تدريبية، ويُبصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.. وهذا من تمام تكريمهما.**

هنا ستسأل: كيف بصَّرنا قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] بأن الله ﷻ كرَّم آدم وزوجه عليهما السلام؟

أجيبك- وفقك الله-:

الله ﷻ يقول: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾.. هنا ترى الكلمات تشير إلى تكريمٍ ضمنيٍّ كبير أيضًا؛ فقد أظهر الله ﷻ اسم آدم في مخاطبته، ولم يقل (وقلنا له)، مع أنَّه ذكر اسمه في الآيات السابقة، وذلك زيادةٌ في تكريمه عليه السلام.. فنِدَاءُ آدَمَ عليه السلام «قَبْلَ تَخْوِيلِهِ سُكْنَى الْجَنَّةِ نِدَاءُ تَنْوِيهٍ بِذِكْرِ اسْمِهِ

بَيْنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لِأَنَّ نِدَاءَهُ يَسْتَرْعِي إِسْمَاعَ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَيَتَطَلَّعُونَ لِمَا سَيُخَاطَبُ بِهِ، وَيُنْتَزَعُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْعَالِمَ جَدِيرٌ بِالْإِكْرَامِ بِالْعَيْشِ الْهَنِيءِ، كَمَا أُخِذَ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا أَنَّهُ جَدِيرٌ بِالتَّعْظِيمِ»[1].

وقد تقول: فقد نادى الله ﷻ إبليس باسمه، فهل هذا تكريم؟

أجيبك:

التكريم لآدم عليه السلام فُهِمَ من السِّياق، فالسِّياق كلُّه تكريمٌ لآدم عليه السلام، وإنما نادى الله ﷻ إبليس باسمه، لإقامة الحجة عليه لا لتكريمه، ولأنَّ اسم إبليس يقتضي الواقع النفسي والمصيري المهين، فاختلف عن مخاطبة آدم عليه السلام.

وهنا ستسأل:

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ كيف عرفنا أنَّ الله ﷻ جعل لهما سكنى الجنة مُدَّةً تدريبيةً؟

الجواب- أيدك الله-:

آدم وزوجه عليهما السلام لم يُخْلقَا مثل أولادهما من بعدهما، فأولادهما يُخْلَقُون لأبوين، والأبوان يقومان بالكفالة لهم، فكلُّ طفل من أولادهما يُدَرِّبُه أبواه على كيفية الحياة، ابتداءً من المشي، والكلام والأكل والشرب إلى مرحلة ما بعد البلوغ، وأما آدم وزوجه عليهما السلام فخلقهما الله ﷻ كاملي الأجساد، ولا بُدَّ لهما أن يتعرفا كيف يديران حياتهما النِّظَامية، فكان لا بد أن يعيشا في أرضٍ تكون فيها كفالة لمعيشتهما، فاختار الله ﷻ لهما هذا المكان "الجنة".. ووصف الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٨).

تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ [البقرة: ٣٥].. ويشعر الرازيُّ رحمه الله بهذا المعنى القوي من الآية، وأَنَّ سكنى الجنة كان دورة تدريبية، فيقول: «فَهَاهُنَا لَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى: وَهَبْتُ لك الْجَنَّةَ، بَلْ قال: أَسْكَنْتُكَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُ لِخِلَافَةِ الْأَرْضِ، فَكَانَ إِسْكَانُ الْجَنَّةِ كَالتَّقْدِمَةِ عَلَى ذَلِكَ»(١).

ربما سألت: كيف جرى هذا النوع من التكريم؟ وكيف كان سكنهما في تلك الجَنَّةِ مُقَدِّمةً للتدَرُّبِ على إدارة الحياة عندما يكون آدمُ عليه السلام خليفةً في الأرض؟

وإليك الجواب في البصيرة الثانية:

> **بصيرة ٢: ألزم الله عز وجل آدم وزوجه عليهما السلام بنظامٍ يتضمَّن أوامرَ ونواهيَ، وينأى بهما عن السَّيْر خبط عشواء، وعن الاضطراب والفوضى فقال:** ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

هَلُمَّ نتلقَّ المعرفة التي تثيرها الآية..

فالمدة التدريبية لا بُدَّ أنْ تتضمَّن أوامر ونواهيَ، فهذا لبُّ النظام، وهو أساس النجاح في الحياة، وهو تدريبٌ على مقتضيات الخلافة القادمة في الأرض، وهيأ الله جل جلاله لآدم عليه السلام أعظم ثلاثة عوامل يحتاجها المخلوق لراحته:

---

(١) تفسير الرازي (٣/ ٤٥١).

العامل الأول: وجود السكن، إذ قال له: ﴿ٱسۡكُنۡ ۝٣٥﴾:

وانظر قوة الكلمة: فهي مشتقة من السكون.. إنها كلمةٌ تدلك على الاطمئنان، والأمان، والاستقرار، وعدم القلق.. تدل على السكينة وذهاب الانزعاج، وراحة البال، والجنة أعظم مكان مناسب لتلك السكينة:

إنَّها أرض مملوءةٌ بالأشجار البديعة الغدقة المثمرة وغير المثمرة، تتخَلَّلُها الأنهار، وتأتيها المياه من أنحائها، ويغلب عليها اللون الأخضر الذي يشكِّل بساطها، ويغطِّي سطحها حتى يُجِنَّ ما تحت أشجارها عن الأنظار أي: يُخْفيه ويستره، ويشكِّل لوحة غَنَّاء تطمح لها الأعين، وتتخَلَّلُها اللذائذ.

وقد تسأل: لماذا لم يقل الله ﷻ (ادخل) بدلًا من كلمة ﴿ٱسۡكُنۡ﴾؟

يجيبك عن هذا محمد رشيد رضا رحمه الله فيقول:

«لَمْ يَقُلْ: (ادْخُلْ)؛ لأنه لم يكن خارجًا، فيدخل، وَلَوِ انْتَقَلَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا إِلَى الْجَنَّةِ لَقال: هَذَا أَوْ مَا بِمَعْنَاهُ مِمَّا يُشِيرُ إِلَى الِانْتِقَالِ، فَقَوْلُهُ: (اسْكُنْ) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْخِلْقَةَ كَانَتْ فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ أَوْ بِالْقُرْبِ مِنْهَا»(١).

وأنبأنا النبي ﷺ أن آدم عليه السلام خُلِقَ في الجنة.. فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ -وفي رواية: لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ صَوَّرَهُ- تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ»(٢).

وهنا يأتي السؤال الذي يفرض نفسه:

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٣٠).

(٢) مسلم (٢٦١١)، والرواية الأخرى عند أحمد (١٣٦٦١)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

ما الغاية من السكن في هذه الجنَّة مع أَنَّ أَمْرَ نزوله إلى الأرض مُقَرَّرٌ سلفًا قبل أربعين سنة مِنْ خَلْقِه؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؟

لماذا لم يذهب فورًا إلى الأرض؟

الجواب:

لا يوجد لذلك سببٌ إلا التَّدَرُّب على الحياة الواقعية في مكانٍ.. ورُبَّمَا كانت مدَّةً لتجريب نمطٍ من الحياة يُؤَهِّلُه لحياة الأرض.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الجنَّة هي جنَّة الخلد أم هي جنَّة من جنان الدنيا؟ وذكروا كلامًا طويلًا، ولا يظهر من الخوض في ذلك فائدة إلا أننا نعلم أنَّ هذا المكان يسمى الجنَّة، وفيه من النعيم ما يقرب من نعيم جنَّة الخلد، وفيه النَّهي عن قرب شجرةٍ بعينها، وذلك لا يوجد في جنَّة الخلد التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.. وأهمُّ ما ينبغي أَنْ نَعْلَمَهُ أَنَّ الله ﷻ جعل سَكَنَ آدم عليه السلام دورةً تدريبيةً له على المعركة العظيمة بين دوافع الخير ونوازع الشَّرِّ.. ومدة تدريبية على تحكمه بإرادته، وتعامله مع عدوه، وعلى طريقة العيش؛ لأنه سيترك هذا النعيم، وقد اعتاد على كيفية مواجهة ما سيجده من تعبٍ وشقاء في الحياة في الأرض..

العامل الثاني: وجود رفيق يأنس به، قال تعالى مجده: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ۝٣٥﴾:

والزوج ما يُثَنِّي غيره، أي: يجعله ثانيًا لاقترانٍ بينهما على نحوٍ مخصوص، فَخَلَقَ الله ﷻ لآدم عليه السلام قرينةً هي زوجه حواء عليها السلام ليسكن إليها، فتأنس بها نفسه، ويسعد باللقاء بها قلبه كما خَلَقَهُ لها ليكون لباسًا لها كما تكون لباسًا له.. قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقد نقل بعض الصحابة كيفية خلقها –دون أن نتيقن صحة النقل هل هو مرفوع أم مروي عن الإسرائيليات– فعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ: «أُخْرِجَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأُسْكِنَ آدَمُ الْجَنَّةَ، فَكَانَ يَمْشِي فِيهَا وَحْشًا لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ خَلَقَهَا اللهُ مِنْ ضِلْعِهِ، فَسَأَلَهَا مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتِ: امْرَأَةٌ، قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: تَسْكُنُ إِلَيَّ، قَالَتْ لَهُ الْمَلائِكَةُ عليهم السلام يَنْظُرُونَ مَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ: مَا اسْمُهَا يَا آدَمُ؟ قَالَ: حَوَّاءُ. قَالُوا: وَلِمَ حَوَّاءُ؟ قَالَ: إِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ، فَقَالَ اللهُ: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ»(١).. وهذا يشبه الرواية التوراتية.

ويبين أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه شيئًا من طبيعة المرأة الجسديَّة والنفسيَّة فيقول: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»(٢).

العامل الثالث: الأَكْلُ الرَّغَدُ: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿٣٥﴾ ﴾:

والأمر بالأكل هنا لِيُعَلِّمَهُ أَنْ يُحَقِّقَ مِنْ خلاله الالتذاذَ وقضاءَ الشهوة والاقتيات بتوفير ما يُبْقِي الجسدَ حَيًّا نَشِطًا قادِرًا على الحركة مُبْرِزًا للقوة.. أي: كُلا هنيئًا واسعًا رافهًا لا يتعب صاحبه، ولا يجد فيه من يحاسبه.. فلا يهتم بدفع إيجار، ولا بتوفير ميزانية، ولا بنقصان معيشة؛ إذ الرغد يجتمع فيه عدة صفات فهو هنيء، وواسع، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر:

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٥١٣) عن السدي عن ابن عباس – وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، وابن ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٨٥) (٣٧٢) عن السدي.

(٢) البخاري (٤ / ١٦١).

بَـيْـنَـمَـا الْـمَـرْءُ تَـرَاهُ نَـاعِـمَـا يَـأْمَنُ الأَحْـدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَـدْ[١]

وكلمة ﴿حَيْثُ﴾ تستعمل للمكان العام غير المحدد، فأي مكانٍ أَحَبَّ قَصْدَهُ على وجه التَّوْسِعَةِ البالِغَةِ المزيحةِ لِلْعِلَّةِ والتَّضَجُّرِ والمَلَلِ، ولذلك تتعجب كيف استزلَّ إبليس اللعين آدم عليه السلام حتى ذهب إلى تلك الشجرة مع أنَّه يجد الرَّغد في تَنَعُّمِه بجميع أشجار الجنة؟!

ورُبَّمَا سألت: لماذا قَدَّمَ الله ﷻ كلمة: ﴿رَغَدًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] هنا وأَخَّرَها في قوله لبني إسرائيل: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]؟

الجواب – وفقك الله–:

لأنَّ الله ﷻ لَمْ يُبِحْ له الجَنَّة كُلَّها، بل حَدَّدَ منطقةً منع الاقتراب منها هي منطقة الشجرة؛ ولذلك قدَّم كلمة: ﴿رَغَدًا﴾ للدلالة على أنَّ الهناء في الأكل والسعادة والرَّاحة لا حدود له، أمَّا المساحة السكنية فواسعة غير أنَّه يوجد جزء مُحَرَّم ممنوع الاقتراب منه، وهو منطقة الشجرة التي أمر الله ﷻ أَبَوَي البشريَّة بعدم الاقتراب منها، وليس مجرَّد الأكل، بينما أُبيح لبني اسرائيل مساحة القرية كُلّها إلا أنَّ الرَّغَدَ في تلك القرية لا يمكن أن يصل إلى مستوى رغد جنَّة آدم عليه السلام، ولعل هذا من أسباب التقديم هنا والتأخير هناك مما يدل على الجمال البياني الأخَّاذ للقرآن المجيد.

وأيضًا قد تتساءل:

---

(١) نسبه لامرئ القيس: الطبري في تفسيره (١/ ٥١٥)، والماوردي في النكت والعيون (١/ ١٠٥)، والواحدي في التفسير البسيط (٢/ ٣٧٩)، وابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ١٢٧)، وغيرهم، وقال الشيخ محمود شاكر في حاشية الطبري: لم أجد البيت فيما جمع من شعر امرئ القيس.

لماذا جاءت الواو في قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] بينما جاء الفاء في قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]؟

أجيبك – أيدك الله–:

في قول الله ﷻ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] تلاحظ أنَّه عطف الأكل بالواو، ولكنَّه عطفه على السُّكْنَى، وذلك تمامًا مثل قوله ﷻ في شأن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١].. لكِنَّك ترى العطف بالفاء على الدخول بالنسبة لبني إسرائيل في موضع آخر هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، ومثل ذلك لأبوي البشريَّة ﷺ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

ويبسط الرازيُّ رحمه الله عَارِضَتَه التَّأَمُّلِيَّةَ المبدعة في هذا الموضع[1].. فليأذن لي في إدخال كلامٍ مع كلامه ليستبين سبيل المُتَدَبِّرين في الذِّكْرِ المبين: فكُلُّ فِعْلٍ عُطِفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَكَانَ الْفِعْلُ بِمَنْزِلَةِ الشَّرْطِ، وذلك الشيء بمنزلة الجزء، عُطِفَ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ بِالْفَاءِ دُونَ الْوَاوِ، وهنا كأنَّ الله ﷻ اشترط ليأكل آدمُ وزوجه ﷺ رَغَدًا أنْ يَسْكُنَا الجنَّة، وكذلك اشترط على بني إسرائيل أن يدخلوا القرية ليأكلوا، فالأكل مقيدٌ بالدُّخول، والدُّخول بالنِّسبة لآدم وزوجه ﷺ أمر تكريم، والدخول بالنسبة لبني إسرائيل أمر تكليف وإلزام، فإذا تَحَقَّقَ الدُّخول أمكن الأكل، فَعَطَفَ الأكلَ عَلَى الدُّخول بِالْفَاءِ لَمَّا كَانَ وُجُودُ الْأَكْلِ مِنْهَا مُتَعَلِّقًا بِدُخُولِهَا فَكَأَنَّهُ قال: إِنْ دخلتموها أَكَلْتُمْ مِنْهَا، فَالدُّخُولُ مُوصِّلٌ إِلَى الْأَكْلِ، وَالْأَكْلُ مُتَعَلِّقٌ وُجُودُهُ بِوُجُودِهِ.

(١) تفسير الرازي(٣/ ٤٥٣).

أما عطف الأكل على السُّكْنى فإنَّ السَّكَنَ مُتَحَقِّقٌ بعد الدُّخُول كما أنَّ الأكلَ متحقِّقٌ، فهما نعيمان متوازيان وليسا متتاليين، فناسب أن يكون حرف العطف بينهما الواو، فَلَمَّا لَمْ يَتَعَلَّقِ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ تَعَلُّقَ الْجَزَاءِ بِالشَّرْطِ وَجَبَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ دُونَ الْفَاءِ.

وبذا يكون قوله ﷻ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مُتَضَمِّنًا الأَمْرَ بالدُّخول، أي: ادْخُلْ فاسْكُنْ وَكُلْ، وكذا لبني إسرائيل: ادخلوا فاسكنوا وكلوا، فَنَبَّهَ في المواضع كُلِّها على ضرورة الدُّخُول ليتحقق نعيمُ السُّكْنى والأَكْلِ إمَّا تصريحًا وإمَّا تلميحًا.. نَصًّا أو اقتضاءً.

الانتقال:

ثم نقرأ بعد ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، فَرُبَّمَا تَعَجَّبْنَا: هَلِ النَّهْيُ عَنِ القُرْبِ أَمْ عَنِ الأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ؟

هنا تأتي:

> **بصيرة ٣: من أعظم أهداف الشريعة الإسلامية ومقاصدها تربية الإرادة القوية الذاتية في الإنسان؛ ليتعود على النظام الدقيق، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلم يقل: ولا تأكلا، بل نهى عن مجرد القرب، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا﴾.**

مدهشٌ جدًا أَنْ تَرَى أَنَّ أَوَّلَ الأهداف المرسومة من التنظيم الشَّرْعِيِّ للحياة الإنسانيَّة هو مَنْعُه مِن الظُّلْم..

إِنَّ الآية ترسم لنا بوضوح معالم الحياة المنظمة التي سيعيشها آدم عليه السلام في الجَنَّة، وتبين أنَّ ذلك كُلَّه مِنْ أَجْل سعادته حيث قال: ﴿رغدًا﴾، وحمايته من الوقوع في الظلم حيث قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولعل من أسرار النهي عن الاقتراب من منطقة الشجرة أن يُعَوِّد نفسه على الضبط النفسي، وأَنْ يتحكَّم بأفعاله الإراديَّة، ولذا قال له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والتقدير: ولا تقربَا هذه الشجرة، فإنَّكما إِنْ قَرِبْتُمَاها كُنتما من الظالمين، فصار الثاني في موضع جواب الجزاء[1].

«لقد أُبِيحَتْ لهما كُلُّ ثِمَار الجنَّة.. إلا شجرة.. شجرة واحدة.. رُبَّما كانتْ ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض، فبغير محظورٍ لا تنبت الإرادة، ولا يتميَّز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط، فالإرادة هي مفرق الطريق... والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين!».

ولذا يقول شيخ أطباء القلوب ابن الجوزي: «ما رأيتُ أَعظمَ فِتْنَةً مِن مُقَارَبَة الفتنة، وَقَلَّ أَنْ يُقَارِبَها إلا مَنْ يَقَعُ فيها، ومَنْ حَامَ حول الحِمَى، يُوشك أَنْ يَقَعَ فيه»[2].

يـا ثـالـثٌ يُـغْـرِي بِـكُـلِّ مـحـرَّم ... وَيُهَوِّنُ الفَحْشَـاءَ حتَّى تَصْـغُرُ

كَمْ صَـادَ في هـذا التَّحَيُّـلِ غَـافِلًا ... يـا حـيـلـةً هـي لـلـعـقـول تُـحَـيِّـرُ

قُرْبُ الحِمَى مُغرٍ بِكَسْـرِ سِـيـاجِـهِ ... مـا حـامَ حولَ حِمَى الإلـهِ مُظَفَّرُ [3]

ولكنك ربما تتساءل:

لماذا نهى الله ﷻ أبوينا عن أَنْ يقربا من الشجرة، ولم يقل لهما: ولا تأكلا من هذه الشجرة؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٢١).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٢١٧).

(٣) الثالث المقصود بالنداء في مطلع الأبيات هو الشيطان كما في الحديث: (لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ). ينظر: جالب السرور لربات الخدور، عبد الكريم الحميد (ص: ٣٦).

لقد نهاهما الله ﷻ عن مجرد الاقتراب من منطقة الشجرة؛ **لأن الاقتراب بداية الاضطراب، الاقتراب من المحرم دليل الرغبة والاضطراب**؛ لأنهما إذا اقتربا فسيبدأ الإغواء.

فيظهر أن النهي إنما كان عن الأكل، وليعينهما على أنفسهما وضع منطقة محظورة، فنهى عن قربها؛ لئلا يفكرا بالأكل، ويدل على ذلك أن النهي جاء بعد الكلام عن الأكل، وهذه سياسةٌ تربويةٌ عظيمة، وبابٌ جليلٌ من أبواب التربية والتزكية والفقه والسياسية؛

فإذا أردت أن تبتعد عن المعصية فلا تقترب منها، ولا تفكر بالوصول إلى الحمى، ولا تقل: أقترب منها، وأنا واثق من نفسي أنني لن أقع فيها؛ فإن وثقت بنفسك، فكيف تثق بالشيطان الذي لا يكل عن محاولة إيقاعك في الزلل؟! بل كيف بنفسك، وهي أمَّارة بالسوء؟!

وهذه السياسية التربوية الرفيعة مطردة في الشَّريعة الإسلامية، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وجمع ذلك في قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

لا تقربوا.. أي: اجعلوا بينكم وبين الحرام منطقة عازلةً كما يقال: منطقة منزوعة السلاح، فاجعلوا مسافةً كبيرة بينكم وبينه، واسمع للنبي ﷺ يُقَعِّدُ لهذه القضايا، فيقول في حديثه المشهور الذي عُدَّ ربع الدِّين: «وَالْمَعَاصِي حِمَى اللهِ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ» (البخاري: ٢٠٥١).

ولاحظِ الأسْلُوبَ القرآنِيَّ المُمَيَّزَ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.. فلم يجعل الله ﷻ النَّهْيَ عن طريق الاستثناء، فلم يقل الله ﷻ لهما: وكلا منها رغدًا حيث شئتما إلا هذه الشجرة فلا تقرباها، بل جعل النَّهْيَ عن القرب من الشجرة عن طريق العطف.

ورأى البقاعي أَنَّ سبب ذلك «ليكون آدمُ أعذرَ في النسيان؛ لأنَّ الاستثناء أهم في الخطاب من التخصيص»[1]، والذي يظهر لي العكس، فإن الله ﷻ أباح لهما بقوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أَنْ يأكلا من تلك الجنَّة الواسعة، ولم يستثن منها شيئًا إشارة إلى مقدار السعة الهائلة أمامهما لِيَتَمَتَّعَا بالأكل من الشجر، وجعل النَّهْيَ واضحًا، وليس استثناءً، كأَنَّه عندما نهاهما عن القرب من الشجرة نهاهما عن شيء لا علاقة له بالجنَّة؛ إذ لم يستثن منها شيئًا.

ولكنك قد تتساءل: فما نوع هذه الشجرة؟

أجيبك – وفقك الله–:

وهل من الضروري أن نعرِف شيئًا لم يخبرنا الله ﷻ عنه؟

يكفي أَنْ نَعرف أَنَّ «الشجر في كلام العرب: كُلُّ ما قام على ساقٍ، ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦]، يعني بالنَّجْمِ ما نَجمَ من الأرض من نَبْتٍ، وبالشَّجَرِ ما اسْتَقَلَّ على ساقٍ»[2]، والجنَّة مُلِئَتْ بالأشجار المغدقة المثمرة، ولذا سُمِّيتْ جَنَّة، ولا تجد مقتضىً معرفيًا لمحاولة الخوض في نوع هذه الشجرة ماذا تكون، كما قال الطبري رحمه الله: «ولو كان لله في العلم بأيِّ ذلك من أيٍّ رضًا، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٨٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥١٦).

عليها يَصلون بها إلى معرفة عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كل ما بالعلم به له رضًا»[١].

لقد انشغل بعض المفسرين بِصُوَرٍ نُهوا عن تَتَبُّعِها، فأشغلهم تَتَبُّعُها عمَّا ينبغي لهم الاشتغال به، فبعضهم زعم أنَّها الحنطة، وبعضهم يزعم أنَّها التُّفَّاحة رجمًا بالغيب، وتبعيةً لقصاص بني إسرائيل، واسمع إلى شيء من أعاجيب ذلك وأغاليطه، فقد روى الطبريُّ رحمه الله عن يعقوب بن عتبة رحمه الله: أنه حُدِّث أنها الشجرةُ التي تحتكُّ بها الملائكة عليهم السلام للخُلد[٢].

فماذا تقول في هذا الكلام الغريب؟!

هو يتكلم عن الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه عليهما السلام..

أليس هذا قذفًا شيطانيًا في عقول الناس؟!

الشيطانُ يَعِدُ آدمَ عليه السلام بشجرة الخُلد كاذبًا عليه، ثم يأتي من يُصَدِّقُ الشيطانَ بعد زمان، ويزعم أنَّها فعلًا شجرة الخلد!

وحسبك هذا الشر الشيطاني في التفكير بشيء لم نكلف بعلمه.

ولا أظنُّ هذا الدَّخَنَ قد تَسَرَّبَ إلى تراثنا التفسيريِّ إلا من البوابة الإسرائيلية، فإنك حينما تتبَّع خيوطه، وتقف من بُعْدٍ على آثاره في الثقافة الجَمْعِيَّةِ لليهود، تَجِدُ سُمَّهُ قد سرى سريان النار في الهشيم.. فهاهو الأديب الغنوصي اليهودي (ملتون) -على سبيل التمثيل- تغريه بلاغته في إحدى قصائده الشهيرة بأن يرسم لإبليس صورةً تكاد تَتَّسِمُ بالوُدِّ والعطف، وكأنَّه

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٢٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥١٨).

زعيم ثورة ضِدَّ السلطة الرسميَّة الاستبداديَّة، وفي قسم من ملحمته الشعرية ينهض الشيطان مدافعًا عن المعرفة:

المعرفة محرمة محظورة.. لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك؟ هل تكون المعرفة إثمًا؟ أو تكون فناء؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده؟ أو إن حالتهما السعيدة هي دليل طاعتهما وإيمانهما؟ سأثير في عقليهما مزيدًا من الرغبة في المعرفة[1].

وأنت لو أَجَلْتَ نظرك في كثير من إنتاجهم الأدبي لوجدت بضاعة رديئة مسمومة من هذا القبيل مبثوثة شائعة.

ثم نقرأ بعد ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، فربما تعجبنا: ما علاقة الظلم بالأكل من الشجرة؟

الجواب: هنا تأتي:

> **بصيرة ٤: مِنْ أعظم أهداف الشريعة الإسلامية ومقاصدها حماية الإنسان من الوقوع في الظلم، وخصوصًا الظلم الذي يُوَلِّدُه جَشَعُ الإنسانِ ليفعلَ ما لا يجوز له أَنْ يفعل.**

وقد تسألني عن معنى الظلم.. أجيبك:

الظُّلْمُ بالضَّمِّ عَرَّفَهُ الرَّاغِبُ بأَنَّه وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِه المُخْتَصِّ بِهِ إمَّا بزِيادةٍ أَو بِنُقْصَانٍ، وَإِمَّا بعُدُولٍ عَن وَقْتِه ومَكَانِه، ويُقَالُ فِيمَا يَكْثُر، وفِيمَا يَقِلُّ من التَّجَاوُزِ، وَلِهَذَا يُسْتَعْمَلُ فِي الذَّنْبِ الكَبِيرِ، وَفِي الذَّنْبِ الصَّغِيرِ، لذلِك قِيل لآدَمَ عليه السلام فِي تَعَدِّيه: ظَالِمٌ، وَفِي إِبْلِيسَ: ظَالِمٌ، وَإِن كانَ بَيْنَ الظُّلْمَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ[2].

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، (٤٣/ ١٤٣).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٥).

والظلم يسبب النقص والخسارة مع أن الظالم يظن أنه بظلمه يزداد من النجاح أو الإنجازات التي يصنعها لنفسه، ولَعَلَّهُ لذلك فَسَّرَ بعضُ المُفَسِّرين قَوله تَعالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، ولم تمنع أو تنقص، والصحيح أنَّ عدم ظلم الجنتين معناه: لم تضع الشيء في غير موضعه، فلم تنقص من ثمراتها، ولا أتت بها في غير موضعها لذةً وحلاوةً وإنتاجًا.

والظلم بذلك يسبب الظلمة، ويجلب معه الويلات في الواقع الإنساني الدنيوي والأخروي، ويَوْمٌ مُظْلِمٌ، كَمُحْسِنٌ أَي: (كَثِيرٌ شَرُّهُ)، أنشدَ سِيبَوَيْهِ:

فأُقْسِمُ أَنْ لَوِ الْتَقَيْنا وأَنْتُمُ ... لَكَانَ لَكُم يَومٌ من الشَّرِّ مُظْلِمُ[1]

فهذا في الدنيا أما في الآخرة فحسبك أَنْ ترى المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم، بينما يَئِنُّ الظالمون صارخين: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وأقول: الذي يظهر أنَّ الظُّلْم وَضْعُ الشيء في غير موضعه بنقصان أو زيادة أو تغيير، لتكون نتائجه كارثية على الفاعل وغيره، فيؤدِّي إلى النَّقص بدلًا من الزيادة، وإلى الدَّمار بدلًا من العمار، وإلى الاختلال بدلًا من الاستقرار.

وبذا يكون النَّهْيُ عن قُرْبان الشجرة تعويدًا على الانضباط والعدل، والامتناع من الجور والظلم.

وربما سألت: ما وجوه وصف أكلهما من الشجرة بالظلم؟

والجواب: وَصْفُ أَكْلِ آدم وحواء من الشجرة بالظلم من وجوه:

---

(١) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٠٧).

الأول: أنَّهما ظَلَمَا نَفْسَيْهِمَا بإيرادها موقف الخَسَارِ، الذي آل بهما إلى مفارقة الجنة ونعيمها ورغدها.

الثاني: أنَّهما خالفا أَمْرَ رَبِّهما الرؤوف الرحيم، وأطاعا الشيطانَ العَدُوَّ الرَّجِيم، وأي ظُلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ هذا؟!

الثالث: أنَّهما كَدَّرَا الحال الذي خُلِقَا عليه، مِن تمام وكمال العبودية لله والالتزام بأمره، وأَوْرَدَا عليه وَارِدَ العصيان والمخالفة المقتضي للندامة والحسرة.

الزَّلَّةُ الأُولى في تاريخ البشريَّة:

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]..

وهنا نتساءل:

فما الصورة التي تقدمها كلمة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؟

الجواب – وفقك الله –: هنا قراءتان تُصَوِّرَانِ مَشْهَدَيْنِ:

المشهد الأول: تُوَضِّحُه قراءة الجمهور ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ من الزَّلَلِ، أي: أوقعهما في الزَّلة، أي: في الخطيئة، وهذه الكلمة تُصَوِّرُ لك الواقع، حيث ترى الإنسان ثَابِتَ الخطا راسخ الْقَدَمِ عَلَى الشَّيْءِ، فَيَزِلُّ عَنْهُ، فيسقط ويقع، كَالزَّلَقِ بِأَنْ تَسِيرَ الرِّجْلَانِ عَلَى الْأَرْضِ بِدُونِ اخْتِيَارٍ لِارْتِخَاءِ الْأَرْضِ بِطِينٍ وَنَحْوِهِ، وزلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه، وأزلَّه غيره: إذا سبب له ما يزلّ من أجله في دينه أو دنياه[1]، فيكون المعنى: أوقعهما في الزلة ﴿عَنْهَا﴾ أي الزلة الناتجة عن الأكل من الشجرة.

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٢٤).

«ويا لَلتعبير المصور: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾.. إنه لفظٌ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي!»[1].

بصيرة ٥: أَنْ يَزِلَّ آدمُ عليه السلام نَبِيُّ الله المُجْتبى، المجاور للملأ الأعلى، حديث العهد بتكريم الله ﷻ إياه، وتنطلي عليه حيلة إبليس اللعين ينبينا ألا نأمن على أنفسنا من الوقوع في حبائل الشيطان أشراكه التي ينصبها لنا بكلِّ سبيل.

المشهد الثاني: توضحه قراءة حمزة ﴿فأزَالَهما﴾ بمعنى إزَالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه، ويظهر لي أن معنى (فأزالهما الشيطان عنها): أنَّه نَحَّاهُمَا تَنْحِيةً صادرةً عن التشويق للشجرة، أي: زَيَّنَها لهما فأزالهما عن المنطقة الواسعة التي سُمِحَ لهما بالحركة فيها، فدخلا في منطقة الشجرة المحظورة التي نهاهما الله ﷻ عنها، فالضمير في: ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الجنة، وهذا التفسير أضفى معنى جديدًا بسبب قراءة حمزة، ولا يكون هناك وجهٌ لِرَدِّها، أو ترجيح غيرها عليها، بسبب أنَّ المعنى الذي دَلَّتَ عليه مُتَكَرِّر، فقد فعل ذلك شيخ المفسرين الطبري، فَقَدَّمَ قراءة الجمهور، واحتجَّ على ذلك بأنَّ معنى الإزالة التنحية والإخراج، فيكون معنى قوله: ﴿فَأَزَالَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ على قراءة حمزة عنده كقوله: فأزالهما الشيطان عنها فأزالهما مما كانا فيه[2].. أي: فلا يكسب معنى جديدًا لكن الذي أظهرته من المعنى أظهر معنى جديدًا كما رأيت.

ونجمع بين القراءتين الواردتين في الآية (فأزالهما، فأزلهما) ليكون المعنى الكلي:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٣٣).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٢٥).

فاستزلَّ الشيطانُ آدمَ وزوجَه ﷺ عن طاعة الله بسبب التشويق للشجرة، فأكثرا التفكير في المنطقة المحظورة حتى هوَّنا من الاقتراب منها، وظنَّا أنَّه يكفي عدم الأكل من الشجرة لأنَّه المقصود بالنهي، وتهاونا في دخول منطقتها المحظورة حتى أزالهما من منطقة السماح ودخلا المنطقة المحظورة، والضمير في كلمة: ﴿عَنۡهَا﴾ عائد إلى الشجرة، وكل ذلك صادرٌ عنها، أي: بسبب التفكير المُشَوِّقِ لها، وهناك بدأ الشيطان جهدًا جديدًا معهما لِيُهَوِّنَ عليهما مِنْ أَكْلِها حتى قاسمهما أنَّه لهما من الناصحين ودَلَّاهُمَا بغرور، فأوقعهما في الزَّللِ مجددًا بسبب الشجرة، حيث ذاقاها كما تصور سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وأكملا الذوق لإكمال عملية الأكل كما تُصَوِّرُ سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾ [طه: ١٢١].

﴿ فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ من النعيم، فلم يبعدهما عن المكان الذي أكلا فيه من الشجرة فقط، وإنما أخرجهما من النعيم والتنعم الذي كانا فيه، فهذه الجملة صفةٌ تأسيسية تؤسس لمعنىً جديد وهو أنهما تركا النعيم الذي كانا فيه، وأول ذلك النعيم الشعور بالستر حيث بدت لهما سوءاتهما.

والضمير في ﴿عَنۡهَا﴾ يمكن أن يكون للجنَّة، ويمكن أن يكون للشجرة، أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان في زلتهما عنها، وجعل زلتهما ناشئة عنها، و(عن) هذه مثلها (عن) في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢].. أي: ما فعلته صادرًا عن أمري.. وقيل: فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: زلّ عن مرتبته.

ويمكن إعمال المشترك هاهنا، فيقال: فأصدر الشيطان زلتهما عن الشجرة، فأذهبهما من الجنة، **وأنت تراهما في كلمة ﴿فأزلهما﴾ وقد تعثرا وهويا فوقعا في شباك المعصية التي كانت علامة على الإخراج من الجنة**، وحينها جاءت صورة ﴿فأزالهما﴾ حيث استطاع أن يُزيلهما

عن المنطقة الواسعة الحلال في الجنة بسبب التشويق لتلك الشجرة، فأخرجهما من الجنة التي لم يكونا يجدان فيها الألم والكدح والشقاء.

وهنا قد نتساءل عن قول الله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦]، فهي تُصَوِّرُ لنا أنَّ الشيطان كان سبب الزلل، والإزالة، والإخراج، فهل هذا يعني أنه لا ذنب للإنسان فيما أغراه به الشيطان؟

الجواب: هنا تأتي:

بصيرة ٦: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ تبصرنا بوجوب الحذر الشديد من ارتخاء الدفاع البشري أمام الشيطان، وضرورة تنمية خواطر الخير مقابل خواطر السوء، وتقوية الجدار الدفاعي، وتجنب التراخي في مدافعة الكيد الإبليسي.

هنا ترى أن الله ﷻ نسب الإزلال والإخراج إلى إبليس..

أيها الحبيب:

لا تخدع نفسك.. لا تظنن أن الله ﷻ نسب وقوع أبوينا في الزلل لإبليس ليبرئهما من جنايتهما، أو ليبرئك من ذنوبك..

أي أسير الخطايا:

لا تخدع نفسك، فالله ﷻ نسب إلى إبليس إيقاعهما في الزلل ليبين قوة تأثيره عندما ترخي دفاعاتك أمام مكره وتدبيره..

انصِبْ شِرَاعَكَ عاليًا ... إنَّ العواصفَ عاتيهْ

والزمْ دفاعَكَ عنْ حُصُو ... نِكَ فالخصومةُ باديهْ

إِنْ تُـرْخِـيَـنْ أقـواسَ عَـزْ مِـكَ تَسْـقُـطَـنْ في الـهـاويـهْ[١]

أَيُّهَا الباحثُ عن نُورِ الطاعة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ تذكرك أن الإرادة الشخصية تصنع القرار..

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ تصور لك أن إبليس لم يكن ليوقعهما في الزلة لولا قابليتهما لذلك.. لم يكن ليقدر على إخراجهما لولا ارتخاء جدارهما الدفاعي

أَيُّهَا الباحثُ عن النُّور:

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ جعل علماء التربية القلبية يقولون لك: هب أن زَلَّةَ آدَمَ عليه السلام كَانَتْ بِسَبَبِ وَسْوَسَةِ إِبْلِيسَ، فَمَعْصِيَةُ إِبْلِيسَ حصلت بوسوسة مَن؟

أَيُّهَا المُخْبِتُ المنيبُ:

تذكر أن الإرادة الشخصية لإبليس أوقعته، والإرادة الشخصية لآدم وزوجه عليهما السلام ساعدت إبليس لتكون وسوسته كافية لتخترق جدار التقوى الذي كان يحميهما.

أَيُّهَا المُتَطَلِّعُ لحلاوة الطَّاعة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تُذَكِّرُكَ مَكْرَ إبليس.. استمع للآية المنقذة، لقد سَمَّاهُ الله عز وجل هنا ﴿الشيطان﴾، ولم يُسَمِّهِ إبليس كَمَا سَمَّاه عندما رفض السجود لآدم عليه السلام.. هل تدري لماذا؟

لأن اسم إبليس يصف قنوط هذا المخلوق، ويأسه، وإحباطه..

أما الشيطان فيصف عمله النشط المتحرق لإغواء الآخرين، حيث يظهر إجرامه في الآخرين، فهو الذي شطن أي بعد عن الخير في حركته، وهو الذي شاط أي اشتعل غضبًا

(١) الأبيات للدكتور/ سعيد بن دحباج -وفقه الله-.

وحقدًا عليك، أيها الحبيب: هل تسلم نفسك لهذا الذي يتميز غيظًا، ويقذف حممه غيظًا منك؟!

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تُمِدُّكَ بأنوار اللطف الإلهي الدائم بالبشريَّة، فقد سمَّى الله ﷻ ما وقع فيه آدم وزوجه عليهما السلام (زلة) تخفيفًا عنهما.

إِنَّهُ اللُّطْفُ الإِلَهِيُّ:

لم يُسَمِّ الله ما وقعا فيه ذنبًا أو خطيئة، بل زلة.. إنه الله: أرحم بالعبد من أخيه، ومن أبويه، فهو الذي أجزل لك العطاء.. وأرحم بك منك، فقد وصف فعل آدم في سورة طه بوصفين شديدين حيث قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١].

إِنَّهُ اللُّطْفُ الإِلَهِيُّ:

فعصيان آدم وغوايته لم يكونا إلا زلة عابرة سيعودان بعدها إلى سعادة الهداية..

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ رسالة واضحة لك ولي..

نحن -بني آدم- تظهر لنا قوة المعركة الشرسة بيننا وبين الشيطان، لكنها تدعوك ألا تيأس عندما تقع أسيرًا لخطيئتك.. انهض من كبوتك، فأنت تملك العزم.. تملك الإرادة لتهزم الشيطان في جولتك القادمة.

أَيُّهَا السَّجِينُ فِي عالم الأنين بسبب مَحَبَّةِ المعصية:

أسند الله ﷻ التسبب في هذه الزلة في المقام الأول إلى الشيطان؛ لأنَّ الله ﷻ يُعلمك باستعار المعركة بينك وبين الشيطان، فكيده ضعيف، لكنه يقوى عندما تساعده في سعيه العنيف.. إن الله ﷻ يحدث أبناء آدم عن البدايات الأولى لهذه الحرب حتى لا تغفل نفوسهم، ولا ترتخي دفاعتهم.

أمَا آنَ يا صاحِ أنْ تستَفيقَا ... وأنْ تتناسَى الهَوى والفُسوقَا

و قد ضـحِكَ الشـيبُ فاحزنْ لهُ ... وصـارَ مسـاؤُكَ فيـه شُـروقَا

ألا فـازجرِ الـنفـسَ عـنْ غـيِّـهـا ... عسـاكَ تجوزُ الصـراطَ الـدَّقيقَا

ودونَ الصـراطِ لَـنَـا مـوقـفٌ ... بـه يتناسَـى الصـديقُ الصَّـديقَا

فتُبصـرُ مـا شـئـتَ كَفًّا تُعضُّ ... وعـيـنًـا تَسِـحُّ وقـلْـبـا خَـفُـوقَـا

إذا أطـبـقـتْ فـوقَـهُـم لـم تـكـنْ ... لِتَسْـمَـعَ إلا البُـكَـا والشَّـهِـيقَـا

شـرابُـهُـم الـمُـهْـلُ في قـعـرِهَـا ... يُـقَـطِّـعُ أوصـالَـهُـمْ والـعُـروقَـا[1]

أخي.. يا صَاحِبَ العينين المُشِعَّتَيْنِ بطموح الوصول إلى محبة الله ﷻ:

هاهو حديث ابن مسعود ﷺ يصف كيف يوسوس الشيطان، ويتمكن من السيطرة على الإنسان، فيقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ، فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ، فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾»[2].

أخي الحزين من ذنوب السنين:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦]، تبصرك بخطورة العصيان لكنها تنبهك إلى كرم الرحيم المنان

يَـا نَـاظِـرًا يَـرْنُـو بِـعَـيْـنَـيْ رَاقِـدٍ ... وَمُشَـاهِـدًا لِلأَمْرِ غَيْرَ مُشَـاهِـدِ

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (ص: ٢٠٧).

(٢) الترمذي (٢٩٨٨)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٢٨) وصحح سنده في هداية الرواة (٧٠)، (النصيحة ٣٤) وفي تراجعات الألباني أن هذا الحديث مما صححه الألباني ثم حسنه.

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ

وَنَسِيتَ أَنَّ اللهَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ[1]

لننتقل الآن إلى بصيرةٍ مُهِمَّةٍ زَوَّدتنا بها المعرفةُ القرآنية، فيحق لك أن تتساءل:

لقد خاطب الله ﷻ آدم عليه السلام بسكنى الجنة، وجاء التعبيرُ القرآنيُّ عن كُلِّ المراحل بضمير التثنية، فقال الله ﷻ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦]؟

بصيرة ٦: المسؤوليةُ مُشْتَرَكَةٌ بين الرَّجُل والمرأةِ في الطَّاعةِ والمعصية، ويُبَصِّرُنا بذلك خطابُ التَّثْنِيةِ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ المُبَارَكَتَيْنِ: ﴿وَكُلَا﴾، ﴿شِئْتُمَا﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، ﴿فَتَكُونَا﴾، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ ﴿كَانَا﴾، وليس كما يَزْعُمُ المُحَرِّفُونَ مِنْ أَنَّ سَبَبَ الذَّنْبِ كان المرأة.

لاحِظْ كيف جعل الله ﷻ مسؤولية الوقوع في الزَّلل عليهما معًا.. فقد اشترك الرجل والمرأة في الاستجابة للشيطان، ويتكرر الأمر في سورة الأعراف، حيث تجد أنَّ الخطاب يأخذ هيئة المُثَنَّى بصورةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، ويُحَمِّلُهما المسؤولية معًا، حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا

(١) نسبه لمَحْمُود الْوَرَّاق: ابن أبي الدنيا في العقوبات (ص٧٦)، وابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/ ٤٠٣)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وذيوله (١٩/ ١٢٠).

ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] ..

ومثل ذلك في سورة طه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: ١١٧-١٢١].

القرآنُ يَقُصُّ علينا القصصَ الحَقَّ، ويُوَضِّحُ لنا صورةَ ما حدث في أَوَّلِ تاريخ الإنسانيَّة، ويُصَحِّحُ الانحرافَ المعيبَ لِمَنْ حرَّف التوارة، وذكر فيها أَنَّ زَلَلَ آدم كان بسبب حواء، مع أَنَّ الزَّلل كان من آدم وحواء عليهما السلام معًا.. بل هذه الآيات تُلْمِحُ أيضًا أَنَّ المسؤولية الكبرى تقع على عاتق آدم عليه السلام، ولذا تجد الخطاب لآدم عليه السلام أحيانًا في هذه الآيات دون حواء عليها السلام، وهذا كُلُّه يُبَيِّنُ كَذِبَ الرِّواية الكتابية التي تزعم أَنَّ سبب إغواء آدم عليه السلام هو حواء عليها السلام.

وهنا ستقول: فما الذي يُوجَدُ في التَّوراة الحالية مِن التَّحْريف في هذه القِصَّةِ حتى نحكم بِأَنَّ القرآن صَحَّحَ أَخْطَاءَها؟

الجواب- وفقك الله-:

رواية التوراة الحالية تلقي باللائمة على المرأة، وتجعلها السبب في إغواء آدم عليه السلام، حيث جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين أَنَّ سبب زلل آدم هو حواء عليها السلام، وأَنَّ سبب زلل حواء عليها السلام هو الحية! وقد احتالت بدهاءٍ لتغوي حواءَ عليها السلام ابتداءً، فتقرَّبَتْ إلى حواء عليها السلام بالكلام، اسمع إلى هذه الرواية الغريبة في سفر التكوين ٣:

(١): وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقًّا قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة.

(٢): فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل.

(٣): وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

ومن عجيب هذه الرواية أنَّ الشيطان لا يظهر فيها أبدًا، بل تقوم بدوره الحَيَّةُ، ولكن هذه الحَيَّةَ لا تظهر عَدُوَّةً كاذبةً، بل تظهر في هذه الرواية الآثمة صادقةً تريد مصلحة حواء وزوجها عليهما السلام، واسمع للبقية:

(٤): فقالت الحية للمرأة: لن تموتا.

(٥): بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر

انظر كيف تظهر الرواية صدق الحية المزعومة، وعند ذلك انساقت المرأة لكلام الحية، وتغيرت نظرتها للشجرة، ومارست إغواء آدم للأكل منها:

(٦): فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل.

(٧): فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.

وهكذا يظهر أنَّ السبب في مصيبة الأكل كان حواء عليها السلام، ليس لأنَّ الحيَّة كَذَبَتْ عليها، بل كانت الصادقة.. فانظر كمية التحريف في هذه الرواية..

وهذا النص عجيب.. فبدلًا من أن يموتا كما هددهما ربهما انفتحت أعينهما، فصارت الحية صادقة، وأظهرت هذه الرواية الكاذبة الرَّب في مقام الكذب.. فهل تصور هذه الرواية الرب عاجزًا عن تحقيق وعيده؟

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.. ثم لماذا الإصرار على أنَّ الله ﷻ أراد منعهما من معرفة الخير والشر؟

بينما تجد الرواية القرآنية تظهر أجمل تكريم لآدم عليه السلام فقد كان أبرز ما مَيَّز آدم معرفته للأسماء كُلِّها، ومعرفة الأسماء يدخل فيها معرفة الخير والشَّر.

وحسب الراوية التوراتية فإن الحيَّة هي التي أغوت حواء عليها السلام التي أغوت آدم عليه السلام..

وتناقل بعض المفسرين هذه الرواية كأنَّها ثابتة، فكيف ذلك، وقد ظهر لنا من الكتاب المهيمن على الكتب السابقة أنَّ رواية إغواء حواء لآدم عليها السلام مُزَوَّرَةٌ في ذاتها كما ترى، بل كانا شريكين في الفعل، والتَّبِعَةُ على آدم أعظم.. وقد حاول بعضهم أَنْ يستدلَّ على صحة قصة الحيَّة بقول النبي ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْحَيَّاتِ مَخَافَةَ طَلَبِهِنَّ، فَلَيْسَ مِنَّا، مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ»[1].

ولا أدري ما علاقة هذا القول المبارك بقصة آدم عليه السلام إلا محض التخمين وإلا فإنَّ معنى الحديث كما يقول محمد شمس الحق العظيم آبادي (ت ١٣٢٩هـ): «فَإِنَّ الْمُحَارَبَةَ وَالْمُعَادَاةَ بَيْنَ الْحَيَّةِ وَالْإِنْسَانِ جِبِلِّيَّة؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مَجْبُولٌ عَلَى طَلَبِ قَتْلِ الْآخَر»[2].. أي: مثل العدواة بين السِّباع الضَّواري والإنسان، ثم نقل عن القاري هذه الرواية التوراتية، ولعلك توافقني في أن تقول رافضًا قبولها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وربما تسأل هنا: فكيف نفهم قول النبي ﷺ: «وَلَوْلاَ حَوَّاءُ عليها السلام لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدهر»[3]، حيث يظهر أنَّ هذا الحديث يحمل حواء عليها السلام جزءًا خاصًّا من المسؤولية؟

الجواب:

---

(١) أحمد (٢٠٣٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٩ / ٢٥٣٣).

(٣) البخاري (٣٣٩٩).

نفهم هذا الحديث كما نفهم كُلَّ الآيات والأحاديث المقبولة التي وردت، بأن نُرجِع المتشابِه منها إلى المُحْكَمِ، وقد ثبت لنا في الآيات أنَّ المسؤولية مشتركة بين آدم وحواء عليهما السلام في الأكل من الشجرة، بل إن التبعة فيها على آدم عليه السلام أكثر، فنرد هذا الحديث إلى ذلك، وأدقُّ عبارة أرتضيها في شرحه وتوجيهه ما قاله ابن الجوزي: «وَأما خِيَانَة حَوَّاء زَوجهَا عليها السلام فَإِنَّهَا كَانَت فِي ترك النَّصِيحَة فِي أَمر الشَّجَرَة لَا فِي غير ذَلِك»[(١)]، فنجده يدل على وصف الطبيعة الإنسانيَّة تمامًا لا على أنَّها أَغْوَتْهُ أو زَيَّنَتْ له الأكل، فمن أين ذلك، وظاهر القرآن يأباه؟[(٢)].

فلا نجد -مثلًا- لحواء عليها السلام ذِكْرًا في بعض مشاهد القصة المباشرة مثل قول ربنا عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]..

ثُمَّ رَتَّبَ على ذلك أَنْ أَكَلا معًا مع أَنَّ المُوَسْوَسَ له هنا هو آدم عليه السلام، وظهر أنَّ اللوم وقع في المقام الأول عليه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، بينما اشترك كُلٌّ منهما في وسوسة الشيطان لهما في سورة الأعراف.

والمقصود أنَّ الإصرار على أنَّ حواء عليها السلام هي سبب الأكل من الشجرة لا يظهر له دليل أو مستند في المعرفة التي نستلهمها من القرآن أو السنة.

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٥٠٤).

(٢) وتلقى عدد من علمائنا ذلك، فرددوه دون تمحيص، ففي فتح الباري لابن حجر (٦ / ٣٦٨) مثلًا: «وقوله: «لم تخن أنثى زوجها » فيه إشارة إلى ما وقع من حواء عليها السلام في تزيينها لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهها بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها».

وانظر الفرق بين المعرفة القرآنية التي هي معرفة الوحي الحقيقي، وبين الجهل الإنساني، والتلاعب بالنص الإلهي هنا:

فالقرآن يبين أنَّ آدم وحواء عليهما السلام كانا مستورين، ولم يكونا عاريين أصلًا؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: ٢٧]..

فاللباس كان عليهما.. بينما تجد النصَّ المحرَّف السابق يظهر أنَّهما استفادا علمًا كانا في غفلة عنه دلَّ عليه انفتاحُ أَعْيُنِهِما.

ألا تجد فرقًا كبيرًا بين النصين؟

وتَابِعِ النَّصَّ المنسوب إلى التوراة لِتَجِدَ أَنَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَعْلَمَ رَبُّهُمَا بأمرهما فورًا كان لا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ ذلك عن طريق الاستنباط:

٣: ٨: وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة.

٩: فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟

١٠: فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت.

١١: فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟

١٢: فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت.

١٣: فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت.

فالمعرفة التي تقدمها التوراة الحالية تخالف المعرفة القرآنية في وجوه كثيرة كما هو واضح.

وقد نظم د. سعيد بن دحباج –وفقه الله– مظاهر التكريم الإلهي لآدم عليه السلام في الأبيات الآتية فقال:

كـرَّمَ اللهُ في الـخـلـيـقـةِ آدَمْ ... فـعـلـيـهِ صَـلَّـى الإلـهُ وَسَـلَّـمْ

قـبـلَ أنْ يـخـلـقَ الإلـهُ أبـانـا ... وضـع المنهجَ والسـبيلَ وعَلَّمْ

ولـه هَـيَّـأَ الـمُـقَـامَ بـأرضٍ ... ولـهُ سـخَّـرَ السـمـاءَ وأَخْـدَمْ

وبـهِ بشَّـرَ الـمـلائـكَ لـمَّـا ... قـرُبَـتْ سـاعـةُ الـقـدومِ وأَعْـلَـمْ

وحباهُ رَسْـمَ الخلافـةِ أضْـحَى ... مركزَ الكونِ ذا المقامِ المُعَظَّمْ

خصَّـهُ اللهُ بـالـعـلـومِ وبـاهَـى ... وبـأسـمـاءِ كُـلِّ شـيءٍ وألْـهَـمْ

حـيـنـهـا خَـرَّتِ الـمـلائـكُ طَـوْعًـا ... وسـجـودًا لِـمَـنْ أحـبَّ وأَكْـرَمْ

ثـمَّ أوحـى إلـيـهِ ربٌّ رحـيـمٌ ... حـاذِرَنْ حـاذِرَنْ عـدوَّكَ والْـزَمْ

اِلْـزَمَـنْ هـديَ ربـكّ تـنـجُـو ... بهدى اللهِ مِـنْ عـدوِّكَ تَسْـلَـمْ

القسم الثالث

الهبوط إلى الأرض، وعوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا {البقرة: ٣٦-٣٩}

العامل الأول

استيعاب أنَّ الاستخلافَ الأَرْضِيَّ تشريف وتكليف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

العامل الثاني

الاستعداد لمواجهة العداوات المستقبلية، والفشل نصيب من جعل عدوَّه صديقًا له؛ إذ العداوة هنا أبدية: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

العامل الثالث

الاستفادة من البيئة المهيأة مكانيًّا، وزمانيًّا ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

العامل الرابع

التوبة متاحة عند أي فشلٍ مؤقَّت في المعركة مع الشيطان باقتراف المعصية ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

العامل الخامس

اتباع المنهاج الإلهي والدستور الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضية؛ لضمان عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على الماضي: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

القسم الثالث

الهبوط إلى الأرض، وعوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا

[البقرة: ٣٦-٣٩]

آيات هذا القسم:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة ٣٦-٣٩].

المناسبة والاتصال:

أَوَّلُ ما يتبادر إلى ذهنك المُتَدَبِّر: ما المناسبة والاتصال بين هذا القسم والذي قبله؟

الجواب – أيدك الله–:

الآن ننتقل إلى فصل جديد من قصة الوجود الإنسانيِّ الأَوَّلِ، وما وقع لأبي البشريَّة آدم وزوجه عليهما السلام، تجري أحداثه في مكانٍ آخر، حيث يقول الله ﷻ مُبَيِّنًا ماذا حدث بعد الزَّلَلِ الذي وقعا فيه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

فبَعْدَ أَنْ أخرج الشيطان آدم وزوجه عليهما السلام مِمَّا كانا فيه مِنَ التَّمَتُّعِ والنَّعِيم، وكان الأكل من الشجرة سببًا في انتهاء المُدَّةِ التَّجريبية التي قضاها الله ﷻ لهما في الجنَّة.. بَيَّنَ الله ﷻ لهما ولسائر البشريَّة أَنَّ هذا الحادث علامة على أَنْ يَنْزِلَ آدم وزوجه عليهما السلام إلى الأرض التي خُلِقَ منها ليكون خليفة فيها، وبَيَّنَ له وللبشريَّة عوامل النَّجاح في هذا الاستخلاف، وهنا نجد البصائر القرآنية تُعْطِينا وَصْفًا دقيقًا لهذه العوامل، فلنتتبعها من الآيات:

ستقول: فأَوَّلُ آيات هذا القسم مُشْتَرَكَةٌ مع القسم السابق؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦] فما عامل النَّجاح في الاستخلاف الأرضيِّ الذي نُبْصِرُه في هذه الآية؟

أجيبك:

العامل الأول: استيعاب أَنَّ الاستخلافّ الأَرْضِيَّ تشريف وتكليف:

وليس بسبب نظريَّة الخطيئة الأصليَّة التي يزعم أصحابها أنَّها انتقلت من آدم إلى بنيه بغير ذنب منهم، ويبصرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] مع قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وبذا تَتَّضِحُ طبيعة الوجود الإنسانِيِّ في الأرض، فخروج آدم وزوجه ﷺ إلى الأرض جزء مُقَرَّرٌ مُسْبَقًا ضِمْنَ الخُطَّةِ الكونيَّة في الخَلْقِ، ووقوعهما في الزَّلل علامة على الخروج، وإِنْ كان في لمحة منه تأديبًا لهما على ما وقع من الزَّلل، لكن الله ﷻ محا السيئة المُتَرَتِّبة عنه بالتوبة.

انظر إلى توالي الأحداث في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فقد تَرَتَّبَ على الوقوع في الزلة الإخراج مما كانا فيه، ويدل على ذلك فاء التعقيب، فذلك كان علامة على وقت الخروج، وذلك لأنَّ الله ﷻ قد خَلَقَهُ للاستخلاف في الأرض ابتداء.

ولعلك هنا تسأل: ما معنى ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ ما الذي كانا فيه فأخرجهما منه؟

أجيبك:

لقد كانا في تَنَعُّمٍ واضحٍ قال الله ﷻ عنه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال عن هذا النعيم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨-١١٩].. وهذا النَّعيم مكانه الجنَّة المُحَدَّدَة، وحَذَّرَ اللهُ ﷻ آدمَ

ابتداءً من وسوسة الشيطان التي قد تُسَبِّبُ له الإخراج من هذه الجنَّة، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: ١١٧]، وكذلك كان في نعيم الأنس بالله طائعًا منيبًا مخبتًا.

فالإخراج مما كانا فيه، أي: من الجنَّة وتَنَعُّمِها، وكذلك من أُنسِ عدم المعصية..

وستقول لي: هذه بديهة واضحة لا تحتاج عناء تفكير.

وأقول لك:

نعم! صدقت، ولكن الذي أريد الوصول إليه: أنَّ خروج آدم عليه السلام إلى الأرض كان محددًا سلفًا، ولم يكن بسبب الزَّلَّة، وإنما كانت الزَّلَّة علامة على وقت الخروج، فقد تاب آدم من ذنبه.. ألم يقل الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فكيف بمسلم تاب من زلته؟

فاجمع بين هذا الموضع وبين الآية (٣٠) التي أخبر الله ﷻ فيها أنَّه سيجعل في الأرض خليفة، وليس في الجنَّة، وعند الجمع ترى أنَّ أمر بقاء آدم في الجنَّة مؤقتًا كان أمرًا محسومًا إلا أنَّ علامة إخراجه منها هو وقوعه في الزَّلل الذي أسرع إلى التَّوبة منه بعد أَنْ تَلَقَّى من رَبِّهِ كلمات بفضل الله ورحمته، فخروجه كان محتمًا بل معلنًا عنه.

وهنا يَحِقُّ لنا أَنْ نتساءل:

هل يخطئ إذن من يقول: إنَّ الخطيئة الأصليَّة تلحق بني آدم ولا تتركهم؟ وهل يخطئ بذلك من يتساءل: وما ذنبُ بني آدم إِنْ وَقَعَ أَبُوهُمْ فِي زَلَّةٍ حتى يخرجوا معه مِن بَعْدُ؟

الجواب: نعم دُونَ شَكٍّ.. فأصحاب نظريَّة الخطيئة الأصليَّة ضَلُّوا سواءَ السَّبيل، وهذا السؤال هو ذاته سؤالٌ سأل موسى عليه السلام ما يُقَارِبُه لِأَبِيه آدم عليه السلام، فأجابه بما هو مَحْسُومٌ مِنْ أَنَّ البشر خُلِق ليكون في الأرض ابتداءً لا في الجنَّة، وما وجودُ آدم في الجنَّة إلا وجودٌ تَدْرِيبِيٌّ..

كان وجودًا مُؤَقَّتًا لِيَتِمَّ الانتقال منها بعد ذلك إلى مكانٍ آخر.. بل إِنَّ الأمر أوضح من ذلك بكثير كما ترى، **وبذا ننفي وجود خطيئة أصليَّة عانت منها البشريَّة بسبب زَلَّة آدم عليه السلام كما هو الاعتقاد السائد لدى بعض الأديان.**

ولذا قال الرازي رحمه الله في تَأَمُّلٍ بَدِيعٍ: «اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ أَمْرٌ أَوْ إِبَاحَةٌ، وَالْأَشْبَهُ أَنَّهُ أَمْرٌ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَشَقَّةً شَدِيدَةً؛ لِأَنَّ مُفَارَقَةَ مَا كَانَا فِيهِ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى مَوْضِعٍ لَا تَحْصُلُ الْمَعِيشَةُ فِيهِ إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْكَدِّ مِنْ أَشَقِّ التَّكَالِيفِ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا بَطَلَ مَا يُظَنُّ أَنَّ ذَلِكَ عُقُوبَةٌ»[1].

الاستنتاج بأنَّ الهبوط إلى الأرض كان بسبب المعصية فقط فيه نظر؛ فإنَّك عندما تُقَلِّبُ الطَّرْفَ في آيات القرآن الكريم ستجد أنَّ الله جل جلاله وصف فعلة آدم عليه السلام بثلاثة أوصاف:

(١) تفسير الرازي (٣/ ٤٦٤).

أوصاف فعلة سيدنا آدم عليه السلام في القرآن الكريم

الأول: الزَّلَلُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾:

وهو وصفٌ يخفف على المرء أمر الذنب الذي اقترفه على الرغم من أن الله ﷻ وصف مجرد الاقتراب من الشجرة بأنه ظلم.

الثاني: النِّسْيان: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]:

وهنا ربما تساءلت أيضًا: هل النِّسْيانُ عِصْيانٌ؟

والجواب: ذكر بعض أهل العلم أنَّه عصيان في الشرائع السابقة، وإنَّما عُفِيَ عنه في شريعة أُمَّة محمد ﷺ إذ قال ﷻ على ألسنة المؤمنين الصادقين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].. وقال بعض أهل العلم: حَسَنَاتُ الأبرار سَيِّئاتُ المُقَرَّبِينَ، أي: ما فعله آدم عليه السلام ناسيًا ينبغي أَنْ يُؤَاخذ عليه؛ لأنَّه يفترض به أَنْ يكون أَشَدَّ تَحَفُّظًا بعد أَنْ بَيَّنَ الله تعالى له عَدُوَّهُ اللَّدُود الذي قال فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

الثالث: العصيان والغواية: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]:

والعصيان يطلق على مطلق الذَّنب فتدخل فيه الكبائر والصغائر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣].. ويطلق على الصغائر كما في هذا الموضع، ويدل على ذلك أَنْ جَعَلَهُ المرتبة الثالثة بعد الكفر والفسوق، فقد وجدنا المعرفة القرآنية تهدينا إلى هذا الترتيب للذنوب في قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، ولهذا الترتيب القرآني جعل بعضُهم العصيانَ مرادفًا للزَّلل، واللَّمَم، والصَّغائر.

وهنا نتساءل متدبرين:

فماذا نستنتج من هذه الأوصاف التي وصف الله بها آدم عليه السلام حين وقع منه ما وقع؟

الجواب: إِنَّهُ اللُّطْفُ الإِلَهِيُّ، والرَّحْمة المُنْهَمِرَةُ عند وقوع البشريَّة في الخطأ والذنب والمعصية لئلا تيأس مِنْ رَوْحِ الله، وتُصْبحَ أُلْعُوبَةً بيد الشَّيطان، ولقد تاب الله على آدم عليه السلام.

لكن معصية آدم عليه السلام هنا «مُخَالَفَةٌ صَدَرَتْ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ عَزْمُ النُّبُوَّةِ كَمَا قال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: ١١٥]، وَالِاتِّفَاقُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْعِصْمَةِ عَنْ مُخَالَفَةِ الْأَوَامِرِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ الَّذِي وَقَعَ مِنْ آدَمَ نِسْيَانًا، فَسُمِّيَ تَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ عِصْيَانًا، وَالنِّسْيَانُ وَالسَّهْوُ مِمَّا لَا يُنَافِي الْعِصْمَةَ، فَإِنْ جَعْلَنَا الْكَلَامَ كُلَّهُ تَمْثِيلًا فَحَدِيثُ الْإِخْلَالِ بِالْعِصْمَةِ مِمَّا لَا يَمُرُّ بِذِهْنِ الْعَاقِلِ»[1].

ثُمَّ وَجَدتُّ كلامي هنا -بحمد الله- يلتقي مع ما قَرَّرَهُ ابن عاشور رحمه الله مِنْ أَنَّ إدخال آدم عليه السلام هذه الجنَّة إنَّما كان مدة تدريبية.. وابن عاشور يُسَمِّيها مدة تربية فيقول: «وَعِنْدِي- وَبَعْضُهُ مَأْخُوذٌ مِنْ كَلَامِهِمْ- أَنَّ ذَلِكَ الْعَالَمَ لَمْ يَكُنْ عَالَمَ تَكْلِيفٍ بِالْمَعْنَى الْمُتَعَارَفِ عِنْدَ أَهْلِ الشَّرَائِعِ، بَلْ عَالَمَ تَرْبِيَةٍ فَقَطْ، فَتَكُونُ خَطِيئَةُ آدَمَ وَمَعْصِيَتُهُ مُخَالَفَةً تَأْدِيبِيَّةً، وَلِذَلِكَ كَانَ الْجَزَاءُ عَلَيْهَا جَارِيًا عَلَى طَرِيقَةِ الْعُقُوبَاتِ التَّأْدِيبِيَّةِ، بِالْحِرْمَانِ مِمَّا جَرَّهُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، فَإِطْلَاقُ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّوْبَةِ وَظُلْمِ النَّفْسِ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ، هُوَ بِغَيْرِ الْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ الْمَعْرُوفِ، بَلْ هِيَ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ»[2].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٨).

أراك تتساءل: أَدْرَكْنَا العامِل الأَوَّل مِنْ عوامل النَّجاح، وهو معرفة سِرِّ الوجود على الأرض، وأنَّه تكليف وتشريف مُقَرَّرٌ قبل خَلْقِ البشريَّة، فما العامل الذي نُبْصِرُه في قول رَبِّنا ﷻ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]؟

الجواب: هنا نبصر:

العامل الثاني: الاستعداد لمواجهة العداوات المستقبلية، والفشل نصيب من جعل عدوَّه صديقًا له؛ إذ العداوة هنا أبدية:

ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

فعداوة إبليس الحاضرة والمستقبليَّة يجب الاستعداد لها، والفشلُ كُلُّ الفشل فيمن جَعَلَ عَدُوَّهُ صَدِيقًا له؛ إذ العداوة هنا أَبَدِيَّةٌ:

فقوله ﷻ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾:

يُطْلَقُ الهبوط على الحلول في مكانٍ معين إذا سُمِّيَ ذلك المكان، فيقال: هَبط فلان أرضَ كذا ووواديَ كذا، إذا حَلَّ ذلك، كما قال: الله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، وكما قال الشاعر:

مَـا زِلْـتُ أَرْمُقُهُمْ، حَتَّى إِذَا هَبَطَـتْ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا[1]

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٣٤)، وقال الشيخ محمود شاكر في الهامش معلقا: البيت لزهير بن أبي سلمى، ديوانه: ٣٧، أرمقهم: يعني أحبابه الراحلين، وينظر إليهم حزينًا كئيبًا، والركاب: الإبل التي يرحل عليها. وراكس: واد في ديار بني سعد بن ثعلبة، من بني أسد. وفلق وفالق: المطمئن من الأرض بين ربوتين أو جبلين أو هضبتين، وقالوا: فالق وفلق، كما قالوا: يابس ويبس (بفتحتين).

ولكن إذا قيل: اهبطوا مطلقًا فإنَّ الغالب أَنْ يكون معناه الانتقال أو الِانْحِدَارَ مِنْ أعلى إلى أسفل عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ أو الاختيار، وهو كذلك هنا، فيشير ذلك إلى أنهم كانوا في مكانٍ مرتفع، فَأُمِرُوا بالهبوط جميعًا.

وهنا لا بد أن تسأل: فالضمير في قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ على من يعود؟

أجيبك – وفقك الله:

ضمير الجمع هنا يعود لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله، وهو الطرف المحارب لهما، والله ﷻ يُبَيِّنُ لنا هنا ما سيؤول إليه الأمر من العداوات المستقبلية، والعداوة هنا وَصْفٌ لواقعٍ أَصَرَّ الشيطان على إيجاده، وفي مقابل إصراره أَمَرَنَا الله ﷻ بمقابلة هذه العداوة بالعداوة حتى لا يقتحم علينا دِيارَنا وأنفسَنا وعقولَنا ونحن غافلون، ولذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦].. وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فطوت هذه الجملة عددًا من صور العداوات.. فمنها عداوة الشيطان لآدم وحواء عليهما السلام وذريتهما.. ومنها عداوة بني آدم بعضهم لبعض.. ومنها عداوة بعض بني آدم لأبيهم.

وهذه الآية دليلٌ على أنَّ إبليس استطاع أَنْ يدخل الجنَّة، وأنَّ الله تعالى لما قال له: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: ١٣]، أي: اخْرُجْ مِنْ مكان التَّكْريم الذي كان في الملأ الأعلى، واهْبِطْ مِنْ هذا المكان، والجنَّة دونه، ولم يُحَرِّمْ عليه دخول الجنة التي سكن فيها آدم عليه السلام.. وواضح أنَّ هذه الجنة في مكان دون مكان التَّكْريم، ثم أهبطه منها كما أهبط آدم وزوجه عليهما السلام.

وهذا التعريف بالعداوة الدائمة بين إبليس وذُرِّيَّته، وآدم وذُرِّيَّته تَأْكِيدٌ على ما سبق أَنْ أخبر اللهُ ﷻ آدمَ عنه حيث قال له قبل استقراره المُؤَقَّتِ في الجنَّة: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

فـ(يا ابن آدم):

«لا تغفل عن عدوك، وهو الشيطان، فإنَّك إِنْ غَفَلَتْ عنه، فإنَّه لن يغفل عنك، فهو كالذئب إذا وقع في الغنم فَكُلُّ شاةٍ غَفَلَتْ عنها أخذها»(١).

وهذه العداوة بين البشريَّة وإبليس تُؤَدِّي إلى المعارك الحقيقة التي تكون نتيجتها إمَّا الانتصار أو الهزيمة وهي لا تهدأ لحظةً وما تفتر .

«وعرف الإنسان في فجر البشريَّة كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار.. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها، وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان! وأخيرًا تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة.. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض».

وهنا لا بد أن نسأل: بَصَّرَنا القرآن المبارك أَنَّ العداوة بين الإنسان والشيطان دائمة قوية، ولا يمكن الصلح فيها، ولكننا نلاحظ أَنَّ الله ﷻ سَمَّاه هنا الشيطان، بينما سمَّاه في الآية (٣٤) إبليس، فلماذا هذا الاختلاف؟

الجواب -أيدك الله-:

---

(١) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين لأبي الليث السمرقندي (ص: ٤٦٧).

الاختراق الشيطاني يُسَبِّبُ الآلامَ والحزنَ والنَّدمَ، ويُفْقِدُ الإنسانَ نَعِيمَ النِّعَم مهما تكاثرت عنده الثروات والقُوَّاتُ؛ فقد دعا اللهُ ﷻ إبليسَ بهذه التسمية التي يظهر منها البؤس والشقاء في الآية (٣٤)، بينما سَمَّاه هنا الشَّيطان، ولعلَّ ذلك لأنَّ الله ﷻ أراد أَنْ يَصِفَهُ بصفةٍ حربيةٍ أخرى تجعل الإنسان يذكر الحرب المشتعلة التي بينه وبينه، وهي الصِّفَة المُتَعَدِّية؛ لأنَّ الشيطانَ مِن شَاطَ أي: اشْتَدَّ غَضَبُه، أو مِن شَطَنَ أي: بَعُدَ عَنْ كُلِّ خير، أو مِن شَاط بمعنى احْتَرَقَ، وهذه الصفات كُلُّها تَدُلُّ على حربٍ مُسْتَعِرَةٍ بينه وبين الإنسانيَّة، ويفترض أَنْ تُعِدَّ البشريَّة العُدَّة لهذه الحرب.. والآية تُظْهِرُ بوضوح مقدار رحمة الله ﷻ ومَحَبَّتِه لتوبة عباده، ومقدار العداوة الشيطانيَّة للبشريَّة: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ﴾ [الكهف: ٥٠]، فالعجب مِمَّنْ عَرَفَ رَبَّهُ ثُمَّ عصاه وعرف الشيطانَ ثُمَّ أَطَاعَهُ.

إِنَّ الخواطر تصنع أخلاق الإنسان ونظامه في الحياة جميله وقبيحه، وإبليس ظن بنفسه الخير وأساء الظن بالغير، واتبع هواه، وهذا يعني أنك إن وقعت في الزلة فالمسؤولية مشتركة بينك وبين إبليس، فلا يتحمل هو كامل المسؤولية، فأنت عندها نسيت عداوته، واتَّبَعْتَ هواك عندما أغراك.. فاحترس، واذكر هذه العداوة لتنجو في دنياك وأخراك.

ويُفَصِّلُ ابن عاشور رحمه الله ذلك في تحليل نفسي أَخَّاذٍ، فَيُبَيِّنُ أَنَّ هذا «هُوَ مَنْبَعُ الْعَدَاوَاتِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يُعَادِي الْآخَرَ إِلَّا لِاعْتِقَادِ مُزَاحَمَةٍ فِي مَنْفَعَةٍ أَوْ لِسُوءِ ظَنٍّ بِهِ فِي مَضَرَّةٍ. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَسْأَلَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ أَصْلَ الْأَخْلَاقِ حَسَنِهَا وَقَبِيحِهَا هُوَ الْخَوَاطِرُ الْخَيِّرَةُ وَالشِّرِّيرَةُ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ الْخَاطِرُ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ فِعْلٌ فَيَصِيرُ خُلُقًا، وَإِذَا قَاوَمَهُ صَاحِبُهُ وَلَمْ يَفْعَلْ صَارَتْ تِلْكَ الْمُقَاوَمَةُ سَبَبًا فِي اضْمِحْلَالِ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، وَلِذَلِكَ حَذَّرَتِ الشَّرِيعة مِنَ الْهَمِّ بِالْمَعَاصِي وَكَانَ جَزَاءُ تَرْكِ فِعْلِ مَا يَهُمُّ بِهِ مِنْهَا حَسَنَةً، وَأَمَرَتْ بِخَوَاطِرِ الْخَيْرِ فَكَانَ جَزَاءُ مُجَرَّدِ الْهَمِّ بِالْحَسَنَةِ حَسَنَةً وَلَوْ لَمْ يَعْمَلْهَا، وَكَانَ الْعَمَلُ بِذَلِكَ الْهَمِّ عَشْرَ حَسَنَاتٍ كَمَا وَرَدَ فِي

الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً- ثُمَّ قَالَ- وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ»... إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ خَيِّرًا سَالِمًا مِنَ الشُّرُورِ وَالْخَوَاطِرِ الشِّرِّيرَةِ عَلَى صِفَةٍ مَلَكِيَّةٍ وَهُوَ مَعْنَى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]، ثُمَّ جَعَلَهُ أَطْوَارًا فَأَوَّلُهَا طَوْرُ تَعْلِيمِهِ النُّطْقَ وَوَضْعِ الْأَسْمَاءِ لِلْمُسَمَّيَاتِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَبْدَأُ الْمَعْرِفَةِ وَبِهِ يَكُونُ التَّعْلِيمُ أَيْ يُعَلِّمُ بَعْضُ أَفْرَادِهِ بَعْضًا مَا عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ الْآخَرُ، فَكَانَ إِلْهَامُهُ اللُّغَةَ مَبْدَأَ حَرَكَةِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَهُوَ مَبْدَأٌ صَالِحٌ لِلْخَيْرِ وَمُعِينٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ بِهِ عَلَّمَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَلِذَلِكَ تَرَى الصَّبِيَّ يَرَى الشَّيْءَ فَيُسْرِعُ إِلَى قُرَنَائِهِ يُنَادِيهِمْ لِيَرَوْهُ مَعَهُ حِرْصًا عَلَى إِفَادَتِهِمْ، فَكَانَ الْإِنْسَانُ مُعَلِّمًا بِالطَّبْعِ، وَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى خَيْرِيَّتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ صَالِحٌ أَيْضًا لِاسْتِعْمَالِ النُّطْقِ فِي التَّمْوِيهِ وَالْكَذِبِ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا نَهَاهُ عَنْ أَمْرٍ كَلَّفَهُ بِمَا فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَمْتَثِلَهُ وَأَنْ يُخَالِفَهُ، فَتِلْكَ الِاسْتِطَاعَةُ مَبْدَأُ حَرَكَةِ نَفْسِهِ فِي الْحِرْصِ وَالِاسْتِئْثَارِ، فَكَانَ خَلْقُ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ عَلَى تِلْكَ الِاسْتِطَاعَةِ مَبْدَأَ طَوْرٍ جَدِيدٍ هُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]، ثُمَّ هَدَاهُ بِوَاسِطَةِ الشَّرَائِعِ فَصَارَ بِاتِّبَاعِهَا يَبْلُغُ إِلَى مَرَاتِبِ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام وَيَرْجِعُ إِلَى تَقْوِيمِهِ الْأَوَّلِ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٦]، وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى هَذَا الطَّوْرِ الْأَخِيرِ بِقَوْلِهِ فِيمَا يَأْتِي: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]»[1].

ومربط عقد الخلاص والانتصار في الحرب المستعرة بينك وبين الشيطان الحاسد المعادي أَنْ تُخْلِصَ لرَبِّك، وتبذل له التقوى من نفسك.

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ رَاغِمًا ... فَتُحْرِقَهُ حُزْنًا وَتَقْتُلَهُ غَمًّا

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٦).

فَعَلَيْكَ بالإِخْلاصِ وَالزُّهْدِ والتُّقَى فَمَنْ فَازَ فِيهَا مَاتَ حُسَّادُهُ هَمَّا[1]

هنا نتساءل:

فَهِمْنَا بِوُضُوحٍ النَّظْرَةَ القرآنيةَ الصافيةَ العظيمةَ لكيفية بَدْءِ الإنسانيَّة، وتكريم آدم وزوجه عليهما السلام بأنواعٍ من التكريم مثل المعرفة والجنة، ثم هبوطهما إلى الأرض بعد توبة الله جل جلاله عليهما ليقوما بأداء وظيفة الاستخلاف فيها، فكيف كانت نظرة التوراة إلى هذا الموضوع؟

الجواب:

تعال ننظر إلى الرؤية المعوجة المنسوبة إلى التوراة، لتعلم هيمنة القرآن وضرورته لإصلاح العِوَجِ الذي يُصِرُّ عليه بعض أهل الكتاب؛ إذ تجد النصَّ التَّوْرَاتِيّ يظهر أمورًا لا يمكن نسبتها إلى خالق الكون فيقول:

٣: ٢٢ وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد.

٣: ٢٣ فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها.

٣: ٢٤ فطرد الانسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

وهنا نتساءل منكرين:

---

(١) ينظر: مراد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٣)، وهما لعلي بن محمد أبي الفتح البُسْتي، كما في البداية والنهاية (١٢/ ٢٧١)، بلفظ:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ رَاغِمًا وتَقْتُلَهُ هَمًّا وتُحْرِقَهُ غَمًّا

فَسَامِ العُلا وازْدَدْ مِنَ الفَضْلِ إِنَّهُ مَنِ ازْدَادَ فَضْلًا زَادَ حاسِدَه غَمًّا

هل يظهر من النص أنَّ الرَّبَّ يخاف أن تمتد يد الإنسان إلى شجرة الحياة؟

وهل معرفة الخير والشَّرِّ (ذنب إنساني) أم هو تكريم إلهي نتج عن معرفة آدم الأسماء كلها؟ ثم ما هذا الكلام الذي يظهر خوفًا من أن يحيا آدم إلى الأبد مع أنَّ الله ﷻ يكافئ المحسنين بالحياة الخالدة أبدًا في جنات ونهر بعد أن يجتازوا مدة الاختبار الدنيوي؟

إنَّ هذا النصَّ التَّوْرَاتِيَّ أقرب في روحه إلى خرافات الصراع بين زوس إله اليونان، وبين أبنائه من البشر.. ألا تراه خاليًا مِنْ أي لباقة تليق بتعظيم خالق الكون الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط بينما يظهره النص هنا خائفًا؟ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

والآن نأتي إلى عاملٍ آخر من عوامل النجاح في اختبار البقاء في الأرض، وهو الذي يُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، فما هذا العامل؟

الجواب:

العامل الثالث: الاستفادة من البيئة المهيأة مكانيًا، وزمانيًا ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]:

الركائز الأربع للاستفادة من البيئة المهيأة مكانيًّا، وزمانيًّا

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]

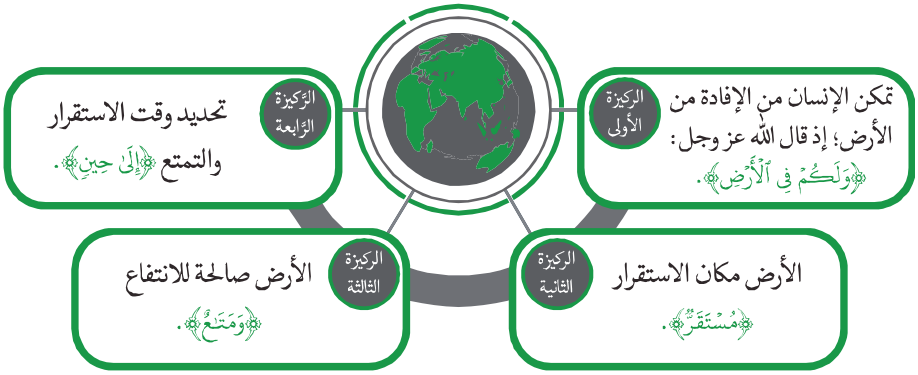

مُفصَّل تفسير سُورَة البَقَرَة (٣) عبد السلام مقبل المجيدي

فالْمُسْتَقَرُّ مكان الاستقرار الذي يدلُّ على التَّمَكُّن، والاطمئنان، والمتاع كُلُّ شيء ينتفع به في مدة، وتصحبه لَذَّةٌ، من معاشٍ أو شهوة نفسيَّةٍ أو جسديَّة أو عقلية، والمُسْتَقَرُّ والمتاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فطبيعتهما الأرضية تأبى الدوام بل هما مُؤَقَّتَان.

فذكر الله ﷻ أربع ركائز لتتحقق الاستفادة من البيئة التي هيأها الله ﷻ لهم:

الركيزة الأولى: تمكن الإنسان من الإفادة من الأرض؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

الواو وصلت ما بعدها بما قبلها، واللام للاختصاص والملك والانتفاع، والمخاطب في كلمة ﴿ولكم﴾ هو ذاته المخاطب في كلمة ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، والمقصود آدم وزوجه عليهما السلام ومن سيأتي من ذُرِّيَّاتِهما، وكذلك إبليس، أي: عندما تهبطون الأرض، فلن تتركوا في بيئة قاحلة لا تجدون فيها ما يصلح للحياة، وستتمكنون أنتم من الإفادة منها.

الركيزة الثانية: الأرض مكان الاستقرار ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾:

وهنا يأتي السؤال:

ما وَجْهُ الجَمَالِ والقُوَّةِ في كلمة ﴿مُسْتَقَرّ﴾؟

والجواب:

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾[1]: مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ، والِاسْتِقْرارُ هو الـمُكْثُ المطمئن، ومنه قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: ٥٠] فالقرار: المكان المطمئن الذي يستقر فيه الماء، ومنه قيل للروضة المنخفضة: القَرَارة.. وكلُّ ما لَزِقَ بأسفل القِدْر (قاعها) من مَرَقٍ أو حُطَام تَابَلٍ مُحْتَرِقٍ أو سَمْن أو غيره (فهو) قُرَّة بالضم، و(قُرارة) كقُصاصة، و(قُرَرَة) كهُمَزَة، وبضمتين. والقرُّ بضم القاف وفتحها وكسرها، وهو البرد، من حيث إن البرد يقتضي السكون، «وَيَوْمُ (الْقَرِّ) بِالْفَتْحِ الْيَوْمُ الَّذِي بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ، لِأَنَّ النَّاسَ يَقِرُّونَ فِي مَنَازِلِهِمْ»، كما أن الحر يقتضي

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص٦٦٢)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ٢٩٥)، مختار الصحاح (ص٢٥٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٧٥٤).

الحركة، وقرت عينه وقرِرت تقَر أي بردت، يكني بذلك عن السرور، وفي ضده: سخنت وذلك أن دمعة الفرح قارة، ودمعة الترح حارة..

أي: لكم في الأرض قرارٌ وثبوتٌ واطمئنان لا تجدون معه ألمًا ولا إزعاجًا، من قرَّ بالمكان إذا اطمأن فيه وثبت، **والمستقر: مكان الاستقرار، والاستقرار يدل على التمكن والاطمئنان،** ولتحقيق التمكن والاطمئنان هيأ الله ﷻ الأرض لذلك، فسخرها، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، ويدخل في ذلك كل معاني الاستقرار من جعل الأرض بساطًا، وفراشًا، وسلكها سبلًا فجاجًا.

الركيزة الثالثة: الأرض صالحة للانتفاع ﴿وَمَتَٰعٌ﴾:

وهنا يأتي سؤال آخر: ما وجه قوة هذه الكلمة القرآنية ﴿وَمَتَٰعٌ﴾؟

الواو لوصل كلمة﴿متاع﴾ بكلمة ﴿مستقر﴾ ليبين الله لنا السبيل الثاني للإفادة من الأرض بعد المستقر، وكلمة ﴿متاع﴾ من متع[1].. وهي كلمة يجتمع فيها الصفات الآتية:

الأولى: الامتداد كامتداد الوقت.

الثانية: الارتفاع فالْمُتُوعُ: الامتداد والارتفاع. يقال: مَتَعَ النهار مُتُوعًا: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال، فطال وامتدّ وتعالى، ومَتَعَ النّبات: إذا ارتفع في أول النّبات، والْمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، وتَمَتَّعَ به، وجبلٌ ماتع: طويل شاهق،

الثالثة: الجودة: من قولهم: حبلٌ ماتع: جيِّد الفتل، والجيِّد من كل شيء ماتعٌ.

الرابعة: المنفعة، فيرى ابن فارس أنها كلمة تدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وَامْتِدَادِ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢٩٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٧)، مختار الصحاح (ص: ٢٩٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٠٢٤).

الخامسة: التلذذ، فقال ابن فارس: وَذَهَبَ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْبَابِ التَّلَذُّذُ، وَمَتَعَ النَّهَارُ لِأَنَّهُ يُتَمَتَّعُ بِضِيَائِهِ، وَالْمَتَاعُ: الِانْتِفَاعُ بِمَا فِيهِ لَذَّةٌ عَاجِلَةٌ.

ومِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ، أي انتفعت به انتفاعًا أتلذذ به في مدة..فالمتاع كل شيء يُنتفع به في مدة، وتصحبه لَذَّةٌ، من معاش، أو رِياش، أو زينة، أو صحبة، أو شهوة.

وهنا يأتي السؤال: إذا كان الإنسان سيجد في الأرض مستقرًا ومتاعًا، فلماذا لا يتخذها داره الدائمة، ويعمل على هذا الأساس؟

الجواب: لِيَتَّزِنَ الفَهْمُ هنا تأتي:

الرَّكيزة الرَّابعة: تحديد وقت الاستقرار والتمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾:

وهذه الكلمة (حين) تدل على بقاء التمتع إلى خروج الإنسان من الأرض إما بالموت وإما بقيام الساعة.

فهذا المستقر وذلك المتاع مقيدان بأنهما ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فطبيعتهما الأرضية تأبى الدوام بل هما مؤقتان، وأجلهما اللذان سينتهيان فيه إما أن يكون متعلقًا بأجل كل فردٍ من بني الإنسان بصفة خاصة، والمراد به وقت موته، وإما أن يكون عندما يريد الله أن يبدل الأرض غير الأرض والسَّمَوَات.

وذلك بعكس الاستقرار الدائم الذي أخبر الله عنه في قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢].. وقال عن الفائزين فيه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

فإذا علم الإنسان أَنَّ الأرض تُشَكِّلُ مُسْتَقَرًّا ومتاعًا بصورةٍ مؤقتة استفاد منها بما يحقق الغاية من الهبوط فيها.

ويبقى لنا أَنْ نُذَكِّرَ بالغاية من الهبوط إليها، حيث ذكر الله ﷻ أَنَّ خَلْقَ الإنسان مقترنٌ بأن يكون خليفة في الأرض كما سبق، وبيَّن هنا أنَّه هيأ الأرض لتكون مستقرًا ومتاعًا إلى حين، وبيَّن في سورة الكهف أنه جعل ما عليها من جمالٍ وزينةٍ لها ليتحقق الاختبار في القيام بمقتضيات الاستخلاف، فقال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].. كما بَيَّن أَنَّ الوجود الحياتِيَّ يتعلَّق بهذا الاختبار، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

هذه الآيات تعطينا صورةً واضحةً، وجوابًا بينًا لسؤالٍ يردده بعض الملحدين:

لماذا خلقنا الله ﷻ؟ هل هو محتاجٌ لخلقنا؟ هل هو محتاجٌ لعبادتنا؟

وهاك الجواب -وفقك الله-:

الوجود الإنساني لم يكن لحاجةٍ إلهيَّة، بل كان تجلِّيًا لملك الله ﷻ، وقدرة الله ﷻ، وأسمائه وصفاته، وتكريمًا للإنسان بِجَعْلِهِ خليفةً في الأرض يَخْلُفُ غَيْرَهُ، ويَخْلُفُهُ غَيْرُهُ إلى أجل مُسَمًّى عند الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ٢].

وعندما خلق الله ﷻ الإنسان لم يتركه سدى، بل وضع له نظامًا يسير عليه هو نظام العبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولَمْ يَفْرِضِ اللهُ ﷻ العبادةَ لأنَّه يحتاجها، بل لأَنَّ تحقيقَ النَّجاح في الوجود البشريِّ مرتبط بها، أمَّا الله ﷻ فَفِي غِنًى عن ذلك، ولذا قال ﷻ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، وقد قال عن قومٍ استكبروا عن تطبيق النظام العباديِّ: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٦].

فَهِمْنا الرُّؤْيَة القرآنية الواضحة لوجود الإنسان في العالم لكننا نتساءل:

كيف صَحَّحَتْ هذه الرُّؤية القرآنية المُهَيْمِنَةُ ما جاء في التَّوْرَاة مِنْ رُؤيةٍ مُنْحَرِفَةٍ مُحَرَّفَةٍ؟

الجواب: سبق بيان الرُّؤية التوراتية المُحَرَّفَة لِقِصَّةِ آدم وزوجه عليهما السلام، وَمِنْ أَشَدِّها سُوءًا نِسْبَةُ البَدَاءِ إلى الله ﷻ، أي أَنَّ عِلْمَهُ حَادِثٌ يَظْهَرُ بظهور الأحداث، فكأنَّه لا عِلْمَ له سَابِقٌ.. ففي سِفْرِ التكوين:

٦: ٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم.

٦: ٦ فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه.

ومِنْ أَسْوَأِ ذلك إِظْهَارُ خَوْفِ الرَّبِّ مِنْ أَنْ يَصِلَ الإنسانُ إلى شجرة معرفة الخير والشَّرِّ، وهذا شنيع جدًا، وتحريف آثم تجده مبثوثًا في تحريفات الأحبار والرهبان.

وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله ﷻ: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

ثم عاقب حواء وآدم عليهما السلام:

٣: ١٦ وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رَجُلِكِ يكون اشتياقك، وهو يسود عليك.

٣: ١٧ وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك.

٣: ١٨ وشوكًا وحسكًا تنبت لك وتأكل عشب الحقل.

٣: ١٩ بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود.

والرواية التوراتية تجعل ولادة حواء عليها السلام عقوبة، وما يصحبها من آلام عقوبة، وليست ابتلاء فطريًا، فما ذنب أبنائها، بينما تفهمنا الآيات القرآنية أن طبيعة الزلل جزء من نفسية حواء عليها السلام كما هو جزء من نفسية آدم عليه السلام .

عرفنا العامل الثالث من عوامل النجاح في اختبار الحياة في الأرض، وهو الاستفادة من البيئة التي هيأها الله ليسكنوها مكانيًا، وزمانيًا: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، فالمستقرّ مكان الاستقرار الذي يدل على التمكن، والاطمئنان، والمتاع كل شيء ينتفع به في مدة، وتصحبه لَذَّةٌ، من معاش أو شهوة نفسية أو جسدية أو عقلية، والمستقر والمتاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فطبيعتهما الأرضية تأبى الدوام، بل هما مؤقتان، فما العامل الرابع؟

الجواب:

العامل الرابع: التوبة متاحة عند أي فشلٍ مؤقَّت في المعركة مع الشيطان باقتراف المعصية، فيلجأ العبد إلى الله منيبًا ﷻ ليتلقى منه ما يعينه على قلب الهزيمة إلى انتصار:

ويبصرنا بهذا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، فباب التوبة مفتوح.

وبشعورنا بهذا العامل نعلم لماذا جاء ذكر التوبة هنا، ولم يأت ذكرها بعد ذكر الزلة في الآية السابقة، فقد أراد الله ﷻ أَنْ يجعل الصُّورَةَ عن الوجود البشريِّ واضحةً، فذكر زلل آدم، وبيَّن أنَّ الزَّلل كان علامة على انتهاء بقائه في تلك الجنة، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ ..

وآن الأوان للهبوط إلى المكان الأصلي الذي خلقت البشريَّة لتقضي فيه الحياة المؤقتة الأولى ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾.. وهذا المكان مُهَيَّأ للعيش والحياة المؤقتة ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.. عندها ربما يطرح هؤلاء الذين استقروا في الأرض تساؤلًا عن وضعهم فيما لو وقعوا في الزلل والخلل كما وقع آدم عليه السلام .. هل الزلل

سيفضي بمن استقرَّ في الأرض إلى إخراجه فورًا إلى مكانٍ آخر عقوبة؟.. بيَّن الله ﷻ أنَّه قد غفر لآدم ما وقع منه بعد أَنْ رَجَعَ إليه، فقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾.

في توبة الله ﷻ على آدم عليه السلام إشارةٌ إلى أَنَّ مَنْ سلك سبيل آدم عليه السلام في الذَّنب، ثم سلك سبيله في الرُّجوع إلى كلمات التوبة، فإنَّ الله ﷻ سيتوب عليه ما دام ضمن (الحين) المحدد لبقائه في الأرض، أي: قبل أن يموت، أو تقوم الساعة، فتبدَّل الأرض غير الأرض.

فآدم عليه السلام كرَّمه الله تعالى، ولكنَّه لم يكسب المعركة الأولى، بل انجلى الغبار عن إيقاع إبليس له في الزَّلل إلا أن آدم عليه السلام لم يخسر خسارة نهائية، وقد قال النبي ﷺ مبينًا استمرار باب التوبة مفتوحًا معروضًا حتى أمام الكبائر: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»(١)، وقال ﷺ: «وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ المَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ، طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ»(٢).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ آدَمَ عليه السلام كَانَ رَجُلًا طُوَالًا؛ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَمَّا وَقَعَ بِمَا وَقَعَ بِهِ بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ، وَكَانَ لَا يَرَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَانْطَلَقَ هَارِبًا، فَأَخَذَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهَا: أَرْسِلِينِي قَالَتْ: لَسْتُ مُرْسِلَتَكَ قَالَ: فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمِنِّي تَفِرُّ؟ قَالَ: أَيْ رَبِّ لَا؛ أَسْتَحْيِيكَ، قَالَ: فَنَادَاهُ: وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحْيِي رَبَّهُ

(١) البخاري (٦٨١٠).

(٢) أحمد (١٦٧١)، وحسنه الأرناؤوط.

عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا وَقَعَ بِهِ، ثُمَّ يَعْلَمُ بِحَمْدِ اللهِ أَيْنَ الْمَخْرَجُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَخْرَجَ فِي الِاسْتِغْفَارِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَى اللهِ ﷻ»(١).

وقد تتساءل: لماذا لم يذكر الله ﷻ حواء مع آدم عليها السلام هنا؟

الجواب- وفقك الله-:

هنا ترى عدم ذكر حواء عليها السلام:

- لأنها تتبع في أحوالها آدم عليه السلام؛ فقد قال الله ﷻ عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

- ولأمر واضحٍ هو أن المسؤولية الأعلى تتعلق بآدم عليه السلام لا بها رَدًّا على التَّخَرُّصَات التي يثيرها بعض المسلمين وأهل الكتاب من مسؤولية حواء عليها السلام عمَّا جرى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

وهنا نتساءل مُجَدَّدًا:

في قوله تعالى مجده: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] نجد أنَّ آدم عليه السلام تلقى الكلمات من ربِّه، فالله ﷻ هو الذي منحه تلك الكلمات لِيُرَدِّدَها، ثم يتوب ربُّه عليه، فكيف تُظْهِرُ هذه الكلماتُ القرآنيةُ جمالَ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ بالإنسانيَّة؟

---

(١) تنبيه الهاجد إلى ما وقع من النظر فى كتب الأماجد(١/ ٤٥٣): قال الحافظ فى " الفتح " (٦/ ٣٦٧): «وروى ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أُبَيٍّ بن كعب ﷺ مرفوعًا «أن الله خلق آدم رجلًا طوالًا، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق».. قال الشيخ الحويني: «رضي اللهُ عنك! فقد قال ابن أبى حاتم فى " تفسيره " (٣٩٢) حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، ثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن البصرى، عن أُبَيٍّ بن كعب مرفوعًا فذكره مطولًا.. وهذا حديث منكرٌ، وسنده ضعيف أو واهٍ؛وعلي بن عاصم كان كثير الخطأ، وسعيد بن أبي عروبة كان تَغَيَّر، وعلي بن عاصم ليس من قدماء أصحابه، وقتادة مدلسٌ، والحسن البصرى لم يسمع من أُبَيٍّ بن كعبٍ. أيقالُ فى مثل هذا الإسناد أنه حسنٌ؟!». «تنبيه الهاجد إلى ما وقع من النظر فى كتب الأماجد» (١/ ٤٥٤).

الجواب:

يُبَصِّرُنا قوله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ بمدى رحمة الله ﷻ بالإنسانيَّة؛ إذ عَلَّمَ الله ﷻ الإنسانَ كيف يرجع إليه عندما يستجيب الإنسان لنوازعه السيئة، ويقع في حبائل الشيطان، ويتضح ذلك من خلال القراءتين الواردتين في الآية؛ إذ تُصَوِّرَانِ مشهدين يملآنِ قَلْبَكَ مَحَبَّةً لربِّنا – جَلَّ مَجْدُه–:

المشهد الأول:

تُصَوِّرُهُ قراءةُ ابن كثير: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمَ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٌ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ .. فالكلمات هي الفاعل، وآدم (مفعول به)، فالله ﷻ برحمته أنقذ آدم عليه السلام بأَنْ أرسل له تلك الكلمات التي إذا رَدَّدَها تاب الله ﷻ عليه مع وُجُودِ نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ الرَّاغبةِ في التوبة، وقَلْبِهِ الطَّاهِرِ الممتلئ بالخشية والحياءِ مِنْ ربِّه، ولكن الله ﷻ صَوَّرَ لنا الكلمات تتلقَّى آدم عليه السلام وتتلقَّى زوجه بطبيعة الحال، وكأنَّ الكلمات تَلَقَّتْ آدمَ في حمأة سقوطه في تلك المعصية، فأنقذته وزَوْجَهُ من البقاء في تلك الخطيئة التي وقعا فيها، وسقطا فيها سقوطًا مدويًّا، وهذا التعبير يمنحنا هذا التصويرَ الجميلَ المُحَبَّرَ الحَبِيرَ ..كما نجد مثله في قَوْله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤] .. فالعهد هو الذي يسير ويجري ويبحث عمَّن يَسْتَحِقُّه، وهو يسير لا يمكن أنْ يأخذه الظالمون، لأنه هو الذي يمتنع عن أن ينال الظالمين، بل ينال المقسطين والصالحين.

الصورة التي ترسمها قراءة ابن كثير مدهشة جدًا.. إذ تُشَكِّلُ في مخيلتك المَشْهَدَ الآتي:

آدم عليه السلام عصى فَهَوَى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١].. وقع في الزَّلَّة فكأَنَّ قَدَمَه زَلَّتْ، فسقط وتَعَثَّرَ وَهَوَى ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾.. وبينما هو يهوي تَلَقَّتْهُ كلماتُ رَبِّه.. فَمِنْ حفاوة الله تعالى بآدم عليه السلام وإلهامه له بأن يتوب أرسلها إليه، حتى كأَنَّها هي التي تلقته فاستقبلته واحتضنته.

المشهد الثاني:

وعندها تأتي القراءة الثانية:

قراءة الجمهور: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].. فلما تلقته الكلمات لم يَحِدْ عنها، أو يستكبر.. لم يعارض أو يفر.. لم يراوغ أو يجادل.. لم يكسل أو يفتر، بل تلقاها باستبشارٍ، فصار هنا (فاعلًا) لها:

فالله سبحانه وتعالى أَلْقَى إلى آدم عليه السلام كلماتٍ، فَتَلَقَّتْهُ وتَلَقَّاها آدمُ عليه السلام.. أي: عَرَفَهَا وَقَبِلَهَا واسْتَوْعَبَهَا، ولم يَسْتَنكِفْ أَنْ يعترف بخطئه فيرددها.. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لإبليس.. فقد أبى واستكبر.. وقام يجادل ويُصِرُّ.

والحال في القراءتين كحال صديقٍ حبيب، أو ولدٍ قريبٍ وقع من على سفح جبل، وبينما هو يهوي يكاد أن يسقط التفت فرأى أباه أو صاحبه مد يده إليه لينقذه، فتلقى ذلك، بوضع يده في يده.. لم يأنف ولا استكبر ولا استنكف، فوجد عند ذلك النجاة.

وهذا تشبيهٌ يدل على أن الله سبحانه وتعالى يرحم الإنسان حيث لا يرحم الإنسان نفسه، فقد رحم الله عز وجل آدم عليه السلام رَحْمَةً عظيمةً بإلهامه أَنْ يُرَدِّدَ تلك الكلمات.

ولكننا نرى قوة إضافية في التصوير في هاتين الكلمتين ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾.. فكيف ظهرت قوة التصوير أكثر من السابق؟

الجواب:

هنا يأتي سر كلمة ﴿تلقى﴾؛ لأن المعنى:

فَلَقَّى الله ﷻ آدمَ كلمات بِأَنْ عَلَّمَهُ إِيَّاهُنَّ ليقولهنَّ دلالةً على توبته، فتلقَّاها آدمُ.. أي: أخذها وقَبِلها، ولم يَرُدَّها كما رَدَّ إبليسُ أمر ربِّه، وهذا يعني أنَّه فرح بها؛ لأن التلقِّي أصله التفعُّل من اللقاء.. فتُصَوِّرُ لنا كلمة ﴿فتلقى﴾ آدمَ عليه السلام وهو لا يملك نفسه فرحًا ومحبَّةً، فيتلقَّى إقبالًا ومَسَرَّةً كلماتِ ربِّه عندما ألهمه الله ﷻ إياها، كما يتلقَّى الرَّجُلَ الرَّجُلُ مُسْتَقْبِلَه عند قدومه من غيبته أو سفره كأنه استقبله فتلقَّاه بالقبول والفرح.. ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] «بِخِلَافِ لَاقَى فَلَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْمُلَاقَى مَحْبُوبًا، بَلْ تَقُولُ: لَاقَى الْعَدُوَ، وَاللِّقَاءُ: الْحُضُورُ نَحْوَ الْغَيْرِ بِقَصْدٍ أَوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ وَفِي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، قال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ [الأَنْفَال: ٤٥] الْآيَةَ، فَالتَّعْبِيرُ بِـ (تَلَقَّى) هُنَا مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الكَلِمَاتِ الَّتِي أَخَذَهَا آدَمُ كَلِمَاتٌ نَافِعَةٌ لَهُ، فَعُلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَلِمَاتِ زَجْرٍ وَتَوْبِيخٍ، بَلْ كَلِمَاتُ عَفْو ومغفرة ورضى، وَهِيَ إِمَّا كَلِمَاتٌ لُقِّنَهَا آدَمُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى لِيَقُولَهَا طَالِبًا الْمَغْفِرَةَ، وَإِمَّا كَلِمَاتُ إِعْلَامٍ مِنَ اللهِ ﷻ إِيَّاهُ بِأَنَّهُ عَفَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ أَهْبَطَهُ مِنَ الجَنَّةِ»[1].

وتعال مُجَدَّدًا لهذا العامل العظيم المؤثر في إقامة النجاح في اختبار الاستخلاف، فسبب عدم خسارته التامة أنه أعلن التوبة فورًا، ولم يتماد في غيه كما فعل إبليس من قبل.

هنا نتساءل: ما هذه الكلمات العظيمة التي تلقت آدم عليه السلام، وتلقاها هو؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٧).

الجواب:

بَيَّنَ عبد الرحمن بن زيد رحمه الله أننا ينبغي أن نُعمِل قاعدة تفسير القرآن بالقرآن لنجد هذه الكلمات، وعندما نصنع ذلك، سنجد أنَّ الله عز وجل فَصَّل لنا تلك الكلمات في سورة الأعراف، حيث قال الله عز وجل عن آدم وزوجه عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣](١).. فَرَدَّدَا هذا الدعاءَ المباركَ بتضرُّع، وهذه الكلمات النيِّرات الهاديات تأخذ القلب إلى رياض الأنس بعد الجفاء، وإلى نسيم الغفران بعد العصيان، وقد رُويَ عن أنس رضي الله عنه تفصيلًا لها، وأنها كانت: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي، إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»(٢).

وهذا الذي ذكره أنس يحتمل أن يكون قاله الأبوان المباركان؛ لأنه تفصيل لا يخرج عما ذكره الله عز وجل لنا في سورة الأعراف، ولكن غيره من الروايات لا نقبلها في هذا الموضوع لضعف إسنادها، ومخالفة ظاهرها لألفاظ سورة الأعراف.

وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم دعاء آخر لآدم عليه السلام ليس في ميدان التوبة، وهو ما زال في الجنَّة، بل دعاء بعد نزوله إلى الأرض أي بعد أن تاب الله عليه، حيث جاء في هذه الرواية: «لَمَّا أَهْبَطَ اللهُ عز وجل آدَمَ عليه السلام إِلَى الْأَرْضِ قَامَ وِجَاهَ الْكَعْبَةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَلْهَمَهُ اللهُ هَذَا الدُّعَاءَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ سَرِيرَتِي وَعَلَانِيَتِي، فَاقْبَلْ مَعْذِرَتِي، وَتَعْلَمُ حَاجَتِي فَأَعْطِنِي

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٤٢).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٣٦٠).

سُؤْلِي، وَتَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبِي، وَيَقِينًا صَادِقًا حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُنِي إِلَّا مَا كَتَبْتَ لِي، وَرِضًا بِمَا قَسَمْتَ لِي. فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: يَا آدَمُ، إِنِّي قَدْ قَبِلْتُ تَوْبَتَكَ، وَغَفَرْتُ لَكَ ذَنْبَكَ، وَلَنْ يَدْعُونِي أَحَدٌ بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ ذَنْبَهُ، وَكَفَيْتُهُ الْمُهِمَّ مِنْ أَمْرِهِ، وَزَجَرْتُ عَنْهُ الشَّيْطَانَ، وَاتَّجَرْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ، وَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ الدُّنْيَا رَاغِمَةً، وَإِنْ لَمْ يُرِدْهَا[1].

ورُوي عن ابن عباس ﷺ: قال آدم عليه السلام: أي رب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسكني جَنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسبق رحمتُك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم[2].

فهذه الأدعية -مع ضعف إسنادها- لا علاقة لها بالكلمات التي قالها آدم عليه السلام حين منَّ الله عليه وعلى زوجه بالتوبة المباركة، بل إنَّها -إن صحت- أدعية رددها آدم عليه السلام بعد هبوطه إلى الأرض.

ويلفت الطبري إلى هذا العامل الحاسم في المعركة مع إبليس، وأنَّ قصة آدم مسوقة قصدًا لذكر هذا العامل، فيبين أنَّ تلقي آدم عليه السلام للكلمات وترديدها مع وجود صدق قلبه المنيب: «تعريف منه جل ذكره جميعَ المخاطبين بكتابه، كيفية التوبة إليه من الذنوب، وتنبيهٌ للمخاطبين بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].. على موضع

---

(١) المعجم الأوسط (٥٩٧٤) (٦ / ١١٧)، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١ / ٥٧): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه النضر بن طاهر وهو ضعيف»، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٣/ ٩٢٥): «منكر».

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٤٢)، المستدرك (٤٠٠٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وضعفه الشيخ صبحي الحلاق في صحيح وضعيف تاريخ الطبري (٦/ ٨٤).

التوبة مما هم عليه من الكفر بالله، وأنّ خلاصهم مما هم عليه مُقيمون من الضلالة، نظير خلاص أبيهم آدم عليه السلام من خطيئته، مع تذكيره إيَّاهم به السالفَ إليهم من النعم التي خَصَّ بها أباهم آدم وغيرَه من آبائهم»[١].

هنا نأتي إلى بصائر قول ربنا: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾.. فما وجه قوة الكلمة القرآنية ﴿تاب﴾، وما وجه جمالها؟

بصيرة: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ ضع البذرة، واقطف الثمرة، فتبصرنا هذه الكلمة من خلال لفظها بكيفية قطف ثمرتها، فكلمة: (تاب) توبًا وتوبة تعني رجع رجوعًا محددًا يصحبه الحياء.

ذهب الخليل رحمه الله إلى أن معنى التوبة: الاستِحياءُ، يقال: ما طعامُكَ بطَعامِ تَوْبةٍ، أي: لا يُستَحيا منه ولا يُحْتَشَمُ، وهو معنى رائع يجمع الاستحياء إلى الندم والرجوع في معنى التوبة[٢].

وعرَّف الرَّاغب رحمه الله التوبة على أساس أثر الحياء والندم والرجوع، فقال: «التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه»: فيقال: تبت أي رجعت إليك فتقبل توبتي أي تقبل رجوعي، قال: الشَّاعرُ:

تُبْتُ إِلَيْكَ فَتَقَبَّلْ تَابَتِي ... وصُمْتُ رَبِّي فَتَقَبَّلْ صَامَتِي[٣]

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٤٧).

(٢) العين (٨/ ١٣٨).

(٣) الرجز بلا نسبة، كما في سر صناعة الإعراب (٢/ ٣٠٩)، لسان العرب (١/ ٢٣٣).

وعرف الرَّاغب رحمه الله التوبة على أساس أثرها أي على أساس أثر الاستحياء والندم والرجوع، فقال: «التوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة».

ثم ذكر شرائط التوبة بصورة جميلة، فأبان أنها:

ترك الذنب مستشعرًا قبح هذا الذنب.. والندم على ما فرط منه في الماضي.. والعزيمة على ترك المعاودة..وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة في الحاضر والمستقبل..

فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة[1].

فهذا العبد الذي كسب الذنوب يرجع إلى ربه مستحييًا مما مضى، ومقبلًا على المستقبل، ويوصف هنا بأنه تائب فقد تاب من الذنب، ويقابله ربه الكريم، فإذا قبل التوبة من عباده نصفه بأنه تواب وتائب؛ لأنه تاب على عبده التائب.

فالواجب عند الوقوع في الزلل المسارعة بالعودة، وإحسان الظن بعفو الله ومغفرته، وسؤال الله عز وجل أن يعامل سبحانه وتعالى الأبناء بما عامل به الآباء حيث تلقاهم برضوانه، وأسبغ عليهم ستر امتنانه.

أَحْسِنِ الظَّنَّ مَا اسْتَطَعْت بِرَبِّك ... فالأماني جُمِعْنَ فِي حُسْنِ ظَنِّكْ

وَإِذا مَا أُصِبْتَ يَوْمًا بِضُرٍّ ... فإليه اللَّجَا فِي كَشْفِ ضُرِّكْ

وَإِذا مَا انْتَحَاكَ أَمْرٌ عَسِيرٌ ... فَهُوَ الْمُرْتَجَى لِتَيْسِيرِ أَمْرِكْ

وذُنُوبٌ خَبَّأْتَهُنَّ قَدِيمًا ... وحَدِيثًا كَسَرْنَ عَظْمَ ظَهْرِكْ

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٦).

تـب إِلَـيْـهِ والـجـأ مِـنْـهَـا إِلَـيْـهِ[1] فَهُوَ أدنى إِلَيْكَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِـكْ
ودُمُـوعُ الـحَـزِيـنِ لَا تُـمْسِـكَـنْـهـا ولْتَـدَعْهَـا مَسَـارِبًـا تَحْـتَ نَحْرِكْ
وَاقْـدَحَنْ فِي الضـلـوعِ نَـارَ مَتَـابٍ فعسـاهـا تُـمِيـتُ نِيرانَ رَوْعِـكْ
وَإِذا مَـا تَـعَـاظَـمَـتْـكَ ذنُـوبٌ فـاعتقـادُ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ ذَنْبِكْ[2]

هنا نسأل: إذا كانت التوبة تعني الحياء، فكيف نفهم حقيقتها؟

الجواب: توبة آدم وزوجه عليهما السلام اقترنت بحال عاطفي ظاهر، فقد أظهرا الاستحياء الشديد من ربهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وذلك يدل على شدة حيائهما من ربهما مع أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، واقترن بالكلمات التي قالاها فعلٌ هو تلقي الكلمات بالقبول وقولها، والقول فعلٌ أيضًا، والكلمات تعكس ندمًا شديدًا حيث قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وكل كلمة منها تدل على ندم شديد.

وبذا اجتمع في توبة أبوينا عليهما السلام ثلاثة أمور مرتبة: علم بضرورة التوبة، وحال بإظهار الندم والحياء، وفعل بقول تلك الكلمات، والبحث عما يسترهما بعد أن بدت سوءاتهما.

ويُبَيِّنُ الغزاليُّ رحمه الله ضرورة وجود هذه الأركان الثلاثة، فالْعِلْمُ معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابًا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ كُلِّ مَحْبُوبٍ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ مَعْرِفَةً مُحَقَّقَةً بِيَقِينٍ غَالِبٍ عَلَى قَلْبِهِ ثَارَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ تَأَلُّمٌ لِلْقَلْبِ بِسَبَبِ فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ مَهْمَا شَعَرَ بِفَوَاتِ

(١) كذا في المطبوع ولعلها: تُبْ إِلَيْهِ والْجَأْ إلى الله مِنْهَا.

(٢) العاقبة في ذكر الموت لابن الخراط (ص: ١٤٩)، ولعل عجز البيت الأخير يكون بلفظ: (فاعتقادُ القنوطِ أَعْظَمُ ذَنْبِكْ)، حتى يستقيم المعنى.

مَحْبُوبِهِ تَأَلَّمَ، فَإِنْ كَانَ فَوَاتُهُ بِفِعْلِهِ تَأَسَّفَ عَلَى الْفِعْلِ الْمُفَوِّتِ، فَيُسَمَّى تَأَلُّمُهُ بِسَبَبِ فِعْلِهِ الْمُفَوِّتِ لِمَحْبُوبِهِ نَدَمًا، فَإِذَا غَلَبَ هَذَا الْأَلَمُ على القلب واستولى وانبعث مِنْ هَذَا الْأَلَمِ فِي الْقَلْبِ حَالَةٌ أُخْرَى تُسَمَّى إِرَادَةً وَقَصْدًا إِلَى فِعْلٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بالحال والماضي وَبِالِاسْتِقْبَالِ، أَمَّا تَعَلُّقُهُ بِالْحَالِ فَبِالتَّرْكِ لِلذَّنْبِ الَّذِي كَانَ مُلَابِسًا، وَأَمَّا بِالِاسْتِقْبَالِ فَبِالْعَزْمِ عَلَى تَرْكِ الذَّنْبِ الْمُفَوِّتِ لِلْمَحْبُوبِ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ، وَأَمَّا بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلًا للجبر.

فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبًا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول [1].

وها هم أَدِلَّاء الطريق ينادونك نداء المتعطف عليك: «التَوبةَ التوبةَ قبل أن يصل إليكم من الموت النَّوْبة، فيحصلَ المفرطُ على الندمِ والخيبةِ.. الإنابةَ الإنابةَ قبل غَلْقِ بابِ الإجابةِ،

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣).

الإفاقةَ الإفاقةَ فقد قرُبَ وقتُ الفاقَة.. ما أحسنَ قلقَ التَّوَّاب! ما أحْلَى قُدومَ الغُيَّابِ! ما أجملَ وقوفَهم بالبابِ!»[1].

يَا غَافِلَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الْمَنِيَّاتِ ... عَمَّا قَلِيلٍ سَتُثْوَى بَيْنَ أَمْوَاتِ

فَاذْكُرْ مَحَلَّكَ مِنْ قَبْلِ الْحُلُولِ بِهِ ... وَتُبْ إِلَى اللهِ مِنْ لَهْوٍ وَلَذَّاتِ

إِنَّ الْحِمَامَ لَهُ وَقْتٌ إِلَى أَجَلٍ ... فَاذْكُرْ مَصَائِبَ أَيَّامٍ وَسَاعَاتِ

لا تَطْمَئِنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... قَدْ حَانَ لِلْمَوْتِ يَا ذَا اللُّبِّ أَنْ يَاتِي[2]

ويُلَخِّصُ محمد رشيد رضا رحمه الله عبرةً مِن أَهَمِّ العِبَرِ المستفادة من قصة بدء البشريَّة والمعركة الأولى التي حدثت بين الشيطان والإنسانيَّة فيقول: «فَحَاصِلُ الْقَوْلِ: أَنَّ الْأَطْوَارَ الْفِطْرِيَّةَ لِلْبَشَرِ ثَلَاثَةٌ:

طَوْرُ الطُّفُولِيَّةِ: وَهُوَ طَوْرُ نَعِيمٍ وَرَاحَةٍ.. وَطَوْرُ التَّمْيِيزِ النَّاقِصِ: وَفِيهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عُرْضَةً لِاتِّبَاعِ الْهَوَى بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ..وَطَوْرُ الرُّشْدِ وَالِاسْتِوَاءِ: وَهُوَ الَّذِي يَعْتَبِرُ فِيهِ بِنَتَائِجِ الْحَوَادِثِ، وَيَلْتَجِئُ فِيهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ إِلَى الْقُوَّةِ الْغَيْبِيَّةِ الْعُلْيَا الَّتِي مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَهَكَذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي أَفْرَادِهِ مِثَالًا لِلْإِنْسَانِ فِي مَجْمُوعِهِ»[3].

وأما من نزل به الشيب فهو بمنزلة الحامل التي تمت شهور حملها، فما تنتظر إلا الولادة كذلك صاحب الشيب لا ينتظر إلا الموت، فقبيح منه الإصرار على الذنب.

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبَابِ الْمَشِيبُ ... وَنَادَتْكَ بِاسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ

---

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، (ص: ٣٤٦).

(٢) الأبيات من غير نسبة في: القبور لابن أبي الدنيا (ص١٧٤)، مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن (ص٥١٣).

(٣) تفسير المنار (١/ ٢٣٥).

فَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِدَاعِي الْمَنُونِ ... فَكُلُّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبُ
وَقَبْلَكَ دَاوَى الْمَرِيضَ الطَّبِيبُ ... فَعَاشَ الْمَرِيضُ وَمَاتَ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتُوبُ ... فَكَيْفَ بِحَالَةِ مَنْ لَا يَتُوبُ [1]

بصائر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]:

ثم ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].. فماذا يعني هذا الختم؟

الجواب: تُبَصِّرُنا صِيَغُ المبالغة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] بمدى الرحمة الإلهية بالحياة الإنسانيَّة، وأن العامل الرابع من عوامل النجاح في اختبار الاستخلاف الإنساني في الأرض متوفر بصورة دائمة:

﴿إِنَّه﴾ هاتان الكلمتان ﴿إن﴾ والضمير (الهاء)، تُصَوِّرَان لنا التأكيد الشديد على هذه الحقيقة العظيمة: الله التواب الرحيم، فالهاء اسم «إنَّ»، و(هو) مبتدأ، و«التواب» الخبر، والجملة خبر إنَّ.

إنَّ هذا العامل حاسم في إزالة التفكير الإبليسي الذي يُشعر الإنسان باليأس من نفسه كلما وقع في معصية.. فالله ﷻ يحب الخير لعباده من المذنبين فيتوب على من تاب منهم؛ لذا جاءت هاتان الصفتان: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ .

يا رَبِّ عُدتُّ إلى رِحَابِكَ تَائبًا ... مستسلمًا مُتَمَسِّكًا بِعُرَاكَا
مَا لي وما للأغنياء وأنت يا ... رَبِّ الغَنِيُّ، ولا يُحَدُّ غِنَاكَا
مالي وما للأقوياء وأنت يا ... رَبِّي ورَبَّ النَّاس، ما أَقْوَاكَا

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، (ص: ٣٤٤).

مـالي وأبواب الملوك وأنـت مَنْ ... خـلـق الـمـلـوكَ وقسَّـــم الأفلاكـا

إنِّي أَوَيْـتُ لِكُـلِّ مَـأْوًى في الحيـا ... ةِ فمـــا رأيتُ أَعَـــزَّ مِنْ مَأْوَاكَا

وتَلَمَسَّـتْ نَفْسِـي السَّـبِيلَ إلى النجا ... ةِ فَلَمْ تَجِدْ مَنْجًى سِــوى مَنجَـاكَـا

وبَحَثْتُ عِنْ سِـرِّ السـعادة جَاهِدًا ... فَوَجَـــدتُّ هـذا السِّـرَّ في تَقْوَاكَـا

فَلْيَرْضَ عَنِّي النَّاس أو فَلْيَسْـخَطُوا ... أنا لَمْ أَعُـــدْ أَسْـعَى لغير رِضَـاكَا

أدعـــوك يا رَبِّي لِتَغْـــفِرَ حَوْبَتِي ... وتُـعِـينَنِي وتُـمِـدَّنِي بِـهُـــدَاكَـا

وانظر كيف يَتَحَبَّبُ الله ﷻ إلى عباده بالجمع بين صفتي التوبة والرحمة..

وإن سألتني عن معنى هاتين الصفتين.. أجيبك:

الصفة الأولى: (التَّوَّاب)، وهي صيغة مبالغة من تائب..

وهنا نتساءل.. لماذا وَصَفَ الله ﷻ نَفْسَهُ العَلِيَّةَ بصيغة المبالغة؟

الجواب: ﴿التَّوَّاب﴾ من التوبة، وهي العودة والرجوع، أي رجاع على عباده التائبين رجوعًا محددًا، وهو الرجوع عليهم بالقبول، فهو صيغة مبالغة، وبذا يكون المعنى: فرجع آدم من ذنبه إلى ربه فرجع الله عليه بفضله ورحمته، إنه هو الرجاع رجوعًا لائقًا به في تفضله على من يرجع إليه تاركًا ذنوبه نادمًا عليها، ومن أسباب الإتيان بهذه الصفة على طريقة المبالغة:

١) هذا الوصف يكشف عن العلاقة المباشرة بين الله وبين عباده، فيمنع أن يوجد وسيط بينهم وبين ربهم جل مجده، فهو التواب عليهم إن هم تابوا إليه، ولا يحتاجون في ذلك إلى واسطة يقصدونها دونه.

٢) لأنه يتحبب إلى عباده لصالح أنفسهم؛ إذ هذا الوصف يكشف عن كثرة من يذنب من خلقه من حيث عددهم، وعلى كثرتهم لا يغلق الله أمامهم أبواب التوبة، ولا يمتنع عن الاستماع لآلامهم وشكواهم من ذنوبهم.

٣) يكشف هذا الوصف كثرة ذنوب الإنسان الواحد منهم، فمهما كثرت ذنوبه وتنوعت فإنه إن تاب تاب الله عليه، فهو التواب الذي يكثر من التوبة على عباده.

٤) يكشف هذا الوصف أيضًا تكرار الإنسان لذنب بعينه، وعلى الرغم من ذلك فالله تواب على عباده.. إنها الطبيعة الإنسانيَّة التي لا يمكن أن تخلو من ذنب.

٥) في واقعة تحدٍّ يتظاهر بها إبليس أمام ربه يظهر الله لنا آثار اسمه التواب؛ فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»(١).

٦) يكشف هذا الوصف شدة تحبب الله إلى عباده، فإن الملك من مُلُوكِ الدُّنْيَا مَتَى جَنَى عَلَيْهِ إِنْسَانٌ ثُمَّ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ الِاعْتِذَارَ، ثُمَّ إِذَا عَادَ إِلَى الْجِنَايَةِ وَإِلَى الِاعْتِذَارِ مَرَّةً أُخْرَى فَإِنَّهُ قد يقبله، وقد يمتنع من قبوله، أما في الثالثة فلا يكاد يوجد أحد يقبل الاعتذار من خطأ يرتكبه الإنسان عمدًا ثلاث مرات، أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ التَّوْبَةَ لَا لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى رِقَّةِ طَبْعٍ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ، بَلْ إِنَّمَا يَقْبَلُهَا لِمَحْضِ الْإِحْسَانِ وَالتَّفَضُّلِ (٢).. ويقرِّر ذلك النبي ﷺ، فيقول: «قَالَ اللهُ تبارك وتعالى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي

(١) أحمد(١١٢٣٧)، وقال محققو المسند: حديث حسن بمجموع طرقه، وحسَّنه الألباني أيضًا في صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٤٦٨).

غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(٢).

وكان عتبة الغلام من الصالحين يقول: «اللهم أنت أنت وأنا أنا، أنا العواد إلى الذنوب وأنت العواد الى المغفرة»، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَارِسٍ يَقُولُ: يَا صَاحِبَ الذُّنُوبِ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَتُوبَ؟! يَا صَاحِبَ الذُّنُوبِ، إِنَّ الذَّنْبَ فِي الدِّيوَانِ مَكْتُوبٌ، يَا صَاحِبَ الذُّنُوبِ، أَنْتَ بِهَا فِي الْقَبْرِ مَكْرُوبٌ، يَا صَاحِبَ الذُّنُوبِ، أَنْتَ غَدًا بِالذُّنُوبِ مَطْلُوبٌ(٣).

فيا أخياه:

إلى الله تُبْ قبلَ انقضـــاءٍ منَ العمرِ ... أُخَـيَّ ولا تـأمـنْ مـفـاجـأةَ الأمْـرِ

ولا تَسْـتَصِـمَّنْ عن دعـائي فـإنمـا ... دعوتُك إشـفـاقًا عليكَ من الوزرِ

فقـد حَـذَّرَتْـكَ الحـادثـاتُ نزولَهـا ... ونـادتـك إلا أنَّ سَـمْعَـكَ ذو وَقْرِ

تنوح وتبكي للأحبة إن مضـوا ... ونَفْسَـكَ لا تبكي وأنت على الإِثْرِ

---

(١) الترمذي (٣٥٤٠)، وقال: «حسن غريب»، وهو يغني عن غيره مثل قوله ﷺ:«إِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ ذَنْبًا قَدِ اعْتَادَهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبًا لَيْسَ بِتَارِكِهِ حَتَّى يَمُوتَ، أَوْ تَقُومَ عَلَيْهِ السَّاعَةُ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُذْنِبًا مُفَتَّنًا خَطَّاءً نَسَّاءً فَإِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ» رواه في المنتخب من مسند عبد بن حميد (ص: ٢٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير٩/ ١٥٠، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (١١/ ٧٩): «وأحد أسانيد الكبير رجاله ثقات»، وفي فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٥ / ٦٢٧): «(مُفَتَّنًا) بالتشديد أي: ممتحنًا، يمتحنه الله ﷻ بالبلاء والذنوب مرة بعد أخرى، والمُفْتَن: الممتحن الذي فُتِنَ كثيرًا».

(٢) مسلم (٢٧٤٩).

(٣) تفسير الرازي (٣/ ٤٧١).

وهنا نتساءل عن اسمه المعظَّم المبارك ﴿الرَّحيم﴾، فما سر اقترانه باسمه العظيم ﴿التواب﴾؟

الجواب: تكرَّر اقتران اسم ﴿التَّواب﴾ باسم ﴿الرَّحيم﴾ سبع مرَّات في القرآن الكريم؛ لأن التوبة صفة عامَّة، تدلُّ على عودة الوصل المنقطع.. عودة العلاقة الجميلة التي قطعها الإنسان، حين خان عهد الرحمن، وأطاع أهواءه، ووقع أسيرًا للشيطان..وأما وصف الله ﷻ بالرحمة فتُظْهِرُ الحفاوةَ الإلهيَّةَ العظيمةَ.

وأما (رحيم) فمشتق من كلمة (رَحِمَ) وهي بالنسبة للبشر كلمةٌ تدُلُّ عَلَى أجمل الصفات التي تُفاض على الآخرين، فرأى ابن فارس في هذه الكلمة الدلالة على الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، فيُقَالُ فيها: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، ولكن هذا الوصف للرحمة يناسب البشر، فالرحمة نوعٌ من الإحسان قائمٌ على تلك الصفة الذاتية الكريمة تجمع بين اللطف والحنان والإحسان والإرادة العظيمة لمنح المرحوم الخير، وينبثق عنها أمور:

١) إرادة الخير، فقد جاء فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِي في تعريفها: إرادةُ اللهِ الخَيْرَ بأَهْله، وَهِي على هذَا صَفَةُ ذَات[1].

٢) الإنعام على المرحوم في ظاهره وباطنه.

٣) والاقتراب بالفعل الذي يساعده ويعينه.

٤) فيوسع الله له ما كان ضيقًا من حاله ونفسه وواقعه وعقله وفكره.

٥) ويزيل عنه الكربات، ويسبل عليه الخيرات.

٦) فأَدْناها كَشْفُ الضُّرِّ وكَفّ الأَذَى، وَأَعْلاها الاخْتِصَاص برَفْع الحِجاب.

---

(١) تفسير الثعلبي (١/ ٩٩).

فإذا كان الرحمن صفة ذات تدل على من وسع كل شيء رحمة، فإنَّ الرحيم صفة فعل يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته.

فالعلاقة بين قوله: ﴿التواب﴾ وقوله ﴿الرحيم﴾ تدفعك إلى مستقبلٍ مشرقٍ حين ترجع إلى الملك العظيم، فالرحمة هي أساس التوبة من جهة، فالله يتوب على عباده لشدة رحمته بهم، وهي مكملة للتوبة من جهة أخرى، وهي ثمرة للتوبة من جهة ثالثة، حيث يظهر لك اسم ﴿الرحيم﴾ أنَّه تعالى مَجْدُه لا يغفر للمذنب السيئات فحسب، بل يتعدى الأمر إلى أن يغدق عليه بالخيرات والنعم والعطايا السابغات، لذا وصف نفسه بأنه الرحيم، ويبين رسول الله ﷺ مقدار رحمة الله ﷻ فيقول: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»(١).

قال السمين الحلبي رحمه الله: «وقُدِّم التوابُ على الرحيم؛ لمناسبةِ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾، ولأنه موافقٌ لخَتْم الفواصلِ بالرحيم»(٢)، وإن كنت أرى أن ختم الفواصل لا يقصد لألفاظها بل لمعانيها.

والسؤال الآن: كيف يدفعنا هذا العامل: (التوبة)إلى إعادة التفكير في علاقتنا بربنا ﷻ؟

الجواب: هنا نقول: اسْتَيْقِظْ واسْتَعِدَّ للتحَدِّي، فكلما وَقَعْتَ في نتن الذنب، أَمْكَنك التَّخَلُّصُ منه بالاستمساك بِحَبْلِ التَّواب الرَّحيم، فإنِ استمسكتَ به، فَتَهَيْأ لوثبة النجاح

(١) مسلم (٢٦٨٧).

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١/ ٢٩٦).

بالقومة لله، والقومة هِيَ الْيَقَظَة من سِنَةِ الْغَفْلَة، والنهوض من ورطة الفترة.. وَهِي أول مَا يَسْتَنِير قلب العَبْد بِالْحَيَاةِ لرؤية نور التَّنْبِيه، واليقظة هِيَ ثَلَاثَة أَشْيَاء:

الأول: لحظ الْقلب إِلَى النِّعْمَة على الْإِيَاس مِنْ عَدِّهَا.. وَالْوُقُوف على حَدِّهَا (التكريم الإلهي للإنسانية).

وَالثَّانِي: رصد العدو.. والتشمير لمقاومته.

وَالثَّالِث: الانتباه لمعْرِفَة الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان فِي الْأَيَّام، والتنصل عَن تضييعها.. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[1].

فيا مُسْرِفًا عَضَّهُ أَلَمُ الذَّنْبِ، وأَحَاطَتْ به سَيِّئَتُه.. بَادِرِ العُمُرَ بِتَوْبَةٍ مُوقِظَةٍ، ونَهْضَةٍ مُرْقِيةٍ إلى حضرة الله الكريم، التَّوابِ الرَّحِيمِ.. وليكن هِجِّيرَاك:

أســأتُ ولمْ أحســنْ وجئتك هاربًا ... وأنَّى لعبدٍ منْ مواليهِ مهرَبُ

يؤمِّلُ غفرانًا فإنْ خابَ ظنُّهُ ... فما أحدٌ منهُ على الأرضِ أخْيَبُ[2]

وهنا نتساءل: كيف أظهر لنا قول ربنا ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] خَطَأَ المُحَرِّفِين لدين الله، وخَطَأَ المُلْحِدينَ أيضًا؟

الجواب: قصة آدم عليه السلام في القرآن المجيد تظهر لنا أن المعرفة القرآنية ملجأ عظيم من ظلمات الإلحاد الذي قد يكون سببه تحريف الأديان؛ فالقرآن ليس فيه محل لنظرية الخطيئة الأصلية التي يذكرها علماء المسيحية، ويزعمون أن خطيئة آدم لازمة لذريته، وأنه لا يطهرها إلا الإيمان بأن المسيح قام بذلك بقبوله بالصلب.. هذه النظرية لا محل لها في القرآن، فالقرآن

---

(١) منازل السائرين (ص: ١١) بتصرف لائق بالآيات.

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٤٦).

فيه أن آدم وزوجه عليهما السلام أزلهما الشيطان، وعصى آدم ربه فغوى، ثم تلقى كلمات من ربه فتاب عليه ربه، إنه هو التواب الرحيم، والله ﷻ قد منح البشريَّة التكريم بالعقل وثمرته وهو العلم ليكون أداة القياس المميزة للاختيار الحسن من الاختيار القبيح، وليس كما في التوراة أن الرب أراد منع آدم من أن يتذوق من شجرة معرفة الخير والشر، بل منح الله ﷻ آدم عليه السلام وذريته الأداة التي تميز العدو من الصديق، وجعل لهم الدنيا مضمارًا مكانًا (الأرض) وزمانًا (إلى حين)، وهنا يكون الصراع الحقيقي بين الإنسان بأشواقه إلى التحرر من عبودية نفسه، وتطلعاته إلى الآفاق العليا ليكون عبدًا حقيقيًا لخالقه الحكم العدل الحق المبين، وبين الشيطان والنفس الأمارة بالسوء[1].

وهنا تعلم صفاء المعرفة القرآنية، وعمق موافقتها للعقل والمنطق والفطرة الإنسانيَّة السوية.

آدم كان مسؤولًا عن نفسه.. عن خطيئته.. تاب منها فتاب الله عليه، أما ذريته فلا علاقة لهم بخرافة الخطيئة الأصلية التي زينها محرفو النصارى..يا حسرة عليهم بل يا رحمة لهم ..!

كيف اقتنعوا بهذه الفكرة الكاذبة الخاطئة: فكرة الخطيئة الأصلية؟!

هل يعقل أن يرث الأبناء ذنب أبيهم آدم الذي تاب منه أصلًا؟!

---

(١) هذه رؤوس الأفكار الأساسية التي تقدمها المعرفة القرآنية للحصول على الفلاح المتوهج في هذه الحياة، وقد حاول علم النفس المعاصر الذي أسسه سغموند فرويد حسب ما يدعى "النظرية البنيوية" "structural theory" في عام ١٩٣٢ أن يقدم الأمر وفق المعرفة البشرية القاصرة، فقدم المصطلحات الثلاث ليصف فكرته عن التقسيم بين العقل الواعي conscious والعقل اللاواعي: الهو 'id' والأنا 'ego' والأنا العليا 'super-ego'، فال (هو) (Id) يقابلها عندنا الشيطان أو طبيعة النفس الأمارة بالسوء التي تريد الاستحواذ على كل شيء، والأنا العليا (super ego) يقابلها الخير المنغرس في الإنسان، وما يردفه من الخبرات الخيرة المكتسبة، والأنا (ego) ويقابلها النفس المترددة بين الحالتين.. أفليس هدى الله أقوم قيلًا.

إن هذه العقيدة الآثمة كانت أحد أهم أسباب الإلحاد الذي تفشى عندهم، ثم أرسلوا رسلهم ليساعدوا المؤسسات الخاطئة عندنا لنشر الإلحاد؟

هنا نفهم قول جفري لانج[١] مبررًا سبب إلحاده قبل أن يعرف صفاء المعرفة القرآنية: «أرفض أن أتوب عن خطأ جسيم لم أرتكبه أصلًا»[٢].

وقبله تنبأ محمد أسد عام ١٩٣٤م أنَّ العقيدة النيقية النصرانية، وخاصة أفكار التجسيد والتثليث لن تبعد أصحاب الفكر عن كنائسهم وحسب، بل عن الإيمان بالله تبعًا لذلك[٣].

عرفنا العامل الرابع من عوامل النجاح في اختبار الحياة في الأرض، وهو: التوبة متاحة عند أي فشلٍ مؤقت في المعركة مع الشيطان باقتراف المعصية، فيلجأ العبد إلى ﷻ الله ليتلقى منه ما يعينه على قلب الهزيمة إلى انتصار، ويبصرنا بهذا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، فباب التوبة مفتوح، فما العامل الخامس؟

الجواب:

---

(١) جيفري لانج: (Jeffrey Lang) من مواليد (٣٠ يناير ١٩٥٤م، مدينة برديجبورت) بروفيسور أمريكي في الرياضيات. يعمل حاليًا في قسم الرياضيات في جامعة كنساس، ولد جيفري لانج لعائلة كاثوليكية، ودرس أيضًا في مدرسة كاثوليكية، وبعد حصوله على الدكتوراه في الرياضيات وبعد سنوات من التدريس في جامعة سان فرانسسكو، في بدايات ١٩٨٠م، تعرَّف على الطالب العربي حمد قنديل؛ وأعجب بسماحة أخلاقه وطيب مُعاملته، وأهداه نسخة مترجمة من القرآن، وقرأه د. لانج بعد مدة لفضوله. فتأثر به وأعلن إسلامه، موكِّدًا أنه يجد راحة روحية كبيرة بصفته مسلم.

(٢) حتى الملائكة تسأل (ص: ١٨).

(٣) من تقديم د. مراد هوفمان لكتاب: "حتى الملائكة تسأل"، (ص: ١٢)، والعقيدة النيقية عبارة عن إيمان يستخدم على نطاق واسع في الشعائر المسيحية. يطلق عليها نيقية لأنه تم اعتمادها أصلًا في مدينة نيقية (إزنيق الحالية، تركيا) من قبل مجمع نيقية الأول في ٣٢٥م.

العامل الخامس: اتباع المنهاج الإلهي والدستور الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضية؛ لضمان عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على الماضي:

العامل الخامس

اتباع المنهاج الإلهي والدستور الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضية

١ **المقصد الأول**

الهبوط إلى الأرض مقصودٌ من خلق البشرية؛ حتى تتحقق المصالح المتعلقة بالاستخلاف: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

٢ **المقصد الثاني**

تكفل الله عز وجل بهداية الناس وبيان الحق لهم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

٣ **المقصد الثالث**

جعل الله عز وجل للناس حرية الاختيار: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ (البقرة: ٣٨).

٤ **المقصد الرابع**

يحذِّر الله عز وجل البشريَّة من خطر اختيارهم؛ لأنه سيترتب عليه نتائج خطرة، حيث سينقسمون إلى صنفين: المتبع للهدى الإلهي، والمعرض عنه.

ويبصرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

فإن لم يتبع الإنسان تعليمات الهدى الإلهي واجه المصير الخطير للكافر الذي يغطي أعظم حقائق ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩]:

جمعت هاتان الآيتان أعظم مقاصد القرآن التي تلخص وجود الإنسان وحياته في الأرض:

المقصد الأول: الهبوط إلى الأرض مقصودٌ من خلق البشرية حتى تتحقق المصالح المتعلقة بالاستخلاف: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ [البقرة: ٣٦]، الإنسان هبط من الجنة، ويعيش في الأرض مع صديق يراه هو زوجه، ومع عدوٍّ لا يراه وهو الشيطان.

حتى ندرك هذا المقصد نضع هذا السؤال التدبري:

لماذا تكرر ذكر الهبوط مرتين في هذه القصة حيث قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].. ثم قال بعدها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]؟

الجواب: هنا تأتي:

بصيرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ تُبَصِّرُنا بأن ذكر الهبوط مرة أخرى لمصلحة عظيمة للبشرية؛ إذ نبههم الله ﷻ إلى التخطيط الجيد والواعي للحياة في المستقبل، فذكر الله ﷻ الهبوط سابقًا؛ لبيان تحقق علامة الهبوط وهو الأكل من الشجرة، وذكره هنا لبيان أنه مقصودٌ من خلق البشرية حتى تتحقق المصالح المتعلقة بالاستخلاف، فهو مقصودٌ عند خلق آدم عليه السلام وقبل أن يُذنِب.

فترى أن الله ﷻ أرشدهم سبحانه إلى المراحل الحيوية المتكررة التي ستواجههم:

مثل النعمة المتكررة التي تمثلها هنا الجنة والعافية، والهبوط إلى الأرض، والاستقرار المؤقت فيها، والعداوة الدائمة مع الشيطان، وخسارة بعض المعارك المستقبلية مع هذا العدو الشديد باقتراف بعض الذنوب، وتحويل الهزيمة إلى نصر بالتوبة، ومجيء الهدى من الله ﷻ ليرشد إلى كيفية إقامة الاستخلاف في الأرض، وكيفية الفوز في الحرب التي سعرها إبليس، ولتعلم كيفية عمارة الحياة وفق المراد الإلهي، وهنا ترى أن التوبة المقبولة لم تلغ الأمر بالهبوط، بل قبلت التوبة، وصار الأمر بالهبوط متحتمًا بعد أن تمت المرحلة التدريبية التربوية لآدم عليه السلام ليبدأ خلافته في الأرض.

وهنا يطرح السؤال نفسه حول هذه المعصية التي اقترفها آدم وزوجه عليهما السلام، فقد طرحه الزمخشري رحمه الله وغيره من المفسرين، فقالوا:

إن كانت كبيرة، فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن صغيرة، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء، كما فعل بإبليس ونسبته إلى الغيِّ والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة؟

الجواب:

أولًا: أجاب علماؤنا بأجوبة، ومن أهم ما نجمعه حولها أن هذه الخطيئة ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى، تعظيمًا للخطيئة، وتفظيعًا لشأنها وتهويلًا، وليكون ذلك تدريبًا له ولذرّيته عندما ينزل إلى ميدان التكليف الحقيقي الذي خلق له في الأرض، فيكون

قد عرف حقيقة عدوه، وذاق مرارة خطئه، فيعينه ذلك على أن يجتنب الخطايا ويتقي المآثم(١).

ثانيًا: الهبوط إلى الأرض ليس عقوبة بل تحقيق لسبب الخلق الإنساني.. فأشار الرازي رحمه الله إلى أَنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ عليهما السلام لَمَّا أُتِيَا بِالزَّلَّةِ أُمِرَا بِالْهُبُوطِ فَتَابَا بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْهُبُوطِ، وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِمَا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْهُبُوطِ لَمَّا كَانَ بِسَبَبِ الزَّلَّةِ، فَبَعْدَ التَّوْبَةِ وَجَبَ أَنْ لَا يَبْقَى الْأَمْرُ بِالْهُبُوطِ، فَأَعَادَ اللهُ تَعَالَى الْأَمْرَ بِالْهُبُوطِ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَعْلَمَا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْهُبُوطِ مَا كَانَ جَزَاءً عَلَى ارْتِكَابِ الزَّلَّةِ حَتَّى يَزُولَ بِزَوَالِهَا، بَلِ الْأَمْرُ بِالْهُبُوطِ بَاقٍ بَعْدِ التَّوْبَةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِهِ كَانَ تَحْقِيقًا لِلْوَعْدِ الْمُتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢).

فَبَيَّنَ الله عز وجل لآدم عليه السلام في الآية الأولى أنَّ وقوعه في الزلة صار علامة على أن يهبط من الجنة، وأما في الثانية فإنه يذكر الجميع بأن التوبة لا تعني إلغاء الأمر بالهبوط، والهبوط لا يعني ألا تصلهم رسالة الرحمن، بل سيأتيهم الهدى منه، وقد عد بعض المفسرين التكرير على أسلوب الترديد في علم البديع، وذلك لتأكيد الكلام وربطه، وَلِذَلِكَ لَمْ يَعْطِفْ: ﴿قُلْنَا﴾ لِأَنَّ بَيْنَهُمَا شِبْهَ كَمَالِ الِاتِّصَالِ لِتَنَزُّلِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] مَنْزِلَةَ التَّوْكِيدِ اللَّفْظِيِّ، ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] الْآيَةَ، وَهُوَ مُغَايِرٌ لِمَا بُنِيَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] لِيَحْصُلَ شَيْءٌ مِنْ تَجَدُّدِ فَائِدَةٍ فِي الْكَلَامِ(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الكشاف (١/ ١٢٩).

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٤٧١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٠).

وفي هذا التقرير نظر كما رأيته سابقًا، وقريبٌ من التوجيه الذي قررته وجدت ابن عاشور يقرره، فقال: «فَأَعَادَ لَهُ الْأَمْرَ بِالْهُبُوطِ بَعْدَ قَبُولِ تَوْبَتِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهُ مُرَادُ اللهِ تَعَالَى وَطَوْرٌ مِنَ الْأَطْوَارِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ جَعْلِهِ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْمَلَائِكَةَ عليهم السلام، وَفِيهِ إِشَارَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْعَفْوَ يَكُونُ مِنَ التَّائِبِ فِي الزَّوَاجِرِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَأَمَّا تَحْقِيقُ آثَارِ الْمُخَالَفَةِ وَهُوَ الْعُقُوبَةُ التَّأْدِيبِيَّةُ فَإِنَّ الْعَفْوَ عَنْهَا فَسَادٌ فِي الْعَالَمِ لِأَنَّ الْفَاعِلَ لِلْمُخَالَفَةِ إِذَا لَمْ يَرَ أَثَرَ فِعْلِهِ لَمْ يَتَأَدَّبْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَالتَّسَامُحُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ تَفْوِيتٌ لِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، فَإِنَّ الصَّبِيَّ إِذَا لَوَّثَ مَوْضِعًا وَغَضِبَ عَلَيْهِ مُرَبِّيهِ ثُمَّ تَابَ فَعَفَا عَنْهُ، فَالْعَفْوُ يَتَعَلَّقُ بِالْعِقَابِ، وَأَمَّا تَكْلِيفُهُ بِأَنْ يُزِيلَ بِيَدِهِ التَّلْوِيثَ الَّذِي لَوَّثَ بِهِ الْمَوْضِعَ فَذَلِكَ لَا يَحْسُنُ التَّسَامُحُ فِيهِ»(١).

«إن قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة.. إنها هي تجربة البشريَّة المتجددة المكررة! لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزودًا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا، استعدادا للمعركة الدائبة وموعظةً وتحذيرًا».

وذكر بعضهم أن الْهُبُوط الْأَوَّل مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَالثَّانِي مِنْ سَمَاءِ الدُّنْيَا إِلَى الْأَرْضِ، وهذا ضعيف لأن الله ﷻ قال فِي الْهُبُوطِ الْأَوَّلِ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، ولأَنَّهُ قال فِي الْهُبُوطِ الثَّانِي: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِنْهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَ الْهُبُوطِ الثَّانِي مِنَ الْجَنَّةِ(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٠).

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٤٧١).

هنا نسأل سؤالًا آخر: ما معنى قوله ﷻ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]؟

الجواب: هنا يأتي:

المقصد الثاني: تكفل الله ﷻ بهداية الناس وبيان الحق لهم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ لن يترك الرَّحمن ﷻ الإنسان وحيدًا، بل يرسل له الهدى مع الأنبياء ليرشده كيف يتعامل مع الحياة، فالهدى مصدره الله جلَّ مجده، يأتي للإنسان ليقود البشريَّة إلى الحياة السعيدة:

تعال نتدبر معاني هذه الجملة المباركة:

فكلمة: ﴿فَإِمَّا﴾ تَكَوَّنَتْ من الفاء التي تدلُّ على الأحداث التي ستكون بعد أن يهبطوا إلى الأرض، وكلمة: (إِنْ) شرطية، وكلمة: (ما) يقول الكوفيون: صلة، والبصريون يقولون: فيها معنى التوكيد، ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ في موضع جزم بالشرط، والنون مؤكدة، وإذا دخلت (ما) شبهت بلام القسم، فحسن المجيء بالنون، وجواب الشرط اقترن بالفاء في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨][1].

بصيرة: تُصَوِّرُ كلمة ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ الهدى وهو يأتي مُتَحَرِّكًا نحو النفس البشرية، فيظهر ذلك رحمة الله ﷻ بمجيء الهدى، وحنانه على البشرية حيث لا يتركهم سُدًى.. وحجته، فلا يحاسبون إلا أن يأتيهم هذا الهدى.

هنا يأتي السؤال:

فما معنى كلمة ﴿هُدًى﴾؟ وما سر هذا التعبير: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾؟

---

(١) إعراب القرآن للنحاس (١/ ٤٧).

الجواب:

﴿هُدَى﴾ من هدى[١]، وهو فعل يدل على البيان والإرشاد والدَّلالَةِ بلُطْفٍ إِلَى مَا يُوصِل إِلَى المَطْلوبِ كما يطلق على البعث الخفي إلى طريق الحق، ومن ذلك قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ، ومنه قَوْلُ أَعْشَى بَنِي ثَعْلَبَةَ:

إِذَا كَانَ هَادِي الْفَتَى فِي الْبِلَادِ ... صَدْرَ الْقَنَاةِ أَطَاعَ الْأَمِيرَا

وَخَافَ الْعِثَارَ إِذَا مَا مَشَى ... وَخَالَ السُّهُولَةَ وَعْثًا وُعُورَا

أي: إن القوة تكون أمام الفتى، فيمشي خلف ما يطلبه صاحبه، ويخاف أن ينحرف أو يسقط، ويحذر متبعًا ما يطلبه صاحب هذه القوة، حتى يرى أنَّ السهل صعب لشدة حذره من المخالفة.

وَيُقال: أَقْبَلَتْ هَوَادِي الْخَيْلِ، أَيْ أَعْنَاقُهَا، وَيُقال: هَادِيهَا: أَوَّلُ رَعِيلٍ مِنْهَا، لِأَنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ الهادي لغيره، وَالْهَادِيَةُ: الْعَصَا، لِأَنَّهَا تَتَقَدَّمُ مُمْسِكَهَا كَأَنَّهَا تُرْشِدُهُ، ولعله لذلك يسمى النهار الهُدَى؛ فالهدى البيان المرشد الذي يجعله الإنسان أمامه ليهديه إلى القرار الصحيح الذي يحقق له المصالح المطلوبة في الدارين، والهدى الذي يأتي من الله ﷻ.

وقد سبق في كتابي (الإسلام في سبع آيات)[٢] في تفسير سورة الفاتحة أنَّ الهداية أربعة أنواع:

الأول: الفطرة الجبلية الضرورية، وهي لجميع المخلوقات.

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٤٢)، المفردات في غريب القرآن (ص٨٣٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢٩٣).

(٢) ينظر: الإسلام في سبع آيات (ص: ٢٢٥).

والثاني: البيان والإرشاد والدلالة لنجدي الخير والشر، ويطلق الهدى على الدليل والبينة وما تهتدي به، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، ومنه الطريق الواضح الموصل، كما قال امرؤ القيس:

وَمِنَ الطريقةِ جائرٌ وهُدىً قصدُ السبيلِ ومنه ذُو دَخلِ[1]

وفي هذين النوعين: يجتمع الوحي والعقل الذي يمثل الهداية الأولية الفطرية على الهداية الكلية، فقد قال العارف شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي في كتابه رشف النصائح الإيمانية: «فالعقل حجة الله الباطنة والقرآن حجة الله الظاهرة»[2].

والثالث: التَّوفِيقُ والإلهام بأن يعينك الله على نفسك لتتبع الحق مهتديًا به، وتترك الضلالات والأوهام.

والرابع: الهداية التي تكون في الآخرة لأحد الجزاءين.

وبيَّن الرَّاغب أنَّ هَذِه الهِدَاياتِ الأرْبَع مُتَرتِّبَة، فإنَّ مَنْ لم يَحْصُل لَهُ الأُوْلى لم يَحْصُل لَهُ الثانِيَة، بل لَا يَصحّ تَكْلِيفه، ومَنْ لم يَحْصُل لَهُ الثانِيَة لَا يَحْصُل لَهُ الثالِثَة والرَّابعَة، ومَنْ حصلَ لَهُ الرَّابع فقد حَصَل لَهُ الثَّلاث الَّتِي قَبْله، ومَنْ حصلَ لَهُ الثالِث فقد حَصَل لَهُ اللَّذان قَبْله.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: ٣]:

---

(١) عندي شك في صحة نسبة البيت لامرئ القيس، ويحتمل أن الشعر عندي منتحل منسوب إليه، أفاده مَنْ نَحَلَهُ إياه من القرآن الكريم.

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٩٩).

الكاذب الكفار هو الذي لا يقبل هدايته، فإنَّ ذلك راجع إلى هذا، وإن لم يكن لفظه موضوعًا لذلك، ومن لم يقبل هدايته لم يهده، كقولك: من لم يقبل هديتي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه، ومن رغب عني لم أرغب فيه[١].

فيكون المعنى:

فإما يأتينكم مني وحيٌ تجعلونه سابقًا لكم قبل اتخاذ أي قرار، فحينها يهديكم للقرار الصحيح، والتعامل الصائب في شؤون حياتكم.

لاحظ أولًا أنَّه جعل هذا الشرط بداية الجواب عن الشرط الأول الذي قال فيه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ فأتى بـ ﴿إِنْ﴾ المفيدة للشك في نظر بعض المحققين، وزاد عليها كلمة ﴿ما﴾ للتأكيد..

وهنا نتساءل:

فلماذا يأتي بكلمة ﴿إِنْ﴾ المُشَكِّكَة مع أننا وجدنا الهدى تحقق مجيئه للبشرية؟

الجواب:

طرح الزمخشري رحمه الله هذا السؤال وأجاب عنه[٢] بمحاولة لإثبات شيء من مذهبه في الاعتزال على نحو لا يليق بمقامه العلمي؛ إذ صرفه ذلك عن التدبر إلى التأثر بالمقررات المذهبية.. رحم الله الزمخشري، فأسلوبه هذا ينتج تعصبًا يعمي العين أحيانًا عن الحقائق القرآنية، فقال: «للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب،

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٤٢)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٣٩)، تاج العروس (٤٠/ ٢٨٢)، مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٨).

(٢) الكشاف (١/ ١٢٩).

وأنه إن لم يبعث رسولًا ولم ينزل كتابًا، كان الإيمان به وتوحيده واجبًا لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال»[١].

وتَعَجَّبْ منه! فالتشكيك يدل على الاحتمال أي: يحتمل أن يأتيكم ويحتمل ألا يأتيكم، فما الذي دل على ما ذهب إليه؟ ولماذا يلوي أعناق الكلمات، ويستكره الآيات ليظهر ما يروق في مذهبه من الاستنباطات؟[٢].

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ذلك للرَّدْع والزَّجْر والتنبيه للبشرية التي وقعت مكلومة مهزومة أمام المعركة الأولى، فعسى ألا تقع في الهزيمة مرَّة أخرى، فحرف ﴿إِنْ﴾ هنا يدلُّ على التنبيه ألا يقع بنو آدم فيما وقع فيه أبوهم من الزَّلل.

وعندي أنَّه ربما يشير أيضًا إلى أصحاب الفترة، والذين لم يصلهم الأنبياء؛ إذ وصول الأنبياء إلى الأمم أغلبي، وهذا المفهوم واضح عندما نجمع بين قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٦] مع قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

وهنا يأتي سؤال:

فماذا يكون بعد إتيان الهدى إلى العالم؟ ماذا يتوقع أن يفعلوا عندما يجيئهم الهدى؟

الجواب: هنا يأتي:

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٢٩).

(٢) يقابل تعصب الزمخشري هنا لمذهبه الاعتزالي رد ابن المنير عليه نصرة لمذهبه الأشعري، وعلى جمال كثيرٍ من ردوده فإنه لا تظهر صحة رده عليه في موضوع إيجاب الهدى، وكان يمكنه أن يكتفي بالنظر إلى ظاهر الآيات ويعالج الرد على الزمخشري بإيراد ما يظهر من أنوار الآيات لا بما يقتضيه إيجاب المذهب.

المقصد الثالث: جعل الله ﷻ للناس حرية الاختيار: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ تُصَوِّرُ لنا أنَّه عندما يأتي الهدى الإلهي يعطي الله البشريَّة الإرادة الحرة للاختيار، فتتخذ قرارها باتباعه، فتكون متأتية له، أو رافضة الانصياع له وهاجرةً استماعه:

فالفاء للتعقيب الزمني الترتيبي.. والمعنى: عندما يأتي الهدى ينقسم الناس في اعتناقه وارتفاقه، وكلمة ﴿مَن﴾ أداة شرط في موضع رفع، و«تبع» في موضع جزم بالشرط، وجوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، «فإن قلت: ما جواب الشرط الأول؟ قلت: الشرط الثاني مع جوابه كقولك: إن جئتني فان قدرت أحسنت إليك، والمعنى: فإما يأتينكم منى هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم»[1].

ولنعد إلى اكتشاف الكنوز المخزونة في أنوار القرآن في هاتين الآيتين، حيث يرى الرازي أنهما جمعتا «شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْمَعَانِي»[2] ثُمَّ فصَّل ذلك، فذكر:

أَنَّ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ دَخَلَ فِيهِ الْإِنْعَامُ بِجَمِيعِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَزِيَادَاتِ الْبَيَانِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَتِمُّ ذَلِكَ إلا به من العقل ووجوه التمكن.

وجمع قوله ﷻ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ تَأَمُّلَ الْأَدِلَّةِ بِحَقِّهَا وَالنَّظَرَ فِيهَا وَاسْتِنْتَاجَ الْمَعَارِفِ مِنْهَا وَالْعَمَلَ بِهَا، وَيَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّ التَّكَالِيفِ.

ويشير أبو حيان رحمه الله إلى معنًى سَنِيٍّ تقدمه لفظة (هُدايَ) فيقول: «إضافة الهدى إليه من تعظيم الهدى ما لا يكون فيه لو كان معرفًا بالألف واللام»[3].

وأي شرف أعلى، ومنزلة أسمى أن يكون المرء تابعًا هدى مولاه؟!

---

(١) تفسير الكشاف (١/ ١٢٩).

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٤٧٢).

(٣) البحر المحيط، أبو حيان (١/ ٣٧٣).

ولعلك تقول:

هذا الشرط الذي ذكره الله في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يجعلنا نتساءل:

ما المصير الذي ينتظر من تبع الهدى؟ وكذلك ما المصير الذي ينتظر من لم يتبع الهدى؟

أجيبك – وفقك الله–:

هنا يأتي:

المقصد الرابع: يحذِّر الله ﷻ البشريَّة من خطر اختيارهم؛ ليتعاملوا مع قراراتهم في حياتهم بجدية؛ لأنه سيترتب على اختيارهم نتائج خطرة، حيث سينقسمون إلى صنفين بناء على هذا الاختيار:

الصنف الأول: المتَّبع للهدى الإلهي، تتحقَّق له جميع أنواع السعادات والملذات، إن تبع هدى رب الأرض والسموات، فلا يخاف المستقبل ولا يحزن مما جرى في الماضي، وقال الله ﷻ فيه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

يبصرنا قول ربنا: ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ أنَّه قد يأتي الْهُدَى ولا يتحقق الاهتداء، والله المستعان على نفوسنا، الفارَّة عن خيرها، الراغبة في لذائذها العاجلة الخاسرة، فالشرط هنا فيه حثٌّ عظيم على اتباع الهدى، وذِكْرٌ لحقيقة الإرادة الإنسانيَّة للمنهج الذي تتبعه، أي: فمن مشى خلف الخطوات التي يرسمها هداي، وَقَفَا أوامر الهدى، وجاء تاليًا لها لا سابقًا بهواه لمقتضاها، **وكلمة (تبع) تدل على أنَّ التابع يقفو الهدى ويتلوه، ويتتبع أثره وخطاه وتعاليمه، ويبحث عن نظمه ليلتزمها.. وهي كلمة تتضمن تحديدًا واضحًا للخطوات التي ينبغي أن يتحرك خلفها الفائزون**، وتتضمن تحذيرًا بليغًا من الانحراف، والتغيير للمنهج، والابتداع، وعدم الاتباع..

هنا تعلم سر تكرار الأمر بالاتباع بأساليب متعددة في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].. هنا يبدو لك واضحًا من هم أتباع عيسى عليه السلام المنصورون المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ٥٥].. إنهم هم أنفسهم الذين قال الله ﷻ فيهم في السُّورَة نفسها: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقد تتساءل: لماذا هنا قال: ﴿تَبِعَ﴾، وفي سورة طه المكية قال: ﴿آتَّبَعَ﴾؟

أجيبك – وفقك الله–:

كأن ﴿تَبِعَ﴾ في هذه الآية المدنية جيء بها مخففة لتُوحي بسهولة في الاتباع؛ إذ استقر الإسلام واطمأن بوجود عاصمة تحمي أتباعه، بينما في آية طه المكية أتى بها مثقلة لتبين ثقل الاتباع للدعوة الجديدة، والمجاهدة الكبيرة لتطبيقها.

ولأجل سهولة اتباع الحقِّ في شأن القبلة، جاء التعبير: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فجاء الفعل مُخَفَّفًا، وأما اتباع الباطل في شأن القبلة، فقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ [البقرة: ١٤٥]؛ لأن اتباع الباطل فيه مخالفة ومعارضة للفطرة، وفي ذلك عسر وشِدَّةٌ، فناسبت الشِّدَّةَ الشَّدَّةُ؛ فاستعمل للتعبير عن المعنى الفعلُ الْمُشَدَّدُ.

وذكر الزركشي رحمه الله سببًا آخر للإتيان بكلمة: (اتَّبَعَ) في سورة طه، وهو التناسق مع ما ورد من مثيلاتها في السورة: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠]، ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ [طه: ٩٣]، ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه: ١٠٨] (١).

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١١٥).

ويمكن أن يقال: فلماذا لم يراع ذلك في سورة البقرة؟ وفيها: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]؟

قد يجاب عنه بما يلي: وفي البقرة أيضًا: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]، ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ولا نظير لذلك في سورة طه.

وانظر كيف أَظْهَرَ كلمةَ (هُدَاي) وحَقُّها أَنْ تُضْمَر، وأن يكون الكلام: فإما يأتينكم منى هدى فمن تبعه، لكنه أظهر الاسم فقال: ﴿تَبِعَ هُدَايَ﴾؛ اهْتِمَامًا بِالْهُدَى لِيَزِيدَ رُسُوخًا فِي أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى حَدِّ قوله ﷻ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦]؛ وَلِتَكُونَ هَاتِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا لَا تَشْتَمِلُ عَلَى عَائِدٍ يَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ مُعَادٍ حَتَّى يَتَأَتَّى تَسْيِيرُهَا مَسِيرَ الْمَثَلِ أَوِ النَّصِيحَةِ، فَتُلْحَظُ فَتُحْفَظُ، وَتَتَذَكَّرُهَا النُّفُوسُ لِتُهَذَّبَ وَتَرْتَاضَ، كَمَا أَظْهَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١] لِتَسِيرَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَسِيرَ الْمَثَلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَشَّارٍ:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ ... بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ

وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً ... مَكَانُ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ

وَأَدْنِ إِلَى الشُّــورَى الْمُسَــدَّدَ رَأْيُهُ وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى امْرَأً غَيْرَ كَاتِمِ[1]

وكيف يتبعون الهدى الذي سيأتي من الله؟

يلخص الرازي رحمه الله ذلك بأن الاتباع يكون «بِالْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَلْزَمُ وَالِاحْجَامِ عَمَّا يَحْرُمُ»[2].

هنا نسأل عن هذه النتيجة العظيمة الباهرة التي هيأها الله ﷻ لهم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.. ما معناها؟

الجواب:

معنى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في المستقبل الدنيوي والأخروي، فلن يخافوا من الموت، ولن يخافوا من القبر، ولن يخافوا من يوم البعث؛ ولن يخافوا يوم التناد، ولا عندما يُدعى كل أناس بإمامهم، ولا يوم تجثو الأمم على ركبهم، وَلَا عِنْدَ تَطَايُرِ الْكُتُبِ، وَلَا عِنْدَ نَصْبِ الْمَوَازِينِ وَلَا عِنْدَ الصِّرَاطِ، كَمَا قال اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؛ لأن الله ﷻ سيتكفل بهم ويحفظهم. اللهم اجعلنا منهم.

وهنا يرى الرازي رحمه الله جمال هذه الكلمات القرآنية، حيث «جَمَعَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ جَمِيعَ مَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ؛ لِأَنَّ زَوَالَ الْخَوْفِ يَتَضَمَّنُ السَّلَامَةَ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ وَزَوَالَ الْحُزْنِ يَقْتَضِي الْوُصُولَ إِلَى كُلِّ اللَّذَّاتِ وَالْمُرَادَاتِ، وَقَدَّمَ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٢)، و"الخوافي" من الجناح: الريشات الخفية في أصل الجناح التي تدعم الريشات القوادم، ويروى في الدر الفريد (٢/ ٢٨٩) بلفظ: (فريشُ الخوافي) بدلًا من (مكان الخوافي)، وكذا بلفظ: (وادن على القربى المقرِّب نفسَه) بدلًا من (وَأَدْنِ إِلَى الشُّورَى الْمُسَدَّدَ رَأْيُهُ)، ولم أجده بهذا اللفظ إلا عند ابن عاشور .

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٤٧٢).

عَدَمَ الْخَوْفِ عَلَى عَدَمِ الْحُزْنِ؛ لِأَنَّ زَوَالَ مَا لَا يَنْبَغِي مُقَدَّمٌ عَلَى طَلَبِ مَا يَنْبَغِي، أو التخلية مقدمة على التحلية في الجملة[1].

وفي كلمة ﴿خَوْفَ﴾ قراءتان توضحان مشهدين:

القراءة الأولى: ﴿فَلَا خَوْفَ﴾ قراءة يعقوب بفتح الفاء وحذف التنوين مبنيًا على الفتح على جعل لا للتبرئة، أي: التي تنفي الجنس.. ومعنى ذلك أنها تنفي كل خوفٍ.. فإن قيل: قد وجدنا بعض أنبياء الله يخافون في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧-٦٨] فالجواب أنَّ الخوف المنفي هو جنس الخوف لا طروء بعض أفراده مما ينقشع غباره فور عروضه عند تذكر الحماية الإلهية للخائف، وبذا ترى أن الآية التي بعدها أجابت، فخوف موسى انقضى فور كلام الله معه، وكذلك الصالحون يخافون ثم يتذكرون فيزول خوفهم.

القراءة الثانية: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع مع التنوين بجعلها اسم لا المحمولة على ليس، مع احتمال إهمالها، وفي هذه الحالة يحتمل أن تكون بمعنى النافية للجنس مثل القراءة الأولى، ويحتمل أَن تكون لنفي الْوحدَة[2]، وعلى هذا المعنى فإن الله ﷻ لا ينفي جنس الخوف، بل ينفي الخوف الذي يكون في الآخرة.

---

(١) تفسير الرازي (٣/ ٤٧٢).

(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٣١٦).

ويخطئ كثير من الدارسين في (لا) العاملة عمل (ليس)، فيطلق عليها النافية للوحدة، وهذا ليس صحيحًا، فكلتاهما نافيتان للجنس، ولكن (لا) العاملة عمل (إنَّ) نافية للجنس على سبيل التنصيص، بمعنى أن نفيها للجنس لا يتطرق إليه الاحتمال، وأما الأخرى وهي العاملة عمل (ليس)، فإنها نافية للجنس على سبيل الظهور، فهي تنفي الجنس، لكن مع احتمال أن يكون القصد منها نفي الوحدة إذا جاء ما يدل على أن المراد نفي الوحدة، فإذا جاء ذلك صرفها عن ظاهرها، وإذا لم يأت ما يدل على أن المراد بها نفي الوحدة، بقيت نافية للجنس، خصوصًا إذا تضمن السياق ما يدل على ذلك، واسمها نكرة في سياق

وأما الشق الثاني من النتيجة الرائعة فهي قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: «ولا هم يحزنون يومئذ على ما خلّفوا بعد وفاتهم في الدنيا»(١)، ومعنى الشرط من مفهوم قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾بشارة يؤذن مفهومها بنذارة من لم يتبعه فهو خائف حزين(٢).

قال أبو حيان رحمه الله: «ولذلك أورد نفي الحزن عنهم وإذهابه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٢-١٠٣].

ومعلوم أنَّ هذين الخبرين وما قبلهما من الخبر مختص(٣) بالذين سبقت لهم من الله الحسنى، وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ﴾ [فاطر: ٣٤]، فدل هذا كلُّه على أن غيرهم يحزنه الفزع، ولا يذهب عنهم الحزن»(٤).

هنا نتساءل: لماذا هذا البيان لحالة الإنسان المتبع لهدى الرحمن؟ لماذا يُغريه الله بالاتباع عن طريق الإقناع بأن المتبعين لا خوف عليهم ولا يحزنون؟

الجواب:

النفي، فهي دالة على العموم ظاهرًا، فبذلك يتبين أن كل المخاوف في الدنيا والآخرة منفية عنهم، في كلتا القراءتين، إلا أن قراءة الفتح تنص على ذلك، فدلالتها على ذلك من قبيل دلالة النص، وقراءة الرفع دلالتها على ذلك من قبيل دلالة الظاهر.

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٥١)، وينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٤).

(٣) هكذا ورد في البحر المحيط، والأولى أن يقال: (مختصة) للتعدد، وهو أخبر بالمفرد على اعتبار أنه نوى المبتدأ اسم إشارة، أو أن كلمة: (مختص) نعت للخبر الذي هو كلمة (خبر) باعتبار الجنس، فحذف المنعوت وأقام النعت مقامه.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٧٥).

ليبين لك القرآن بأن مجمع مقاصد الهدى الرباني هو تحقيق مصلحتك، وتوفير الضمانات القوية لسعادتك في الدارين، وبذا تسطع لنا هذه البصيرة المباركة:

بصيرة: الاستخلاف في الأرض لإعمارها مقصد من أهمِّ المقاصد القرآنية، فالأمان المستقبلي من المخاوف القادمة، وإزالة الأحزان على الآلام الماضية يعطي الشعور الحقيقي بمتعة الحياة.

«وَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الطُّمَأْنِينَةَ التَّامَّةَ فِي مُقَابَلَةِ مَا تُحْدِثُهُ كَلِمَةُ: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ سُوءِ الْمُنْقَلَبِ، وَمَا تُثِيرُهُ مِنْ كَوَامِنِ الرُّعْبِ، فَالْمُهْتَدُونَ بِهِدَايَةِ اللهِ - تَعَالَى - لَا يَخَافُونَ مِمَّا هُوَ آتٍ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ الْهُدَى يُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ اكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ»(١).

وليس التمتع بالحياة قائمًا على الحرية البهيمية، «**فَالْتِمَاسُ السَّعَادَةِ بِحُرِيَّةِ الْبَهَائِمِ هُوَ الشَّقَاءُ اللَّازِمُ**»(٢).

ويشير الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله إلى أنَّ مِنْ أَهَمِّ المقاصد القرآنية: إعانة البشريَّة على التمتع بالحياة الأرضية، فالله ﷻ يقول: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، إلا أنَّ المفاهيم اختلطت على بعض المسلمين عندما لم يفهموا قول النبي ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ»(٣).

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٣٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٣٨).

(٣) البخاري (٤٩١٣).

وعند الجمع بين هذه الآية وبين قول الله فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يظهر لنا أنَّ الله لا يريد منا ترك الدنيا، ولا الهرب منها، بل يريد منا عمارتها، ولكن وفق الخطة الإلهية للإعمار، وإلا تحول إعمارها إلى دمار من حيث لا تشعر البشريَّة، وانظر كيف احتنك الشيطان الخلق عن الخطة الإلهية للاستخلاف، فأوجدوا الإفساد في الأرض وسفك الدماء مما تراه أمام عينيك، ولذا صحح الإمام علي ﷺ النظرة السلبية المطلقة إلى الدنيا أمام الأفهام الخاطئة، فعَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: ذَمَّ رَجُلٌ الدُّنْيَا عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَقال عَلِيٌّ ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ نَجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، مَهْبَطُ وَحْيِ اللهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَتِهِ، وَمَسْجِدُ أَنْبِيَائِهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَائِهِ، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ أَذِنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا؟ فَيَا أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا، الْمُعَلِّلُ نَفْسَهُ، مَتَى خَدَعَتْكَ الدُّنْيَا، أَوْ مَتَى اسْتَدَامَتْ إِلَيْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ فِي الْبِلَى، أَمْ بِمَضَارِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؟ كَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ وَعَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، تَطْلُبُ لَهُ الشِّفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُ الْأَطِبَّاءَ، لا يُغْنِي عَنْكَ دَوَاؤُكَ وَلا يَنْفَعُكَ بُكَاؤُك»[1].

فعدم الخوف نفي للمخاوف المستقبلية إنِ اتَّبعوا الهدى؛ فاتِّباع الهدى الإلهي يقوي الأمن الشخصي والقومي لهم، وعدم الحزن نفي لأنْ يستهلكهم الحزن على المصائب الماضية، إنْ تعثَّروا في معركة، كما وقع لأبويهم، فهم لن يخسروا الحرب كلها.. ولكن ذلك كله مقترن باتباع الهدى الإلهي.

وقد قال الْحَسَنُ رحمه الله: لَمَّا أُهْبِطَ آدَمُ عليه السلام إِلَى الْأَرْضِ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا آدَمُ أَرْبَعُ خِصَالٍ فِيهَا كُلُّ الْأَمْرِ لَكَ وَلِوَلَدِكَ: وَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ

(١) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٥١) رقم (١٢١١).

وَبَيْنَ النَّاسِ؛ أَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَإِذَا عَمِلْتَ نِلْتَ أُجْرَتَكَ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ فَأَنْ تَصْحَبَهُمْ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يَصْحَبُوكَ بِهِ[1].

أمَّا حديث: «أَمَا تَرْضَى أنْ تَكُونَ لهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ»[2]، فإنما قاله النبي ﷺ ليعلمنا الرضا عند عدم القدرة على غيره.. فما لبعض قومنا لم يجمع بين هذا القول النبوي المبارك، وقول الله في الكتاب العظيم الباهر، وهو يقص علينا قصة آدم، ويبين عظمة الحياة الطيبة المنتظرة في الدنيا لمن اتبع الهدى، فيقول ﷻ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]؟!

وبذا تكون آيات طه المكية تكملة في المعنى لآيات البقرة المدنية، وتكون النتيجة الرائعة عند الجمع بينهما: من اتبع الهدى نال الحياة التي لا يضل فيها من الناحية الفكرية، ولا يشقى من الناحية المعيشية، ثم لا خوف عليه من المخاوف المستقبلية الدنيوية والأخروية ولا هو يحزن على ما خلفه من مال أو ولد في الماضي، فإن الله ﷻ يتولاه، أو ما أصابه من ذنوب لأن الله يغفرها بالتوبة، أو ما أصابه من هموم سابقة، فإن الله ﷻ يعوضه ما لا يخطر له على بال؛ فإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وهنا نسأل: عرفنا أنَّ الصنف الأول: الصنف المتبع للهدى الإلهي، وقال الله ﷻ فيه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، فما الصنف الثاني؟

الجواب:

---

(١) تفسير الرازي (٣/ ٤٧٢).

(٢) البخاري (٤٩٣١).

الصنف الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]:

الإنسان إن انضم إلى الأشرار الذين يغطون الهدى، ويمنعون أنفسهم والعالم من رؤيته، ويكذِّبون بآيات ربنا الغفار، يجب أن يعلم أن عقوبته في آخر الأمر ستكون حياة خالدة في النار.

جاءهم الهدى الإلهي لكنهم لم يتبعوه، وبدلًا من اتباعه اتصفوا بصفتين:

الصفة الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والكفر -كما هو الاستعمال القرآني الواضح- يدل على تغطية الحقائق الواضحة، وهؤلاء القوم غطوا الحقائق، وستروها، فلا يريدون رؤيتها ولا يريدون للعالم أن يراها.

الصفة الثانية: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾.

وعندما تجمع بين وصف الصنف الأول والصنف الثاني يظهر هنا من أساليب البلاغة القرآنية ما يشبه الاحتباك الذي قال فيه السيوطي رحمه الله:

قُلْتُ وَمِنْهُ الِاحْتِبَاكُ يُخْتَصَرْ ... مِنْ شِقَّيِ الْجُمْلَةِ ضِدٌّ مَا ذُكِرْ

وَهْوَ لَطِيفٌ رَاقَ لِلْمُقْتَبِسِ ... بَيَّنَهُ ابْنُ يُوسُفَ الأَنْدَلُسِي[1]

وإنما سميته ما يشبه الاحتباك لأن التعريف لا ينطبق عليه تمامًا، فأنت ترى أنَّ الله جل جلاله ذكر في الصنف الأول أنهم اتبعوا الهدى وفي الصنف الثاني أنهم كفروا وكذبوا بآيات الله، فكأن الصنف الأول آمنوا وصدقوا بآيات الله، واتبعوا الهدى، فذكر أمرًا واحدًا وفهمنا الأمرين الآخرين من الصنف الثاني، وكذلك ذكر في الصنف الثاني أنهم كفروا وكذبوا بآيات الله، وعند

(١) عقود الجمان في علم المعاني والبيان (ص١٠٧).

مقابلته بالصنف الأول نفهم أنهم لم يتبعوا الهدى، وبذا تم إيجاز الكلام مع تعريف الصنفين بثلاث صفات نظرية وعملية كما ترى.

هنا نسأل عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.. فلماذا نسب الآيات إلى الضمير ﴿نا﴾ ولم يقل: كذَّبوا بآياتي؟ وما معنى الآيات؟

الجواب:

انظر في الصنف الثاني لترى كيف نسب الآيات إليه بـ(نا) الدالة على التعظيم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ ليذكر بعظمته، وليشيد بعظمة آياته، فكيف يكذِّب هؤلاء السفلة بهذه العظمة التي لا يمكن أن يشبهها عظمة؟!

وأما (الآيات) فهي جمع آية، والآيَةُ هي العلامة والأمارة، كما قال الشاعر:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي تَمِيمًا ... بِآيَةِ مَا تُحِبُّونَ الطَّعَامَا[1]

والآيات عادة تطلق على علامات مخصوصة، فهي التي يراها المرء عظيمة عجيبة فيعتبر بها، ولذا يقال: الآية العبرة، وكذلك الآية الحجة والبرهان، لِأَنَّهَا تُظْهِرُ الْحَقَّ الْخَفِيَّ، كَمَا قال الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ:

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا ... تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ[2]

يَعْنِي ثَلَاثَ حُجَجٍ عَلَى نُصْحِهِمْ وَحُسْنِ بَلَائِهِمْ فِي الْحَرْبِ وَعَلَى اتِّصَالِهِمْ بِالْمَلِكِ عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ[3].

والآيات المقصودة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩] أربعة أنواع:

---

(١) البيت ليزيد بن عمرو بن الصعق، كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ١١٨).

(٢) ينظر: ديوان الحارث بن حِلِّزَةَ (ص: ٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٥).

النوع الأول:

الآيات المتلوة المقروءة، وهي ما أنزل الله على أنبيائه عليهم السلام، وهي عبارة عن جماعَة حُرُوفٍ في كلامٍ متصل له مبدأ ومنتهى، كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾ [الأنعام: ٤]، وَسَمَّى الْقُرْآنُ آيَات فَقَالَ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].. وقال ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢].. وَقَالَ ﷻ: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

النوع الثاني:

الآيات الكونيَّة المنظورة، كما قال: تعالى: ﴿ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩]، فالآيات في هذا النوع التي تكون هذا الصنع الكوني المدهش المحكم الدالة على العلم والخبرة واللطف والحكم والقدرة لقدير عليم خبير، فهي علامات واضحات على وحدانية الله تعالى ذكره، فمن أدناها حجمًا (DNA) الشريط الوراثي الذي يدل على توقيع في الخلية كما يقول ستيفن ماير، أي على أن هناك إلهًا عظيمًا خالقًا، كأنه ترك توقيعًا في الخلية يدل عليه.

النوع الثالث:

الآيات المعقولة، وهي المقدمات العقلية المنطقية التي يتم من خلالها التوصل إلى الأمور الغيبية كما يتم من خلال الرياضيات معرفة الحسابات المختلفة ليتم إنتاج الصناعات في المجالات المتعددة.

النوع الرابع:

الآيات الخارقة غير المعتادة، كما في قوله ﷻ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ [القمر: ١-٢] فانشقاق القمر كان معجزة، وسَمَّاه الله آية، وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝١٠٧﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٧].

والأنواع الأربعة من الآيات تجدها علاماتٍ واضحة يتوصل مِنْهَا إِلَى الإيمان بالله، واليقين بأن كتابه لا ريب فيه كأَعْلامِ الطَّرِيقِ المَنْصوبَةِ للهِدَايَةِ، وهي ظاهرة واضحة محسوسة أو معقولة يتوصل بها إلى اليقين بالأمور الغيبية مثل دلالتها على الله ﷻ.

وهنا نتساءل:

فماذا فعل هؤلاء الكفار عندما رأوا كل هذه الآيات؟ ولماذا أتى بالباء في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩]؟ كيف تُظْهِرُ هذه الباء قُوَّة التعبير القرآني؟

الجواب:

لقد كفروا أي غطوا حقائق هذه الآيات التي توصل إلى رب الأرض والسموات ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩]، فغطوا الحقائق وستروها لئلا تراها أعينهم، ولئلا يراها الناس، وكذبوا بآيات الله ﷻ.

وحاول ابن عاشور رحمه الله أن يدرك مكمن القوة في إدخال الباء على كلمة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فقال: «وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بَاءٌ يَكْثُرُ دُخُولُهَا عَلَى مُتَعَلَّقِ مَادَّةِ التَّكْذِيبِ مَعَ أَنَّ التَّكْذِيبَ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ أَقِفْ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ عَلَى خَصَائِصِ لَحَاقِهَا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ وَالصِّيغَةِ،

فَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا لِتَأْكِيدِ اللُّصُوقِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّكْذِيبِ فَتَكُونُ كَالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [الْمَائِدَة: ٦] وَقَوْلِ النَّابِغَةِ: لَكَ الْخَيْرُ أَنْ وَارَتْ بِكَ الْأَرْضُ وَاحِدًا»[1].

ويظهر لي أنَّ الأمر أقوى من ذلك، حيث لاحظنا أنَّ الله ﷻ لم يقل: كذبوا الآيات، بل كذبوا بالآيات.. أي: استخدموا الآيات كما يستخدم الإنسان القلم في الكتابة، وبهذا يكون معنى الباء هنا الاستعانة، وهو من المعاني التي تنتابها بحسب السياق الذي تأتي فيه، فبدلًا من أن يؤمنوا بالآيات جعلوها دليلًا على التكذيب والكفر مع أنها أعظم أدلة الإيمان..

انظر إلى هذين المثالين:

المثال الأول:

يرى الإنسان هذا الكون بعظمته، ويرى أعظم المصانع والمدن التي تتكون منها خلاياه في جسده، فيأتي المعاند الجاحد المغطي للحقائق بكفره، فيقول: وجود هذا الكون بهذا الشكل دليل على أنه يسير بنفسه دون أن يحتاج إلى حي مطلق أوجد الحياة منه، ودون أن يحتاج إلى قيوم يقوم على استمرار نظامه وتدبيره، وهكذا الجسد.

ما أبشع هذه الأكاذيب! عندما يرى المرء هاتفه يعلم الجهود الضخمة التي بذلها المخترعون والمبرمجون والمصممون لأجل جهاز الهاتف المتحرك.

تصور إن قال أحد: شدة ذكاء هذا الهاتف يعني أنه اخترع نفسه بنفسه! وهكذا كذب الكفار الآيات باستخدام الآيات ليشوشوا على العالم أعظم البراهين والأدلة على الحقيقة العظيمة حقيقة الإيمان بالله.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٦).

المثال الثاني:

آيات القرآن يسمعها العقلاء، فيقولون: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢] بينما يسمعها المجرمون، فيقولون: سحر، جنون، افتراء.. فيستدلون بها ضِدَّها كما يفعل المستكبرون في الأرض.

وهنا يأتي السؤال:

يكشف الله لنا مصير هؤلاء الكفار المكذبين بآياته العظيمة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، فكيف أظهرت هذه الكلمة قوة الكلمة القرآنية؟

الجواب:

كما وعد الله المتبعين للهدى بأمرين، فقد توعد هؤلاء بأمرين: النار يعاقبون فيها، ويخلدون فيها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾.

فقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة مبتدأ يشير إليهم لتحديدهم دون غيرهم من الناس،

وقوله: ﴿أَصْحَٰبُ﴾ خبر المبتدأ، فجعلهم أصحابها للدلالة على ملازمتهم لها في الدنيا بعملهم لها، وفي الآخرة بعذابهم فيها، نعوذ بالله من ذلك!

وقوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه، والتقدير: أولئك أصحاب للنار تلزمهم ويلزمونها، أو أصحاب في النار تحيط بهم، فلا يمكنهم الفرار منها.

وقوله: ﴿هُمْ﴾ مبتدأ آخر يعبر عن عقوبة جديدة، فذكرهم بضمير الغائب ليبين نفاذ الحكم عليهم، ويخاطب غيرهم ليفرحوا بمصيرهم، ويخافوا من أن يكونوا فيهم.

وقوله ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بكلمة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ والتقدير: خالدون فيها، لكنه قدَّم كلمة: ﴿فِيهَا﴾ ليفجع السامع من مصيرهم بمجرد الإشارة إليها.

وقوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جمع خالد، والخلود[١]، وهي كلمة تدل على ثبات وملازمة وبطء تغير، والخوالد: الجبال، والحجارة، والصخور؛ لطول بقائها بعد دروس الأطلال، فَيُقَالُ: خَلَدَ وأخلد يَخْلُد: أَقَامَ على الحالة التي هو عليها، وتبرأ من أن يفسده شيء، وبقي على حالته دون تغيير، فقوله ﷻ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ يُصَوِّر عدم تغير حالهم، فهم باقون في النار، لا تنقطع عنهم، ولا ينقطعون عنها.

هذا المآل الخطير، والحال المؤلم المتعب الكسير يكفي في تصوره أن نسمع قول نبينا ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ»[٢].

قال الحسن: كان عمر ربما توقد له النار ثم يدني يده منها ثم يقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر؟![٣].

وهنا نسأل متدبرين:

إذن هما صنفان حسب اتباع الهدى الإلهي، ولكن لماذا ذكر في وصف الصنف الأول أنه متبع للهدى الإلهي، بينما لم يقل في مقابله (ومن لم يتبع الهدى الإلهي) بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؟

الجواب:

لعل التلون الشديد الذي تمارسه الفئات المنضوية تحت الصنف الثاني يجعل من الأدق أن يوصفوا بأنَّهم ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، فكلمة كفروا تدل على أنهم غطوا حقيقة النور

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٥٤)، تاج العروس (٨/ ٦١).

(٢) البخاري (٦٥٦١) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ.

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٤٢).

الإلهي بالتلاعب بآياته، واستخدموا آياته لتكون دليلًا على مذهبهم في هذه التغطية، وجاء بالفعل الماضي ليدل على قدم انغراس هذه الحقيقة في أنفسهم.

ألا ترى أنك تجد كثيرًا منهم يزعمون أنهم يتبعون هدى إلهيًّا؟!

قَلِّبْ صفحات الأوراق في وصف كثيرٍ ممن ينتسب إلى أصحاب الديانات لتجدهم يزعمون اتباع هدى إلهيٍّ جاءهم من عند ربهم ﷻ، ولكنهم (كفروا) فغطوا الهدى الإلهي الحق، ولم يكتفوا بذلك حتى أتبعوه بالتكذيب بآيات الله ﷻ عندما سمعوا دعاة الحق يدعونهم إلى آيات ربهم ﷻ.. تأمل جمال القرآن ودقة تعابيره.. ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وصلَّى الله تعالى وسلَّم على نبيِّنا السَّيِّدِ العبدِ المُنِيب مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصَحْبِه، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com

فهرس المحتويات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح محمد أحمد خضر ٥

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي ٧

المحور الثاني: القصَّةُ الحقيقيَّةُ لبَدْءِ التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريمُ الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض [البقرة: ٣٠-٣٩] ١٠

القسم الأول: بداية الوجود البشري، ومظاهر تكريم الإنسان الأوَّل (آدم عليه السلام) [البقرة: ٣٠-٣٤] ... ١٧

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان ١٩

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الأَوَّلُ: بيان الخريطة الحقيقيَّة للحياة الإنسانيَّة التي تعصمها من التخمين والتيه ... ١٩

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الثاني: تهيئة البيئة المناسبة للحياة الإنسانيَّة ١٩

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الثَّالِثُ: التَّكْرِيمُ بالإِعْلانِ عَنْ خَلْقِ آدم عليه السلام ٢١

معاني ﴿إِذْ﴾ والكنز المعرفي الذي يكتنزه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ...﴾ ٢٣

الخاصية الأولى: الرسالة ٣٠

الخاصية الثانية: الملائكة عليهم السلام جند الله الذين يتنزلون بأمره ٣١

الخاصية الثالثة: الملائكة عليهم السلام لهم القدرة على التَّشَكُّل ٣٢

الْمَظْهَرُ التَّكْرِيمِيُّ الرَّابِعُ: التَّكْرِيمُ بتحديد مركز البشريَّة في الكون ٣٦

المشهد الأول: مرسوم إلهي بتعيين خليفة على الأرض ٣٦

المشهد الثاني: الخلافة وظيفة آدم عليه السلام وتنتقل إلى ذريته من بعده ٣٨

المشهد الثالث: الخليفة الجديد، وأدوار الاستخلاف المنتظر ٤٠

المشهد الرابع: استحضار الملائكة عليهم السلام لدورة فساد أرضية سابقة ٤٨

الجريمة الأولى: الإفساد في الأرض ٤٩

الجريمة الثانية: سفك الدماء ٥١

المشهد الخامس: حتى الملائكة تسأل ٥٩
المشهد السادس: عِلْمٌ غَيْبِيٌّ، وحِكْمَةٌ خَفِيَّةٌ..... ٧١
المفاهيم المدهشة التي يدل عليها قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾..... ٧٤
المظهر التكريمي الخامس: تكريم آدم عليه السلام بالعلم والمعرفة (الاستعداد الإنسانيُّ للمعرفة) ٧٨
المظهر التكريمي السادس: تكريم آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة عليهم السلام له ١٠٤
الاستسلام الملائكي، والإباء الإبليسي "إبليس في أولى خطوات التمرد والشيطنة" ١١١
المظهر التكريمي السابع: رسم خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء..... ١١١
الثلاثية الإبليسية (صفات إبليس) ١٢٥
الصفة الأولى: الإباء (الرَّفْضُ) لأمر الله عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾..... ١٢٥
الصفة الثانية: الاستكبار ١٢٧
الصفة الثالثة: الكفر (تغطية الحقائق بدلًا من قبولها) ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ ١٣١
القِسم الثاني: تدريب آدم عليه السلام على إدارة الحياة المُنَظَّمَة خلال المدة التجريبية في الجَنَّة لِيستعدَّ للتَّعَامُل مع الواقع في الأرض [البقرة: ٣٥-٣٦] **١٣٧**
العامل الأول: وجود السكن، إذ قال له: ﴿ٱسۡكُنۡ ٣٥﴾ ١٤١
العامل الثاني: وجود رفيق يأنس به: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ٣٥﴾ ١٤٢
العامل الثالث: الأَكْلُ الرَّغَدُ: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا ٣٥﴾ ١٤٣
الزّلَّةُ الأُولى في تاريخ البشريَّة..... ١٥٣
القسم الثالث: الهبوط إلى الأرض، وعوامل النجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا [البقرة: ٣٦-٣٩] ١٦٨
العامل الأول: استيعاب أَنَّ الاستخلافّ الأَرْضِيَّ تشريف وتكليف ١٦٩
الأول: الزَّلَلُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾..... ١٧٣

الثاني: النِّسْيان: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ١٧٣
الثالث: العصيان والغواية: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ١٧٣
العامل الثاني: الاستعداد لمواجهة العداوات المستقبلية ١٧٥
العامل الثالث: الاستفادة من البيئة المهيأة مكانيًّا، وزمانيًّا ١٨٢
الركيزة الأولى: تمكن الإنسان من الإفادة من الأرض ١٨٣
الركيزة الثانية: الأرض مكان الاستقرار ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ ١٨٣
الركيزة الثالثة: الأرض صالحة للانتفاع ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ ١٨٤
الرَّكيزة الرَّابعة: تحديد وقت الاستقرار والتمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ١٨٥
العامل الرابع: التوبة متاحة عند أي فشلٍ مؤقَّت في المعركة مع الشيطان باقتراف المعصية ١٨٨
بصائر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٣٧] ٢٠١
العامل الخامس: اتباع المنهاج الإلهي والدستور الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضية ٢١٠
المقصد الأول: الهبوط إلى الأرض مقصودٌ من خلق البشرية ٢١١
المقصد الثاني: تكفل الله ﷻ بهداية الناس وبيان الحق لهم ٢١٥
المقصد الثالث: جعل الله ﷻ للناس حرية الاختيار ٢٢٠
المقصد الرابع: يحذِّر الله ﷻ البشريَّة من خطر اختيارهم ٢٢١
الصنف الأول: المتَّبع للهدى الإلهي، تتحقَّق له جميع أنواع السعادات والملذات. ٢٢١
الصنف الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ...﴾ [البقرة: ٣٩] ٢٣٠
فهرس المحتويات ٢٣٨

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مفصل تفسير — سورة البقرة — الجزء الثالث

كَمْ أنا سَعيدٌ بكَ من وَراء الحُجُب وأنتَ تَتَصفَّحُ هذه البَصائرَ المُشرقَةَ، مُلتَمِسًا فيها أنوارَ التَّأمُّلِ البَصائريِّ، وتَتَطلَّعُ للتَّزَوُّد من ثمارها اليانعَة الَّتي سَكَبْتُ بَينَ سُطُورها رُوحي.

البَصَائرُ القُرآنيَّةُ ــ يا رَفيقَ البَصائرِ ــ نُورٌ يَتألَّقُ ونَبْعٌ يَتدَفَّقُ؛ فَالقُرآنُ مَصدرُ طاقَةِ المُؤمنِ وَقُوَّتِه، ومِنهُ مَدَدُهُ، وفي كُلِّ سُورَةٍ نَرفَعُ شِعارَ التَّسويرِ حتَّى تَخْرُجَ منها وقَد اتَّضَحَ لكَ مَقصِدُها الأَتَمُّ، وعَمُودُهَا الأَعْظَمُ، فَيَتَّصِلُ لَديكَ البَيانُ القُرآنيُّ العَظيمُ من بِدَايَتِه إلى نِهايَتِه، ومِن مُفْتَتَحِه إلى مُخْتَتَمِه.

هُنا بَينَ هذه الصَّفحاتِ الَّتي أنتَ تُقَلِّبُهَا القِصَّةُ الحَقيقيَّةُ لِبِدايَةِ التَّاريخِ البَشَريِّ، والتَّكريمِ الرَّبَّانيِّ للبَشَريَّةِ بالاستِخْلَافِ في هذه الأرض.

سَيَشُدُّكَ العَجَبُ وأنتَ تَقْرَأُ في صِفاتِ إبليسَ، وكيفَ تَمَرَّدَ عَلَى مَلِكِ المُلُوكِ، وخَرَجَ عَن خَطِّ السَّيرِ، فحَقَّتْ عَلَيه اللَّعنَةُ، وكيفَ هَبَطَ آدمُ عليه السلام إلى الأرضِ بِسَبَبِ أوَّلِ زَلَّةٍ، فَكانَت تلك المُخَالَفَةُ دَرْسًا لا يَنْسَاهُ أبدًا، مِمَّا جَعَلَهُ يَأخذُ عُدَّتَهُ، ويَسْتَعِدُّ استِعْدَادًا كَامِلًا لِخَوضِ المَعرَكَةِ مَعَهُ.

أَرْجُو أن تَقْرَأَ هذه البَصَائرَ بِرُوحِ المُحِبِّ، وَفَّقَنِي اللهُ وإيَّاكَ لِمَرضاتِه، وَأَسعَدَنِي وإيَّاكَ سَعادَةَ الأَبَدِ.

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
UFUK neşriyat
BASIN-YAYIN-DAĞITIM
www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com